محمد الباز

محاكمة الشعراوى

ماله وما عليه

Bibliotheca Alexandrina
0102073

مكتبة مدبولي الصغير

محاكمـــة الشـــعراوى

«الشيخ الشعراوى ما له وما عليه»

الناشر : **مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ١٤٤٧٧ / ٩٦
الترقيم الدولى : 977/296/017-1

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٩٩٧م

الغلاف : أحمد صفوت

محاكمة الشعراوى

«الشيخ الشعراوى.. ما له وما عليه»

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف : 297,61
ب م ج
رقم التسجيل : ٢٦٦٧٢

محمد البـــاز

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الناشـر: مدبولـى الصـغير

الإهداء

إليهـــــا..

تلك التى تأتى كل الأشياء

بعـــدها..

هذه ليست محاكمة...
فقط قولة حق في رجل اختلف عليه الجميع
فالبعض معه.. والبعض ضده
نحن هنا لسنا معه أو ضده...
بل نقول له هنا أخطأت... وهنا أصبت.

كلمات قليلة... لكن لابد منها

لماذا الشعراوى بالذات..؟!

لأنه الشعراوى بالذات..!!

فالشعراوى ـ بدون مبالغة ـ أصبح رجلاً بلا أسرار..

أضحت حياته بكل تفاصيلها فى متناول الجميع... فلم تعد هناك حادثة صغيرة أو كبيرة مرت بحياته لايعلمها الناس.

بالطبع هذا يجعل الدخول إلى ساحة الرجل أمراً صعباً.. فالصورة التى يقوم الكثيرون على رسمها للشعراوى تحت إشرافه وبقصد منه كادت أن تكتمل، لذا فالخطوط الجديدة التى يجب أن تضاف إليها، يجب أن تضيف شيئاً وإلا فلا، إذ أنه ماذا يعنى الكلام وسط محيط من الكلام المكرر والمعاد بلا حتى تنويع فى عرضه، فقد مُلئت الصحف والكتب والإذاعات ومحطات التليفزيون بحياة الشيخ وأحاديثه..

وهذا يفرض علينا شيئاً من المواجهة..

فهل هناك جديد يمكن أن يضاف لما قاله الشعراوى عن نفسه أو ماقاله عنه الآخرون..؟!

بالطبع يوجد..

فلو وضعنا مئات الكتب التى تصدر حاملة اسم الشعراوى، والتى لاتختلف إلا فى عنوانها فقط..

ولو تركنا عشرات الكتب التى تصدر عن الشيخ وحياته والتى لاتختلف كذلك إلا فى عناوينها، فكلام الشيخ للجميع واحد، وهو معذور، فالأسئلة واحدة. لو

تركنا ذلك كله وأمسكنا بهذه الأوراق يمكن أن نجد شيئاً جديداً فى أفكار الشيخ وفى حياته أيضاً. .

من حكم العقل ألا نراهن على جواد خاسر. .

ومنطق العقل يؤكد لنا أن الشعراوى بأى حال من الأحوال ليس جواداً خاسراً، وعليه فالمدخل الجديد لحياة الشعراوى يأتى من نقطة هامة، فالذين يهاجمون الشعراوى يهاجمونه على طول الخط وإلى أبعد الحدود، ينزعون عنه كل ثياب يحاول أن يستر نفسه بها، ويغمزون ويلمزون فى حياته ومواقفه وآرائه، وكلما قال الشيخ شيئاً لايعجبهم أسرعوا إليه قائلين كأطفال صغار: «فاكر لما قلت كذا. . فاكر لما عملت كذا. . فاكر موقفك من كذا. . .».

أما أولئك الذين يدافعون عن الشيخ فهم يقومون بمسرحية هزلية بلا أبطال على الإطلاق، حيث إن الرجل عندهم لايخطىء مطلقاً وكلامه يتزيا بثوب مقدس لايستطيع أحد أن ينزعه عنه، ويشرعون أسلحتهم فى وجه من يريد أن ينال من الشيخ ولو حتى بكلمة.

المأساة هنا، وأقول المأساة، لأنها بالفعل كذلك. . هى أن الشيخ يضيع ويصبح فى الزاوية الباهتة، والسبب الوقوف على طرفى النقيض بين مؤيد أبداً ومعارض يريد أن يهدم دائماً.

ما أريد أن أقوله ببساطة شديدة. .

أنى أحب هذا الرجل وأحترمه، لكنى لا أقدسه، لا أضعه فى درجة أن النظر إليه حرام والاعتراض عليه كفر، وكذلك لا أتدنى بنظرتى إليه فأجعله متهماً دائماً ومخطئاً دائماً. .

فى النهاية هو رجل تعلم، وكثير هؤلاء الذين تعلموا. . وقد يكون اجتهد فأخطأ أو أصاب، وكثيرون هم الذين اجتهدوا فأخطأوا أو أصابوا. .

هذا هو الشعراوى الذى يجب أن نقابله، وهو الذى سوف تقابله على هذه الصفحات بالفعل.

الفصل الأول

الشعراوى أبيض... وأسود

«نظرة روائية لحياة الشعراوى»

البدايـــة...

* دقادوس فى ١٤ أبريل ١٩١١:

تهرب الشمس كـعادتها كل يوم... ترحل دون استئذان حـيث تسكن بعيداً عن الأنظار، يعود المزارعون إلى بيوتهم بعد يوم طويل من التعب والإرهاق، ورغم التعب والإرهاق فلا ينام أحدهم قـبل أن يصلى العشاء، ويختم يومـه بشكر ربه على السراء والضراء.

فى هذا اليوم أراد الله ألا يكون مـعتاداً للشـيخ متولى الشعـراوى الذى عاد من عمله ليجد زوجته على وشك الوضع.

استدعى لها «الداية» وظل ينتظر...

تأخر الشيخ عن صلاة الفجر على غير المعتاد، لكن الخروج عن عادته لم يذهب سدى فقد جاءه بمولود صغير.

لم يكن هناك ـ إذن ـ شىء غيـر عادى على الإطلاق سوى أن متـولى الشعراوى لم ينم ليله ولم يصلِّ الفجر فى جماعة كما اعتاد كل يوم...!

الحياة سارت كما هى بدون زيادة أو نقصان..

فالمولود الجديـد محمد متـولى الشعراوى مولود عـادى جداً، وفى نفس اللحظة

التى وُلد فيها هناك بالتأكيد مئات الأطفال الذين وُلدوا وتوافقت صرختهم الأولى مع صرخة الشعراوى الطفل، منهم من أكمل طريقه فى طاعة ربه، ومنهم من انحرف عن جادة الطريق. . . وكما كان منهم محمد متولى الشعراوى الذى يلقب بإمام الدعاة إلى الله، فإن منهم بالتأكيد من يلقب بإمام الفجور والفاجرين. . الفارق الوحيد أننا عرفنا الشعراوى ولم نعرف الآخر. .

وكم سعدنا بذلك. .

* دقادوس فى ١٥ أبريل ١٩١١:

عادت الشمس آخذة معها متولى الشعراوى إلى المسجد الذى ظل خاله وبعض أصدقائه ينتظرونه فيه. . . فقد لفت انتباههم تأخره، ولما سأله خاله عن سبب تأخره عن صلاة الفجر، قال أن زوجته وضعت ولداً وكان مشغولاً بذلك. . .

بعد أن بارك له الجميع قال له خاله أنه بُشر بهذا الطفل حيث رأى فى منامه أن كتكوتاً صغيراً وقف على منبر المسجد وأخذ يخطب فى الناس. . ساعتها نوى متولى الشعراوى أن يهب ولده هذا للأزهر الشريف حتى يكون عالماً من علماء الدين والقائمين على رعايته وحفظه.

والطبيعى أن نقبل مثل هذه الرواية عن الشيخ عندما يحكيها بنفسه، فمادام أنه قد وصل إلى المكانة التى هو فيها الآن، وأصبح ملء السمع والبصر بهذه الطريقة، فمن حقه علينا أن نصدق هذه الرؤيا التى رآها خال والده.

فلأن كل العظماء يجب أن تكون هناك نبوءات فى بداية حياتهم بأنهم سيكونون ذوى شأن، فالشعراوى يجب أن تكون له مثل هذه النبوءات. . ولو طلب منَّا أن نصدق فلنصدق.

لكننا نقول له: لا ياشيخ، فالهدف من ورائك كعالم دين أن يستفيد الناس من

علمك لا أن يفتن الناس بأحداث حياتك، وهذه واحدة، أما عن النبوءات فأمرها شائع... قليل منها مايكون صادقاً.. وكثير جداً مايكون فقط محاولة لصنع الشخصيات الأسطورية، فأنا مثلاً أقبل النبوءات الخاصة بالأنبياء.. لكن النبوءات الخاصة بغيرهم فقد تقف وراءها أهداف أخرى.

من أشهر هذه النبوءات..

ماقاله ابن عبدالحكم فى كتابه «فتوح مصر» عن عمرو بن العاص فى رواية طويلة، حيث قال:

«كان عمرو بن العاص قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة مافيها، وكان سبب دخول عمرو إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش، فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح..

وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكانت رعية الإبل نوبة بينهم، فبينما عمرو يرعى إبله، إذ مر به الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى، ونام الشماس مكانه وكانت إلى جانب الشماس حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها..

فقال لعمرو: ماهذه..؟

فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها..

فأقبل على عمرو فقبّل رأسه وقال له: قد أحيانى الله بك مرتين.. مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد..؟

فقال: قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا.

فقال له الشماس: وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك..؟

قال: رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيراً، فإنى لا أملك إلا بعيرين، فأملى أن أصيب بعيراً آخر فتكون ثلاثة أبعرة.

فقال له الشماس: أرأيت دية أحد بينكم كم هى..؟

قال: مائة من الإبل.

قال له الشماس: لسنا أصحاب إبل إنما نحن أصحاب دنانير.

قال: يكون ألف دينار.

فقال له الشماس: إنى رجل غريب فى هذه البلاد وإنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس، وأسيح فى هذه الجبال شهراً، جعلت ذلك نذراً على نفسى، وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى بلادى، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله أحيانى بك مرتين؟

فقال له عمرو: وأين بلادك؟

قال: مصر فى مدينة يقال لها الإسكندرية.

فقال عمرو: وتفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق؟!

فقال له الشماس: نعم لله بالله علىّ العهد والميثاق أن أفى لك وأن أردك إلى أصحابك.

فقال عمرو: كم يكون مكثى فى ذلك؟

فقال: شهراً.. تنطلق معى ذاهباً عشراً وتقيم عندى عشراً وترجع فى عشر، ولك علىّ أن أحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يحفظك راجعاً.

فقال عمرو: أنظرنى حتى أشاور فى ذلك أصحابى.. فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس وقال لهم تقيمون علىّ حتى أرجع إليكم ولكم علىّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به. فقالوا له:

نعم. . . وبعثوا معه رجلاً منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها ومابها من الأموال وقال: «مارأيت مثل مصر قط وكثرة مافيها من الأموال».

ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيد فيها عظيم. . يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم، وفيما اختبروا من تلك الأكرة على ماوضعها من مضى منهم، أنها من وقعت الأكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. . فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم وأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو، فعجبوا من ذلك وقالوا ماكذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة. . .

أترى هذا الأعرابى يملكنا؟!

هذا ما لايكون أبداً. . !!».

انتهى هنا كلام ابن عبدالحكم فى كتابه «فتوح مصر».

ونثبت هنا رأياً للدكتور نظمى لوقا فى تعليقه على هذه الحادثة، حيث قال: «واضح أن نصيب الأسطورة فى هذه الرواية جد كبير وواضح أن الناس ابتدعوها بعد أن أصبح عمرو فلتة من فلتات زمانه، وفتح الله عليه مصر بأربعة آلاف عربى. . وللناس ولوع بأخرفة الأقاصيص عن الأبطال والأفذاذ فيأبون أحياناً إلا أن ينسبوا إليهم الخوارق أو يجعلوا الأقدار تشير إلى مستقبلهم الخارق للمألوف بآيات وعلامات أعجوبية. . فأكرة الذهب هذه ليست إلا من قبيل تلك العلامات التى ينسجها الخيال الشعبى حول رجل الأقدار، وكل مفادها أن عمرو بن العاص كان فى نظر الناس رجل الأقدار، ومن المقطوع به أن أهل الإسكندرية لم تكن لهم مثل هذه العادة وأن ولاة الإسكندرية كانوا يعينون من بيزنطة لا من أهل الإسكندرية. .

ولا يخفى أن عمرو كان يجهل القبطية واليونانية وأن الشماس السكندرى لم يكن ليعرف إلا هاتين اللغتين، وليس له بالعربية علم، فأى حديث هذا الذى كان من الممكن أن يتصل بينهما . . !!».

انتهى أيضاً كلام الدكتور نظمى لوقا عن هذه الحادثة . .

لكن أليس من الممكن أن يكون عمرو بن العاص ذاته هو الذى يقف وراء ترديد هذه النبوءة التى كانت فى أيام جاهليته.

هذا جائز جداً خاصة إذا اقتربنا من دهائه السياسى والذى فعله فى حادث التحكيم مع أبى عبيدة بن الجراح، وقد يعترض البعض حيث إنه ليس هناك مبرر يدفع عمرو بن العاص إلى اختلاق هذا الموقف . . وأدعى أنه ليس هناك مبرر أكثر من إحكام السيطرة والاحتفاظ بالحكم وجعل الرعية فى قمة الطاعة لمن يسوسها يحرص عليه الحاكم.

نعود للشعراوى مرة أخرى . . .

فالنبوءة التى وُلدت يوم مولده بأن كتكوتاً وقف يخطب على المنبر مقبولة والعهدة عليه كراوٍ، لكن هناك أمرين . .

* **الأول:** لماذا يحكى الشيخ مثل هذه النبوءة ويحرص أن يعرفها الناس عنه؟ . . بالطبع ليس ذلك على سبيل التسلية أو حتى من قبيل الحكى، لكن ليست هناك موانع من بعض التعزيزات التى تقول لنا أن القدر يصطنع هذا الرجل لموقف عظيم.

فالنبوءات عادة لاتردد إلا بعد أن يصل الناس إلى مواقعهم الكبيرة والهامة.

* **والثانى:** هو منطق الرواية ذاته وليس هناك فى الأحلام منطق بالطبع . . فكل شىء يمكن أن يحدث . . حتى أن البعض يمكن أن يرى قطعة من الحجر تخطب فى الناس من فوق المنبر وليس كتكوتاً.

لكن الرواية ذاتها تحمل قدراً من المزاح، حيث علق أحد الحاضرين بعد أن سمع رؤيا خال متولى الشعراوى قائلاً: «أصل الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح» . . وعليه فمن حق الشعراوى أن يتحدث عن مثل هذه النبوءات والأحلام فى مجالسه مع أصدقائه لكن أن تنشر على قراء، فهذا غير مقبول.

ومع ذلك فأنا أصدق الشيخ فى هذا الكلام.. فليس أمامى إلا أن أصدقه حتى يثبت العكس.

ومتى يثبت العكس؟.. شيء لايعلمه إلا الله.

*** دقادوس.. المكان والمعنى:**

بقعة من الأرض إلى شبه الجزيرة أقرب..

فدقادوس تلك القرية التى تنضم فى سلسلة واحدة مع آلاف القرى فى مصر لايفصل بينها شيء.. فهناك أوجه اتفاق فقط.. لاتوجد أية اختلافات بين القرى فى مصر.. فهى واحدة فى كل شيء.. البيوت.. الناس.. حتى الكلام تشعر أنه كلام واحد وإن اختلفت الموضوعات.. فشكل الكلام واحد.

وُلد الشعراوى فى دقادوس التى تقع بالقرب من ميت غمر محافظة الدقهلية.. من ناحيتها الغربية يقف نهر النيل فرع دمياط ومن الناحيتين الشرقية والشمالية نجد الريّاح التوفيقى.

وعلى عادة القرية المصرية قسمت دقادوس إلى عدد من الحارات.. وبالرغم من أن دقادوس تمتد بجذورها فى أعماق التاريخ حيث يقال أن الاسم يرجع إلى العهد الرومانى إذ كانت تسمى «اتوكوتوس»، وعندما دخل العرب مصر أصبح اسمها «دقدوس»، وظل الاسم كذلك حتى أصبح على الألسنة «دقادوس».

القرية إذن لها تاريخ وإن لم يتعد تاريخاً من ناحية الاسم.. ومولد الشعراوى فى هذه القرية ليست له أية دلالة.. ليست هناك ـ كما قلنا ـ نبوءة معينة نستطيع أن نربط بها بين الرجل والمكان.

وإن كان الشيخ نفسه عندما يتحدث عن القرية تجده يتحدث حديث الوجد، حيث يقول:

«لم أكن أرغب في دخول الأزهر لأنني لم أكن أريد أن أبتعد عن بلدتي الصغيرة.. عن دقادوس الجميلة، عن الأرض التي أحببتها.. المزارع.. والحقول.. عن حدائق الليمون والعنب.. عن النيل والريّاح والجزر التي تغمرها مياه الفيضان ثم تنحسر عنها فتكسوها الخضرة..

كنت أحب أن أكون مزارعاً وأن أبقى في دقادوس.. ودقادوس التي لم أكن أطيق البعاد عنها هي القرية التي فيها ولدت وعشت طفولتي وصباي وشطراً من شبابي.. ورغم تغريبتي الطويلة وتجوالي وسفرياتي فهي مازالت في القلب وعلى اللسان».

إحساس جميل ذلك الذي يطغى على كلمات الشيخ عن بلده، لكن أغلب الظن أن هذه الكلمات صيغت على لسان الشيخ بعد طول تجوال وترحال، فلم تكن دقادوس هي ذلك المكان الذي يلعب مكوناً ذا شأن في شخصية الشيخ بحيث يظل معه طوال حياته..

لكنه فقط حنين إلى مواطن الذكريات ونوع من إسباغ القداسة والعمق الذي يمتد بالشيخ إلى الطين والأرض.

هل الشيخ مخطىء عندما تحدث عن بلده وقريته وصباه فيها؟..

بالطبع لا.. فهذا حقه.

بل واجب عليه أن يتذكر دائماً القرية التي تنفس فيها أول ذرة هواء، ونحن لانريد أن نضع خطاً أسود على جانب من جوانب الصورة التي يريد أن يرسمها الشيخ لنفسه وتحتل دقادوس مكانة عظيمة فيها، وإذا كان من حق الشيخ أن يتحدث عن قريته فله مايريد.

فقط نسجل أن الشعراوي بعد طول تاريخه يدلنا تكوينه على أنه ينتمي إلى دقادوس الناس أكثر من انتمائه إلى دقادوس المكان.. حيث إن القرى عادة ماتتغير خاصة والعمران يزحف..

ولو نزلنا اليوم قـرية وسألنا أغلب الموجودين فيهـا عن شكلها من خمسـين عاماً فقط فلن يتذكر أحد..

حاول.. وستجد نتيجة..

إذن الشعراوى عندما يتحدث عن القرية فنحن نقبل منه الكلام عن الناس.. عن العادات.. عن التـقاليد.. عما تعلمـه.. وليس حديثه عن حدائق الليـمون والعنب والجُزر التى كانت يغمرها الماء ثم يجف.

ولأنى مقـتنع تمام الاقتناع أن هناك علاقة ثنـائية بين الإنسان والمكان فقـد ألتمس للشيخ الذى يعـرف ذلك أيضاً العذر.. حـيث إن كثرة حديـثه عن القرية وأخلاقـها والزرع والحصاد والنيل والحقول، كل ذلك يجذب إليه جـماهير غفيرة من أهل القرى والريف حيث إن الشـيخ الشعراوى بسـهولة كبيـرة يمكن أن تعثر عليـه فى كل قرية مصرية.. رجل بنفس الملامح وبنفس الشكل وبنفس الطيبة وعلامات التقى والورع.. بالطبع ليس اسمه محمد متولى الشعراوى..

لكن فيه رائحة محمد متولى الشعراوى.

وعليه أستطيع أن أرفع من مكونات الشيخ تأثره بالمكان حـيث إن أحاديثه خاصة تعكس ظاهرة صوتية للارتباط بالريف، فكثيراً مايردد الشيخ كلمات من شاكلة:

- «**عندنا فى الريف...**».

- «**لما كنا زمان فى القرية...**».

- «**زمان كان الفلاحون يعملون كذا...**».

وكثير من الأمـثلة الشعبية التى تشيع فى أوساط الفـلاحين.. إذن حرص الشيخ على تأكيد هويته الفلاحية - إذا جاز لنا أن نعبر بهذا اللفظ - أمرٌ له شأن عند المستمع.

فالشعراوى لايحمل للناس رسالة جاءه بها الوحى مثل الرسول - صلى الله عليه

وسلم ـ الذى أثرت فيه مكة فى كل خلاياه ودعاؤه أثناء هجرته يعطينا الدليل على ذلك.

الشعراوى ليس صاحب مذهب فلسفى مثل كيركيجارد الفيلسوف البلجيكى الذى كانت أفضل أوقاته يقضيها عند القبور.. وصارت القبور هى أحب الأماكن إلى قلبه وانعكس هذا الحب على فلسفته الوجودية التى كان أول من نادى بها.

الشعراوى ـ من وجهة نظرى ـ داعية يحمل بين جنبيه القرآن ويحاول أن يجتهد.

الحديث عن المكان إذن ليس ذا بال فى طريقه أو عند قرائه.. المشكلة التى تبقى هى أن الشعراوى تحول الآن من الحديث عن دقادوس موطن الذكريات إلى دقادوس التى زحف إليها العمران وأصبحت إلى المدينة أقرب من القرية، حيث ظهرت فيها جهود الشيخ ويكفى المجمع المتكامل الذى يحمل اسمه فى القرية.. هل لمثل هذا الحديث دلالات معينة؟.. أنا أرى أنه ليست هناك دلالات عامة.. لكن المؤكد أن هناك دلالات.. ودلالات كثيرة فى رأس الشيخ.. قد تكون دلالات خاصة.. علم هذا عند ربى..!!

* «عيل» يصنع التماثيل:

كيف قضى الشعراوى فترة صباه..؟

كأى طفل من أطفال الريف.. عرفت أقدام الشعراوى طريق الشارع واختلط بأبناء الفلاحين.. ليست هناك مغالطة فى ذلك، فأهل الريف هكذا دائماً.. الأب فى عمله.. والأم تجاهد من طلوع الشمس إلى غروبها، وذلك يعطى الفرصة للشارع لتلقى دفعات متوالية ومتجددة من أبناء الفلاحين.. يأخذ اللعب البرىء من وقتهم معظمه.

الشعراوى كان هكذا أيضاً..

امتدت فترة صباه لتسكن فى ثلاثة مسارات..

*** الأول: اللعب الطفولى البرىء..**

وبرع الشعراوى فى صناعة التماثيل من الطين. ويقول الشعراوى عن ذلك:

«كانت لى هواية، هى تشكيل وعمل التماثيل من الطين، وكان معروفاً عنى ذلك، كنت آخذ من الطين وأشكل منها جملاً أو كلباً أو جاموسة أو حمارا، وأحياناً كنت أعمل ساقية تجرها قطة وأعمل للساقية غيطا وللغيط خفيرا، كنت مغرماً بهذه الهواية وكنت أدهن التماثيل بسائل لزج يشبه اللبن كنت أستخرجه من أشجار الجميز ومن ثماره، فكانت التماثيل تبدو لامعة كأنها مدهونة بمادة الجملكة..».

كلام جميل للغاية، ونستشف منه مدى الطفولية والبراءة التى يتمتع بها الشيخ، فليس فى الكلام مايعيب.

لكن هناك مايُضحك، حين يأتى أحد الصحفيين ليقول فى مقال له: «ورغم أن الشعراوى بدأ حياته مثّالاً أو مشروع مثّال يصنع التماثيل بالطين ولبن الجميز..».

وما أملكه الآن هو أن أدعو لهذا الصحفى فقط، لأن ملاحظته جعلتنى أضحك، ولولا أنى كنت مستلقياً وأنا أقرأ مقاله لقلت كدت من كثرة الضحك أن أستلقى على ظهرى.

فأى بداية تلك التى تتحدث عنها لطفل مازال يلهو، يأخذ الطين ليشكل منه حماراً أو جاموسة، وبالتأكيد أنه بانتهائه من لعبه كانت أمه تعنفه لأن يديه وملابسه كانت قد اتسخت من الطين الذى يستخدمه فى صناعة تماثيله!! لكن أن نصل مع الشيخ حتى نقول أنه «بدأ حياته» مثّالاً أو مشروع مثّال، فهو كلام ينقصه المنطق، هذا إذا كان فيه منطق، فلا يمكن أن نعتبر لعب طفل ولهوه بداية لحياته.

لكن يبدو أن الشيخ فى حديثه عن هذه الفترة وهذه الهواية قد أغرى من يقول مثل هذا الكلام، حيث إنه يتحدث وكأنه بالفعل يتحدث عن فنان يصوغ أشكالاً جميلة وبديعة من الطين.

وهذه مأساة الشيخ إذ أنه يتحدث عن مرحلة طفولته بمنطقه وفكره الحالى.. فليتحدث الشيخ عن طفولته بفكره نعم.. لكن بمنطق وقتها، هذا مقبول، فتلك الأشكال التى كان يصنعها الشعراوى لو سألناه عنها وقت أن كان يلعب بها لقال أنها عروسة.

فهكذا الأطفال يصنعون من الطين رجلاً أو امرأة أو حتى كما يقول الشيخ ساقية تجرها قطة، وعند سؤالهم يقولون عن جميع الأشكال أنها عروسة.

لكن الشعراوى يستحق...

*** الثانى: كان طريق القرآن..**

فمن علامات القرى المصرية ومن لوازمها وجود الكتاتيب فيها لتحفيظ القرآن.. على أرض كُتّاب الشيخ عبدالمجيد باشه جلس الشعراوى كى يمر بمراحل التعليم الثلاثة فى أى كُتّاب.

فهناك يتعلم الطفل القراءة والكتابة عن طريق تنقيط العريف للكلمات ثم يطلب من الطفل أن يمر على هذه الكلمات بالقلم، فيتعلم الطفل شكل وهندسة الكلمة، ثم تبدأ مرحلة الحفظ الجماعى، حيث يقرأ العريف الآيات ثم يرددها خلفه أطفال الكُتّاب، ويصبح هناك مايسمى بالماضى يسترجعه العريف مع الأطفال يومياً.. وفى المرحلة الثالثة تكون بالاتصال الشخصى بين الطفل وبين الشيخ، فيقرأ عليه مايسمى «باللوح».. ويقوم الطفل بحفظه، ثم يأتى فى اليوم التالى ليقرأ على الشيخ اللوح الذى حفظه أمس، واللوح الذى حفظه أول أمس، وهذا مايسمى بالسورة، ثم يقرأ الطفل يومياً بعض القديم الذى حفظه من سور القرآن، وهذا مايسمى بالحصة.

ظل الشعراوى هكذا حتى حفظ القرآن وهو فى العاشرة من عمره، وليس من

المعـقول أن تمضى تلك الفـترة دون نظر . . فـهناك بالتـأكيـد أشيـاء كثـيرة لم يقلهـا الشعراوى . . ناسياً بالطبع، فليس فى الأمر تعمد!!

وهذه الأشياء تأتى كى تحكى عن يوميات الشعراوى فى كُتّاب الشيخ عبدالمجيد، فكما كل الكتـاتيب فى مصر، يجلس الأطفال بنين وبنات سـوياً، والسؤال المنطقى: هل كان الشعراوى كما الآن طفل «تقية» لايقترب من زملائه فى الكُتّاب؟

بالطبع لا . . فلابد أن هناك العـديد من الصراعات والمشاجرات والمشـاغبات بين أطفال الكُتّاب ومنهم الشعراوى بالطبع . .

الشعراوى لم يحكِ عن هؤلاء . .

لم يحكِ عن بنات الكُتّاب، فـلابد أن قلب الطفل الشـعراوى قـد دق ذات مرة لوجه طفلة برىء، وكان يحرص دائماً على رؤيتهـا وربما الجلوس بجانبها خلسة حيث إن شيخ الكُتّاب ـ كالعادة ـ كان يفصل بين البنات والبنين . .

ربما لم يحدث هذا . .

إذن لن نتمادى فـيه، وإن كان حدث فـقد قلنا وإن لم يحدث فليغفـر لنا الشيخ جرأتنا عليـه وعلى طفولته . . وإن كـان ذلك لم يحدث فالذى حـدث بالفعل هو أن الشعراوى عُلّق فى «فلكة» الشيخ . . يحكى الشعراوى:

«مازلت أذكر العلقة الساخنة التى أخذتهـا بسبب النطق الخطأ للآية التي تقـول ﴿حم عسق﴾، ولهـذه الجملة فى القرآن نطق خـاص غير كتابتها، فهى تنطق كل حرف مفرداً هكذا (حا.. ميم.. عين.. سين.. قـاف)، ولكنى أخطأت ونطقتها كما كتبتها فى اللوح هكذا (حم عسق)، فأدرك الشيخ عبدالمجيد أننى لم أصغ إليه جيداً وهو ينطقها فـوضعنى فى الفلكة وكـانت العلقة سـاخنة ولم ينفع الصـراخ ولا الاستغاثة..».

إذن عُلّق الشيخ فى الفلكة والحمد لله على ذلك . .

ولا أشكر الله على أن الرجل ضُرب، ولكنى أحمده لأن ذلك فوت على دراويش الشيخ فرصة التغنى بمدى عبقرية الشيخ فى حفظه للقرآن، وربما يفعلون معه مثل مايقال عن الإمام الشافعى، إذ قيل أنه كان يحفظ بمجرد النظر فى المصحف حتى أنه كان يضع يده على الصفحة المقابلة للصفحة التى يحفظ منها حتى لايحفظها أولاً!!

وربما كان هؤلاء يقولون عن الشعراوى أنه يحفظ بمجرد فتح المصحف، لكنه كأى طفل يتعلم القرآن فى الكُتّاب يحفظ فيثاب ويخطىء فيعاقب، يتكاسل وينشط، يتبرم من الحفظ ويقبل عليه، فلا شيء هناك غير عادى..

نستطيع أن نقول أن الشعراوى ظل يلعب ويصنع التماثيل وهو يحفظ القرآن، فلا تعارض بين أن يحفظ القرآن وبين أن يلعب لعباً طفولياً بريئاً..

*** والثالث: كان فى الزراعة..**

مرة أخرى كان الشعراوى كأى طفل من أطفال القرية يعمل أبوه فى الزراعة، فقد كان متولى الشعراوى والد الشيخ يمتلك قطعة صغيرة من الأرض يزرعها، وعرف الشعراوى طريق الأرض ليس بحكم عشقه لها ولكن بحكم أنه ابن فلاح، وعلى عكس المنطقى والمعقول حيث إن الصغار عادة لايحبون العمل فى الأرض ويتبرمون من ذلك ويهربون من العمل مع آبائهم..

لكن الشعراوى يؤكد أنه كان يحب الزراعة والعمل إلى جانب والده للدرجة التى صرح فيها الشعراوى بأنه لم يكن راغباً فى الاستمرار فى التعليم الأزهرى فى مراحله الأولى، وكان يعاوده الحنين إلى قريته حيث يرغب فى الاستقرار بها والعمل فى الزراعة.

الشعراوى إذن فى صباه كان طفلاً عادياً للغاية، وعليه ليس من السهل أن نقبل كلام أحد دكاترة الجامعة الذى قال عن طفولة الشعراوى:

«كان الطفل الصغير محمد متولى الشعراوى هادىء الطباع، كثير التأمل، طويل النظر فى الأرجاء والنواحى المختلفة للطبيعة، وكان يجذبه هديل الحمام وأصوات الطيور التى تروح وتغدو فى الحقول، ولايحلو له شيء مثل الجلوس على قش الأرز فى الليالى المقمرة الهادئة التى تعتبر من سمات ومحاسن الريف..».

كلامك جميل ياأستاذنا الجامعى، لكنك نسيت أن تقول لنا فى أى رواية وعن أى بطل قرأت هذا الكلام؟!

فمثل هذه الأوصاف تضر الشعراوى أكثر مما تنفعه، لسبب بسيط أنها تحوله إلى شيء أشبه بالأسطورة.. يتحول الشعراوى إلى معصوم لايخطىء، وإذا كان لنا أن نفعل شيئاً فعلينا فقط أن نسمع للشيخ.

وأظن أن هذا مرفوض.

طفولة الشيخ إذن لم تتعد طفولة أطفال نراهم فى الريف يلعبون ألعاباً مختلفة، ويجلسون سوياً فى كُتّاب القرية ويعملون مع آبائهم فى الزراعة. ولا أحد يدرى فلو وفرت الأقدار لألف طفل من الريف ماوفرته للشعراوى كنا ساعتها سنعيش فى عصر فيه ألف شعراوى.. لا شعراوى واحد، لكن كثيراً ماتنسى الأقدار وتركز على واحد فقط يكون هو المراد، وهذا شيء لاتُسأل الأقدار فيه..

سنوات مجهولة..

خمس سنوات مجهولة من حياة الشيخ . .

ربما تكون خالية من الأحداث ولذا لم يتحدث عنها الشيخ . . أو أن الشيخ فى زحام الذكريات والأحاديث والكلمات المتسارعة إلى الآذان قد يكون نسيها.

فقد أتم الشيخ حفظ القرآن فى العاشرة.

وعندما التحق بالمعهد الابتدائى الأزهرى كان عمره ساعتها خمسة عشر عاماً، حيث التحق بالمعهد عام ١٩٢٦ .

هناك إذن خمس سنوات لايذكرها الشيخ، لكن بتتبع بسيط لأحداث حياة حفظة القرآن نستطيع أن نقول أن الشعراوى قضى هذه السنوات فى التأكيد على حفظه للقرآن والاستعداد لدخول الأزهر . . لكن المؤكد أن هذه السنوات الخمس لعبت دوراً هاماً وكبيراً فى التنشئة الدينية للشيخ.

ويغزونا هنا سؤال . .

هل كانت هناك تنشئة دينية خاصة تربى فى ظلها الشعراوى؟!

من الصواب أن نقول: لا . .

لكن من الخطأ أن نتعجل فى «لا» هذه . .

فدقادوس القرية كما القرى المصرية كانت تنعم بجو مشحون بسحابات دينية روحية ولم يكن أهلها يكتفون برمضان فقط، حيث تبلغ فيه الأعمال الروحية قمتها، ولكن تدور السمات الروحية على مدار العام والمناسبات الدينية كفيلة بذلك، فرأس السنة الهجرية ثم المولد النبوى فالإسراء والمعراج فليلة النصف من شعبان ثم رمضان. . وأخيراً يأتى موسم الحج.

كل هذه مناسبات تجتمع لها القرى.

وقد انفردت دقادوس بشىء آخر، حيث تواجد فيها خمسة مشايخ طرق صوفية، ويقول الشعراوى عن ذلك:

«كان لكل شيخ مريدوه وكل جماعة من المريدين كانت تدعو شيخها إلى البلدة فى بعض أو كل المناسبات الدينية، وعندما يأتى شيخ من هؤلاء المشايخ تحتفل به البلدة كلها، وتجد جميع المساجد عامرة والخير ظاهرا وكل بيت «يطلع صينية أكل»، وإذا كان عندنا خمسة مشايخ طرق وكل شيخ يأتى ويقيم فى البلد لمدة ١٥ يوماً فمعنى ذلك أن جميع شهور السنة كانت لاتخلو من مناسبة لشحن المواجيد والمشاعر الدينية، ومع الاحتفالات الدينية كانوا يوزعون علينا «دلائل الخيرات» فكنا نقرأها ونحفظها، ولكل ذلك كانت النشأة هى نشأة الالتزام من الطفولة..».

لو قلت أن الشيخ قضى السنوات الخمس فى مثل هذا الجو أكون محقاً، لكن وجود الشيخ فى مثل هذا الجو يمثل خطورة على بداية تكوينه بل يحفر نفقاً كبيراً فى تنشئته الدينية، وذلك للآتى:

* **أولاً:** من حيث التنشئة القرآنية، فذلك لاغبار عليه، لكن ولأن الشعراوى نشأ ولم تكن الإذاعة قد ظهرت ولم يكن التليفزيون قد اقتحم حياة الناس والمؤكد أن الصحف لم تكن تصل إلى قريته. . كل هذه العوامل ساعدت أن يكون الاتصال

الشخصى هو المؤسس الأول لشخصية الرجل.. ساعد على ذلك وجود مشايخ للطرق الصوفية فى القرية... تشرب الشعراوى هذا الجو وعايشه ولاشك أنه كان يحضر موالد هؤلاء المشايخ ويلمس عن قرب مايحدث فى حلقات الذكر، ولذا لن نستغرب فتواه فى مجلة التصوف الإسلامى ـ العدد ٩، السنة ١١، صفحة ١٧ ـ حيث كان السؤال:

مارأى الإمام فى التمايل أثناء الذكر.. هل هو من الدين؟

وكانت إجابة الشيخ:

«إذا لم تجد فيه نصاً فالأمر على الإباحة لأن النهى على التحريم افعل ولا تفعل، فهو على مطلق الإباحة، وإذا كان التمايل صناعياً كان نفاقاً، وإذا كان التمايل طبيعياً كان وجداً لا سيطرة لإنسان عليه والذكر راحة نفسية، وعلى كل حال فالذاكرون وإن تمايلوا فهم خير من الذين يتمايلون فى حانات الرقص».

يتضح من الكلمات السابقة أنها لشيخ لمس أحوال الذاكرين عن قرب بل لا أكون مبالغاً إذا قلت أن الشعراوى بفتواه لابد أنه انخرط ذات مرة فى حلقة من حلقات الذكر وحدث له كما يقول نوع من الوجد لاسيطرة للإنسان عليه، ولابد كذلك أنه وجد فيه راحة نفسية، ولذا فكلامه يخرج عن تجربة وليس نقلاً عن أحد زبائن الذكر. وهنا تأتى خطورة تلك الفترة التى خالط فيها الشعراوى أهل الطرق الصوفية ومعرفته لما يحدث فى موالدهم، فالشيخ هنا لم يتحدث عن السُنّة النبوية التى لانجد فيها أثراً لمثل هذه العادات القبيحة، والشيخ يبيح الأمر، فهو على العموم أفضل من التمايل فى صالات وحانات الرقص، وكما يقول أنه إذا كان صناعياً فهو نفاق..

ونسأل الشيخ هنا:

نفاق لمن يامولانا وحلقات الذكر لاتضم إلا الهائمين والمخمورين ويلجأون لمثل هذه الحلقات حتى ينسوا أنفسهم؟!

ويمكن أن نغفر ذلك للشيخ، فتنشئته تدخلت إلى حد كبير فى فتواه تلك.

* **ثانياً:** وهذا هو الأخطر، فقد كانوا فى الاحتفالات الدينية للمشايخ يوزعون عليهم «دلائل الخيرات» ـ والكلام للشيخ ـ فكانوا يقرأون ويحفظون مافى هذه الكتب ـ والكلام هنا على حد تعبير الشيخ أيضاً..

و«دلائل الخيرات» هذا كتاب من كتب الصوفية الذى ينتشر بين جماعات الصوفية بصورة كبيرة للغاية، وقبل أن نتعرض لمثل هذا الكتاب نحب أن نعرض فتوى للشيخ عن التصوف، حيث سئل فى مجلة التصوف الإسلامى ـ العدد ٧٨، صفحة ١٥ ـ وكان السؤال:

ماهو التصوف الحقيقى فى رأى الإمام الشيخ الشعراوى؟!

وكانت الإجابة:

«التصوف الحقيقى أن تعيش فى السوق وتعايش أحداث الحياة لقول الشاعر:

ليس زهداً تصوف من تقى … فر من غمرة الحياة بدين

إنما يعرف التصوف فى السوق … بمال ومطمع وفتون

هذا هو اليقين الإيمانى لأن من الفقه ألا تجد، والمرء الذى لايستميله الفساد وهو موجود فيه أحب عند الله لأن شرف العبادة أقيم من إلف العادة فى اجتناب المحظورات والنأى عن المحرمات... وليس التصوف الحقيقى فى رأينا النأى عن الحياة والبعد عنها وأستشهد بالإمام الصوفى أبو الحسن الشاذلى، فقد كان من أبرع الناس فى التجارة..».

ومع أن كلام الشعراوى كلام عام جداً.. لكن نظرة الرجل للتصوف معتدلة للغاية، حيث فسر التصوف وكوّن رأيه فيه فى ظل فهمه لحياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم.

وهذا لايمنع أن نتعرض لكتاب «دلائل الخيرات» الذى ـ كما قلت ـ ينتشر كالوباء فى أيدى الصوفيين، وكان الشيخ يقرأه ويحفظه فى بداية حياته وقد ترك أثراً فى حياة الشيخ هذا لاشك فيه..

الكتاب الذى فى يدى الآن كتاب سيىء على المستويين:

ـ مستوى الفكر الذى يحمله..

ـ ومستوى الورق المطبوع عليه وكذلك الطباعة.

والكتاب الذى وضعه ـ كما فى أول صفحة فيه ـ الإمام أبى عبدالله محمد بن سليمان الجزولى.

من الجزولى هذا؟!.. لا أعرف!!

ويلى متن الكتاب قصيدة البردة وقصيدة المنفرجة.. أعرف أن البوصيرى صاحب البردة.. لكن من صاحب المنفرجة؟.. لا أعرف.. ويبدو أن صاحب الكتاب لايعرف كذلك، إذ أنه لم ينسبها لنفسه ولم ينسبها لأحد غيره..

بهامش الكتاب مجموعة الأوراد والأحزاب والأدعية والاستغاثات.

والكتاب الذى يقع فى ٢٦٤ صفحة، تقسم صفحته مثل صفحة المصحف تماماً، فهناك مستطيل بجانب الصفحة مكتوب بداخله متن الكتاب ثم هامش به بعض الأوراد..

الكتاب إلى الآن ليس فيه مايسىء..

أوافق على هذا الكلام..

لكن الذى سيأتى هو الذى سيسىء:

* فى صفحة ١٣ يقول المؤلف عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «اللهم زده شرفاً على شرفه الذى أوليته، وعزا على عزه الذى أعطيته، ونوراً على نوره الذى منه خلقته».

والاعتراض هنا على كلمة نوره الذى منه خلقته، حيث إن الرسول خُلق من طين ولم يُخلق من نور إلا الملائكة، وهذا اتجاه سائد فى حومة تكريمنا للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث نأتى له بصفات لم يجزها هو نفسه لنفسه..

وحتى لو سلمنا بأنه مخلوق من نور، فبماذا نفسر ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾؟ والأمر لايكمن فى اختلافنا: هل الرسول - صلى الله عليه وسلم - من طين أم من نور؟ فهذا سفه من ناحية ثم ضياع للوقت من ناحية أخرى.

لكن الخطورة فيما يتبع هذا المنطق فى الحديث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فمادام النبى - صلى الله عليه وسلم - مخلوقا من نور فلا مجال لأحد أن يتصرف فى شىء من أمور حياته إلا بالوجه الذى كان عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - وتبدأ الدعوة للامتثال الشكلى، والكل يدرك خطورة هذا الأمر..

ومن السذاجة أن أقول أن هذه الدعوة تكوّن الصورة بمفردها.. لكنها خيط فى ثوب كبير يرتديه العديد من المسلمين ويطمسون به أشياء كثيرة مفيدة فى حياتهم بدعوى فقط أنها لم تكن موجودة أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم.

* وفى صفحة ١٦ يقول المؤلف عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - «مستمداً من حضرته العالية فى كل وقت وحين..».

واكتمالاً للنقطة السابقة فالرسول - صلى الله عليه وسلم - حذر من الاستعانة به وطلب العون منه هو، وحديثه الشريف: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»، وخطر الدعوة هنا هو تعميق الاتكالية، فنحن نحب النبى - صلى الله عليه وسلم - ونسعى على طريقه، لكن ليس معنى ذلك مطلقاً أن نترك حبال قوانا ونتواكل فى أمور حياتنا وإن كان هناك عون نطلبه فنطلب عوناً على تحقيق فعل يكون نافعاً للدين وللدعوة الإسلامية.

* فى صفحات ٣٨ و ٤٠ و٤١ يعطى المؤلف للرسول - صلى الله عليه وسلم - أسماء عديدة من شاكلة:

- محيى.

- غوث.

- ناصر.

- منج.

- صاحب الفرج.

- أجير.

هذا فى الحين الذى يأمرنا فيه الإسلام أن يكون اعتقادنا قاصراً على أن المحيى والمنجى وصاحب الفرج وأهل الغوث والنصر والإجارة هو الله وحده.. والله فقط.

* وفى دعاء ختم به المؤلف كتابه يقول:

«اللهم انشلنى من أوحال التوحيد وأغرقنى فى عين بحر الوحدة وزج بى فى بحار الأحدية حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها..».

حقيقة أنا لا أفهم معنى هذا الكلام.. لكننى أتعجب من اللفظ المستخدم فى هذا الدعاء وهو «انشلنى من أوحال التوحيد»، أتعجب وأدعو الجميع أن يتعجبوا معى!!

هذا بعض ماجاء فى الكتاب.

وعليه فأول نقطة على محيط دائرة المعرفة عند الشعراوى كان كتاب «دلائل الخيرات»، ودلائل ذلك متروكة لكل ذى عقل حتى يعرف كيف يؤثر مثل هذا الكتاب ومايحمله من منطق على التركيبة الفكرية لطفل أو صبى مابين العاشرة والخامسة عشرة.

على أعتاب الأزهر..

* الزقازيق فى ١٩٢٤ :

بناية جديدة يشار إليها أنها المعهد الدينى، وتعارف الناس على أنها الأزهر الشريف، فبعد ما لعبه الأزهر من دور فى ثورة ١٩١٩ حيث كان من عناصر وقودها، رغبت الحكومة وكذلك الإنجليز أن يشتتوا طلبة الأزهر بأن يقيموا معاهد أزهرية فى الأقاليم يلتحق بها أهل الأقاليم فلا ينزحون إلى القاهرة فيزداد عددهم فى الجامع الأزهر فتزداد خطورتهم.

كان من بين هذه المعاهد معهد الزقازيق الأزهرى، بناية فخمة أسفلها مسكن للطلبة حيث لكل طالب سرير خاص به فى حجرة يشترك فيها مع آخرين.

نظام الدراسة كان ٩ سنوات، أربع سنوات للقسم الابتدائى ثم خمس سنوات للقسم الثانوى، منها قسم الكفاءة ثلاث سنوات وقسم البكالوريا ومدته سنتان. . ومع البنايات الجديدة للمعاهد الأزهرية بدأ الطلبة يدرسون بجانب علوم اللغة والفقه والتفسير والحديث والسيرة النبوية علوما أخرى مثل الكيمياء والطبيعة والهندسة والجبر وهو ماكان يسمى أيامها «علوم المدارس».

تغير حال الأزهر إذن بنسبة مائة فى المائة. .

فالأزهر لايعتبر علوما وجوهر فقط، لكنه شكل أيضاً لايتم التعليم الأزهرى إلا

به، ولم يكن يتوافر للشكل والمضمون كمالهما إلا فى الجامع الأزهر.. فكل هذه المعاهد كانت بمثابة الانفصال عن نمط تعليمى ظل منذ بدأ الأزهر الشريف وحتى صدور القرار ببناء المعاهد الأزهرية فى الأقاليم.

* الزقازيق فى ١٩٢٦:

فى بداية الطريق.. صبى فى الخامسة عشرة من عمره، وعندما تقترب منه تجد أنه شيخ معمم يحمل فى يمينه بعض ملابسه وفى يساره القرآن الكريم.. يرتدى العمامة و«الكاكولة» مثل كل شيخ أزهرى يدخل معهد الزقازيق الدينى.

ويستقبل المعهد طالباً جديداً هو محمد متولى الشعراوى.

وقد يتخيل بعضنا أن الشعراوى كان شغوفاً بحب الأزهر وكان يحب دراسة القرآن والفقه والحديث ويطرب لسماع سير الأولين.. هذا هو المنطقى، فشيخ له كل هذا العلم، وعليه كل هذا الورع يجب أن تكون طفولته موجهة توجيهاً كلياً من أعلى إلى وجهة واحدة..

الشيخ يقول غير ذلك ويكشف عن موقف غاية فى الأهمية، حيث يقول عن محاولاته لإسقاط نفسه فى الكشف الطبى حتى لايلتحق بالأزهر:

«قبل الكشف بعدة أيام أخذت أضع الشطة فى عينى كى تحمر وتورم وتلتهب ويقولوا عينيه تعبانة ولايصلح ولكن عينى كانت تفنجل أكثر، واكتشفت أن هناك قسماً للمكفوفين، فقلت لنفسى وليه أخسر عينى إذا كان الكشف الطبى لايغير من شىء، وحاولت مرة ثانية أن أسقط نفسى فى الامتحان الشفوى وكنت أتعمد اللخبطة، ولاحظ الشيخ الذى كان يمتحننى ذلك فسألنى:

ـ فيه حد جاى معاك هنا ياولد..؟

قلت: أيوه.. أبويا.

قال الشيخ وهو يشير إلى أحد الحاضرين: هاتوه.

نادوا عليه، وجاء والدى، وسأله الشيخ: ابنك ده حافظ القرآن؟!

فقال والدى: نعم، إنه حافظ للقرآن حفظاً جيداً.

قال الشيخ: الولد بيعمل إنه موش حافظ وبيلخبط عن قصد وأنا ملاحظ كده.

ووجه الشيخ الممتحن كلامه لى قائلاً: قوم يا ابن الكلب ناجح!!»

من ناحية فالشيخ لم يكن يرغب فى الدخول للدراسة فى الأزهر الشريف، والدليل محاولاته المستميتة فى إسقاط نفسه فى الكشف الطبى ثم الامتحان الشفوى بعد ذلك. .

على حد قوله كان يرغب أن يصبح مزارعاً. .

لم تتوقف محاولات الشيخ عند ذلك بل يفاجئنا بقوله أنه أخذ يثقل على والده فى طلب المصروفات وشراء الكتب حتى يضيق به ويوافق على عودته والانقطاع عن الدراسة. . يقول الشيخ:

«كتبت له قائمة طويلة بأسماء الكتب التى أريدها باعتبارها من الكتب المقررة علينا فى الدراسة، ولم تكن هذه الكتب ضمن الكتب المقررة، ولكنى أردت التضييق عليه وتعجيزه.. كانت الكتب التى طلبتها من بين أمهات الكتب فى التراث وغيره، ومنها على سبيل المثال «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسى فى ثلاثة أجزاء، و«شرح نهج البلاغة» لعبدالحميد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد وهو تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل، وفى ٢١ جزءا، و«مجمع الأمثال» لأحمد بن محمد الميدانى وهو عبارة عن أربعة أجزاء، و«المزهر فى علوم اللغة وأنواعها» لجلال الدين السيوطى، وجميع مؤلفات لطفى المنفلوطى».

الشعـراوى إذن كان مـصممـاً على ألا يلتحق بالأزهر، ورواية الشـيخ عن ذلك برغم طرافتها لكنها ليست مقبولة على الإطلاق وذلك لأسباب:

* **أولاً:** لأن ذلك حدث منذ أكـثر من سـتين عامـاً، وعندما يحكى الشـعراوى الموقف بكل هذه الثقة وهذا الإحكام فهذا مايثير الحفيظة وإن كانت ذاكرته قوية وذلك نتمناه فإنهـا غير قادرة على اجترار موقـف مرت عليه كل هذه السنوات والحكى بكل هذه الدقة.. فهل ينقل الحوار وكأنه حدث بالأمس؟

* **ثانياً:** ماذا يريد الشعراوى أن يقـول عن محاولاته لإفشال نفسـه وإخفاقه فى امتحانات القـبول بالأزهر؟ ماذا يريدنا أن نعترف به؟ أن الرجل - مثـلاً - مدفوع بقوة عليا إلى دراسة الأزهر وكلما حاول أن يبتعد عن هذه الدراسـة دفعته الأقدار لها دفعاً مخاطبة إياه:

«إنك لها يارجل.. فتقدم».

ولذا يُسخر الله له الشيخ الممتحن الذى أظن بل أتيقن من أنه صبياً لو تعمد صبى أن يظهر بمظهر غـير الحافظ للقرآن لما استطاع أحـد أن يكتشف ذلك، علاوة على أن التصرف الطبيعى لشيخ يعقد لجنة لامتحانات الطلبة أن يصرف طالباً له هذا السلوك.

* **ثالثاً:** الشعراوى الصبى الذى يبلغ من العمر الخمسـة عشر عاماً وقتها ويحفظ القـرآن وتربى فى طين الأرض ليس من اللائق أن يحكى أنـه أراد أن يعجـز أباه بأن يثقل عليـه فى مصاريف الدراسة حتى ولو كـانت الواقعة حدثت فـهى تسىء للشيخ أكثر مما تعطينا دلالة على عبقريته.

المهم أن الشعراوى الـتحق بالمعهد الأزهرى فى الزقـازيق عام ١٩٢٦ وانخرط فى دراسته الابتدائية حتى وصل إلى السنة الرابعة.

زواج مبكــــــر..

كثير من شـباب الريف يتزوجون فى سن ١٧ عاماً أو أقل كثيـراً أو أكثر قليلاً . . كـان المفروض أن يكون هذا مـوقف الشعـراوى أيضـاً، لولا أنه انخرط فى التـعليم الأزهرى . .

معنى ذلك أن فكرة الزواج كانت مؤجلة عند الجميع . .

لكن ولأن للأقدار حكمة لايردها أحد . .

تزوج الشعـراوى وهو فى التاسعة عشـرة من عمره، حيث أصـر أبوه عندما رآه يساعد ابنة صاحبة البيت الذى يسكن فيه أثناء دراسته . . فقد كان الشعراوى الأب فى زيارة الشعـراوى الابن عندما وجد ابنة صاحـبة البيت الذى يسكنه ابنه، فسـأله عنها فأخبره أنها بنت صاحبة البيت وأنه يساعدها فى دروسها . .

عاد الرجل إلى القرية دون أن يعلق، ولما سافر الشـعراوى فى الأسبوع ذاته وجد أن أباه يريد أن يزوجه بل ويصـر على ذلك . . كان الجميع بما فـيهم الشعراوى نـفسه يرفضون هذا الزواج ليس بحجة أنه مازال صـغيراً لكن بحجة أنه مازال يدرس وذلك أمر سابق لأوانه، لكن الأب أصر وكان مصـدر إصراره معروفا لرجل فلاح تربى فى الريف حيث إنه خاف على الشعراوى من الفتنة، هذا هو السبب الوحيد، فابنه يساعد ابنة صاحـبة البيت، ويمكن أن يجلس مـعها وحـده، ويمكن أن يحدث ما لاتحـمد عقباه.

صحيح أن أحداً لم يشر إلى ذلك، لكن بماذا نفسر إصرار الأب على زواجه؟ . .

تزوج الشعراوى وأصبح زوجاً وهو مازال يدرس وزادت المصاريف وتكفلها أبوه، فمادام الزواج رغبته فليدفع.

تزوج الشعراوى إذن دون سابق معرفة بزوجته ولا بسابق حب لها، وربما تكون ليلة عرسه هى أول ليلة يرى فيها العروس ويتحدث إليها، ولأن الشعراوى تزوج بهذه الطريقة فهو لايتحدث كثيراً عن زوجته ولا عن الحياة الخاصة بينهما . .

كيف كانا يعيشان . . ؟

هل كانت تنشب بينهما خلافات؟ و . . وإلى أى مدى كانت تصل؟

ماهى الطريقة التى كان يتعامل بها الشعراوى معها؟

هل كان يضربها مثلاً إذا عصت له أمراً؟

هل كان يتعامل معها بمنطق «سى السيد»، فيعتبرها جارية جاء بها أبوه حتى لايفتن الشاب . . فتعامل معها كجسد فقط . أم أنه تعامل معها كزوجة وشريكة حياة؟

هل كان لزوجته رأى فى مسائل حياتهما المشتركة أم أنه كان يتجاهلها تماماً ويضع لها هامشاً تتحرك فيه ولا تتعداه؟

وغيرها من أسئلة كثيرة . . أعفانا الله منها، فالشيخ لم يتحدث عن هذه الفترة رغم أن الشيخ مغرم بأن يحكى حكايات حياته كما حدثت تماماً بالحوار والهمسات والإيماءات . . حتى الأنفاس يحرص أن ينقلها الشيخ . .

إذن تزوج الشعراوى وهو على أبواب العشرين، وذلك مايجعلك تتعجب مثلاً من بعض الذين يهاجمون الشيخ حين يقولون أن الشيخ تزوج وهو فى الابتدائية ثم يتبعون ذلك بعلامات تعجب . .

وأنا بدورى أضع علامات تعجب على كلامهم ذلك..

فإما أنهم لايعرفـون أنه كان يبلغ من العمر تسعة عشر عـاماً، وذلك غير عادى، أو أنهم يعرفون وإنما الغرض الغمز واللمز.

فكأنى بهم يقولون انظروا إلى الشيخ فقد تزوج وهو فى الابتدائية..

والسؤال الذى لن يتعدى السؤال فقط:

ماذا يريد هؤلاء من تلك الملاحظة على زواج الشيخ؟

المناضل الثورى:

البلاد تحت وطأة الاحتلال البريطانى ماتزال..
أين كان الشيخ..؟

*** دقادوس فى ١٩٣٤ :**

من الصواب ألا نحكى ونسمع لصوته يحكى:

«كنت رئيساً لاتحاد الطلاب وكنا وقتها نأخذ بمبادىء الوفد فى الحركة الوطنية ونأخذ بمبادىء أساتذتنا فى الأزهر إذا كان الأمر يتعلق بالحركة الأزهرية وشئون الأزهر، وكان النحاس باشا فى الحكم ثم أقيل.. أقاله الملك، وغضبنا لذلك، وجاءت ذكرى سعد باشا زغلول وكنا قد تعودنا أن نحييها فى بلدنا دقادوس، وكانت قرية كبيرة فى ذلك الوقت..!!

وفى الاحتفال بهذه الذكرى وقفت وقلت غاضباً مما جرى للنحاس باشا ومن الملك الذى أقاله:

ما منطقى لك والحقيقة تخجل ... قد جدت الدنيا وشعبك يهزل
فى كل عام تشتكى أوصابنا ... وتؤمل الآتى فيقسو المقبل
مصر الأسيفة بح منها صوتها ... فضراعة محمومة وتوسل

وارحمتـاه للمسـتجير بجائـر — والزافـر الشـكوى لمن يعـدل
أو كلمـا وهب الزمان زعامـة — تعلـى وتكمـل ما بنـاه الأول
نهـض العتوق بكل بذل غادر — دنـس وفى يده الأثيمة معول»

مجرد سؤال للشيخ وأقسم بالله أنه سؤال برىء.. وبرىء جداً:

هل قلت ذلك فعلاً يا مولانا؟!

وإن كنت قلت يامولانا.. أليسـت معجـزة أن تظل حافظاً لشعر قلتـه عام ٣٤، يمكن أن تكون حفظته مكتوباً.. الله أعلم!!

نسمع لما يقوله الشيخ بعد ذلك:

«اعتبروا هذه القصيدة عيباً فى الذات الملكية وأخذوا يترصدوننى للقبض علىّ، لكننى كنت أهرب منهم فى الزقازيق وفى دقادوس، كانوا يعتبرون الزقازيق هى مهد الثورة والغضب لإقالة النحاس باشا، ومنعوا الدراسة بها، لكننا كنا مستمرين فى التحريض على التظاهر والإضراب والاحتجاج وتجميع الطلاب للخروج فى المظاهرات..».

كل ذلك يامولانا؟! لكن ليس لنا إلا أن نمضى معك للنهاية..

اسمع جيداً للكلام الآتى:

«وكنا فى اتحاد الطلبة نحتال أو نتخفى للدخول إلى القسم الداخلى والالتقاء بالطلبة وتبليغهم بما اتفقنا عليه.. كنت أتخفى فى صورة بائع العيش وأحمل على كتفى طاولة مملوءة بالخبز وأركب عجلة وأدخل إلى القسم الداخلى وألتقى بزملائى ونعقد اجتماعاً نتدارس فيه الخطوات التى سنقوم بها، وكان زميلى فهمى عبداللطيف يتخفى فى صورة سمكرى ويحمل البورى فى يده ويدخل ونلتقى معاً فى القسم الداخلى.. وقد احتار بوليس الزقازيق فى القبض علينا أنا

وزميلى فهمى عبداللطيف، لكنهم تمكنوا من فهمى فوقع فى الخدعة التي استطاعوا بها القبض على الكثيرين من زعماء الطلبة، كانت خدعة المخبرين هى أنهم يندسون فى المظاهرات ثم ينادون على الطالب الذى يريدون القبض عليه بصوت مرتفع وكأنهم زملاء له فيلتفت إليهم أو يرد عليهم بما يفيد أنه موجود هنا فيقبضون عليه، وقد أدركت أنا هذه الخدعة فلم أكن ألتفت أو أرد على أى شخص ينادينى بل إن هذا النداء كان ينبهنى إلى الخطر، فكنت أحتاط أكثر وأبتعد وأزوغ منهم» !!

الله. . جميلة هذه القصة يامولانا. .

أين قرأتها؟! . .

لا أمزح. . بل كلامى منتهى الجد وإنى لأعجب تمام العجب. .

إذ لماذا يحرص الجميع أن يكون لهم تاريخ نضالى وأنهم أصحاب بطولات ومواقف؟ هل لو لم تكن تلك الحكايات حدثت كنا نقول عنهم خونة أو باعوا الوطن مثلاً؟ . . لن يحدث!!

لكن لماذا التجارة بالوطنية واستعراض العضلات؟!

قد يكون ذلك جلباً للإبهار من السذج والعامة. . يجوز!!

لكن لماذا يصر الشعراوى أن يرسم هذه الصورة المضحكة لتاريخه النضالى؟ فعندما يحكى الشيخ يخيل لك أنك تشاهد فيلماً من أفلام على الكسار أو إسماعيل يس، أم لأنه يعيش فى تلك الفترة فلابد أن يكون له تاريخ بطولى وأنه اشترك فى المظاهرات؟!

لن أفند ماجاء برواية الشعراوى، فيبدو أنها رؤية ذاتية جداً لحياته، ومن العيب أن نتدخل فى خصوصيات الشيخ. . فهو حر. .

أليس كذلك؟!!

لكن لكى تكتمل الصورة يحكى الشيخ عن تجربة سجنه.. واسمع جيداً هذه المرة.. يقول الشيخ:

«لما تعبوا ويئسوا من مطاردتى هنا وهناك لجأوا إلى الطريقة التى تمكنهم من القبض علىّ بسهولة.. ذهبوا إلى بلدتنا دقادوس وألقوا القبض على والدى وعلى شقيقى الأصغر واعتقلوهما، وعرفت البلدة كلها أن والدى وشقيقى قد اعتقلا بسببى وأودعا السجن فى الزقازيق، وعرفت بذلك فطار صوابى وركبت القطار إلى الزقازيق لكى أسلم نفسى للمباحث وأقول لهم أفرجوا عن والدى وعن أخى الصغير واقبضوا علىّ أنا وافعلوا بى ماتشاءون...».

تم القبض على الشيخ وظل ثلاثين يوماً فى الحبس حيث كان القاضى.. والكلام للشعراوى:

«... كان القاضى الذى تولى قضيتنا فيه وطنية تحكمه فكان يمد حبسنا ويجدده كل أربعة أيام بدلاً من أن يفرج عنا، وكان يضايقنا كثيراً، وقد ذهب إليه بعض الناس يقولون له أن هؤلاء طلبة، فكان لايسمع منهم ويقول ابتعدوا أنتم واتركوهم لشأنهم..

فلما جاءت الجلسة حكم علينا بشهر حبس، وكنا قد قضينا الشهر فى الاعتقال تحت التحقيق قبل أن يصدر الحكم علينا فى القضية، ولذلك أفرجوا عنا فور صدور الحكم، وفهمنا ساعتها لماذا كان القاضى يجدد حبسنا طوال شهر كامل، فهو لم يكن يريد لنا أن نقضى يوماً من الحكم فى السجن بكل مافيه من أهوال ومعاناة، وحرص أن نبقى فى تجديد الحبس حتى نلتقى بأهلنا ويأتينا طعامنا وننام حيث لانخالط المجرمين فى قضايا السرقة والقتل».

انتهى كلام الشيخ عن هذه الفترة..

ولابد أن ينتهى كلامنا أيضاً.. فحقاً بعد هذا الكلام لاتعليق..

مرحلة إعداد أخرى..

بالطبع لاننكر إطلاقاً على الشيخ أنه وطنى ويحب هذا البلد كغيره من أبنائه، لكننا ننكر عليه أن ينسج حول تلك الفترة العديد من القصص والحكايات التى يمكن أن نعتبرها من قبيل التسلية واللهو وتضييع الوقت..

نقبل من الشيخ قوله أنه كان مهتماً بقضية الوطن وكان يسير فى المظاهرات وكان يبحث عن حل للقضية التى ضاع من أجلها كثيرون.. هذا نقبله ونؤكد كذلك أن تلك المرحلة التى كانت مصر كلها فيها تشتعل ناراً أثرت فى جميع المصريين، فعلى الأقل كانت هناك قضية يسعى خلفها المصريون ويقضون فيها ليلهم ونهارهم، وهى قضية تحرير الأرض ودحر المحتل وتخليص مصر لأهلها فقط بعيداً عن كل استغلال.

لعبت هذه الفترة دوراً هاماً فى حياة الشيخ فقد نمت رجولته أكثر، فلا ينضج الرجولة مثل المصاعب والأهوال وما كانت تعيشه مصر كان شيئاً أشبه مايكون بالأهوال.

فى هذه الأرض وفى وسط هذه المعمعة كان الشعراوى يتلقى تعليمه.. كان يتلقى دروس القرآن والفقه والحديث فى إطار من أحداث المجتمع.. ولم نعزل العلوم الأخرى من كيمياء وفيزياء ورياضيات إلا لأنها بالفعل لا تأخذ حقها من الاهتمام عند الطلبة الأزهريين.

إذن كانت البداية فى تكوين الشعراوى الفكرى هى كتب التراث وهى أشياء أشبه بقائمة الكتب التى كتبها لأبيه، ومنها:

- «العقد الفريد» لابن عبد ربه.
- «شرح نهج البلاغة» لعبد الحميد بن هبة الله بن محمد أبى الحديد.
- «مجمع الأمثال» لأحمد بن محمد الميدانى.
- «المزهر فى علوم اللغة وأنواعها» لجلال الدين السيوطى.
- وكتب المنفلوطى كلها.

ولابد أن الشعراوى الأب عندما اشترى هذه الكتب للشعراوى الابن قرأها وزاد بها معرفته، ولاشك أن هذه الكتب قد فتحت أمامه الآفاق لكتب أخرى من كتب التراث..

تعرض الشعراوى لمختلف كتب التفسير وكتب الفقه والحديث و...

ونوعية الكتب التى طلبها الشعراوى تدل على اتجاه مبكر إلى الاهتمام بعلوم اللغة والاهتمام بالشعر والحرص على تعلم الأسلوب الجيد، وذلك يظهر فى طلبه لكتب المنفلوطى بما عرف عنه من قوة أسلوب وإحكام فى الصياغة لدرجة أن الشيخ له فى ذلك رأى، ولا أعرف من أين أتى بهذا الرأى..

ففى إحدى حلقاته التليفزيونية قال أن قراءة القرآن لاتعمل على تحسين الأسلوب الذى يتحدث أو يكتب به الفرد.. لماذا يامولانا؟!

قال لأن بلاغة القرآن من خصوصيات القرآن، بمعنى أنها لاتنتقل إلى الشخص بمجرد قراءته.

لكن القراءة فى كتب المنفلوطى (ضرب بها المثل هنا) تستطيع أن تجعل الأسلوب جيداً حيث يمكن أن تنتقل بلاغة الأسلوب المكتوب إلى أسلوب الشخص الذى يقرأ فتجعله أكثر بلاغة..

كيف؟ . . لا أدرى!!

إذن الشعراوى تعلق بالمنفلوطى وبكل كتبه . .

كذلك من أهم الشخصيات التى أثرت فى الشعـراوى كان الشاعر أحمد شوقى، وأقول الشاعر، حيث إن الشعـراوى لم تجمعه معرفة شخصية بالشـاعر فهو كان قارئا لشعره ومازال الشـعراوى يستشهد بشعره إلى اليـوم ويثنى عليه دائماً . . وأغلب الظن أن ذلك جاء فى غمرة اهتمام الشعراوى باللغة وعلومها وفنونها وعلى رأسها الشعر.

لكن الملفت للنظر أن الشـيخ الشعراوى لم يتحـدث عن الكُتّاب والمفكرين الذين عاصروا تلك الفترة، فلا نجده يتحـدث إلا بإشارات قليلة جداً عن العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وحديثه عن هؤلاء يدلنا أنه كان يعرفهم كأسماء فقط . . لكن أين كان موقعه من فكر هؤلاء وإنتاجهم الفكرى؟!

لا ندرى . . !!

كذلك لايتطرق الشعراوى أبداً لأحد من المفكرين أو الفلاسـفة الغربيين، فالمؤكد أن الفكر الغربى لايمثل أى خط من الخطوط التى رسمت صورة فكر الشيخ، ويمكن أن يكون الشعراوى قرأ أو درس فى الأزهر بعض مذاهب فلاسفة الغرب لكنه تعرض لذلك تعرض المار بلا انتباه.

والدليل فى أحاديثـه عندما يتحـدث عن الفلسفـة فنجده يقول هناك مـدرسة فى الغرب تقول كذا . . لكن هناك مدرسة أخرى تقول كذا، دون ذكر لاسم هذه المدارس أو من هم أصحابها . .

والمهم أنه فى النهاية تكون تلك المدارس كلهـا خاطئة فيمـا ذهبت إليه، حيث إن هناك رأيا ووجهة نظر جديدة يبديهـا الشيخ . . لكنه ـ وذلك فضل منه ـ لايسمى رأيه مدرسة أو اتجاها . .

أولى الخطوات..

عندما نكون بعيداً عن مواطن المسئولية تكون أحلامنا بلا حدود، لسبب واحد هو أننا لانملك ما نحـقق به هذه الأحلام، ولذا يأخذنا الشطط فى أحـلامنا، لكن عندما نقترب من المسئولية وتبعاتها نجد أن الحدود تفرض نفسها على أحلامنا ومانود أن نفعله فيما يستقبل من أيام زماننا.

عاش الشعراوى الإحساسين معاً، فـقبل أن يتزوج لابد أن أحلامه كانت عريضة ربما تصل إلى أبعد مما هو فيه الآن..

بعد أن تزوج الشعراوى رغماً عنه سقطـت فى مشوار حياته العديد من الأحلام، وانتحرت عبارات كثيرة من كتـاب أحلامه الذى يحتوى على آلاف الصفحات، وعليه لن نتحدث عن المكان بل عن الإنسان..

*** الشعراوى فى ١٩٤١:**

تخرج الشعراوى فى كلية اللغـة العربية بالأزهر عام ١٩٤١، قضى ست سنوات فى دراسته الجامعية حيث أنهى تعليمه الثانوى عام ١٩٣٥، بعد أن قضى تسع سنوات فى المرحلتين الابتـدائية والثانوية وظل عامـين حتى حصل على إجازة الـتدريس عام ١٩٤٣، ثم تقدم لمسابقة التعيين وعُين مدرساً بمعهد طنطا الأزهرى..

إذن حمل العام ١٩٤٣ شهادة تعريف جديدة بالشيخ الشعراوى، فقد أصبح:

- محمد متولى الشعراوى..
- مدرس بمعهد طنطا الأزهرى سيعمل فى الزقازيق والإسكندرية بعد ذلك..
- المرتب عشرة جنيهات شهرياً..
- يقيم فى بيت يدفع جنيهين شهرياً كإيجار له..
- تتبقى ثمانية جنيهات يستعين بها الشعراوى على حياته.

كان الشعراوى قد أصبح أباً وفى عنقه مسئولية زوجة وأولاد.. ويتحدث الشعراوى عن مدى معاناته فى تلك المرحلة، فيقول:

«لقد عانيت كثيراً وأنا طالب أزهرى وعانى معى والدى الذى تحمل كل شيء وبكل الرضا وحتى بعد أن تخرجت فى الأزهر وعملت مدرساً بمعهد طنطا الدينى، كانت معاناتى أشد لأن الأولاد كانوا قد كبروا وزادت الأعباء».

والكلام منطقى جداً، فالمرتب الهش الذى كان يتقاضاه الشعراوى لم يكن ليقوم بمثل هذه الأعباء التى ألقيت على عاتقه فى موعد من الطبيعى أنه يسبق التطور المنشود لحياة الشيخ.

ومن مجمل ماقاله الشيخ عن تلك المرحلة:

«كان لى صديق فى بلدنا دقادوس اسمه محمد حسنين، كان صاحب مطعم، وكان يمدنى بكل ما أحتاجه من مال على سبيل الدين وإن كان هو لايعتبره ديناً بحكم مابيننا من صداقة وطيدة..

كنت أقترض منه شهرياً بعض المال لسد احتياجاتى وتراكم الدين علىّ حتى أصبح ٣٥٥ جنيهاً، وهو مبلغ كبير بحساب ذلك الوقت..».

أحوال الشيخ كانت تتطور من سيئ إلى أسوأ . .

والموقف يفرض علينا أن نتساءل ولو على سبيل المزاح . . ماذا يحدث لو لم يتزوج الشعراوى فى تلك الفترة؟ وهل كان ذلك فى صالحه . . أم لا؟

لاشك أن الزواج عمل على زيادة أعباء الشعراوى وأصبح مطالباً بتوفير احتياجات البيت والأسرة مما حوله إلى مجرد آلة . . موظف . . فالشعراوى المدرس لم يكن ـ وهذا مؤكد ـ ينظر إلى عمله كرسالة بل وظيفة يجنى من ورائها راتباً شهرياً، ولذا لا أتردد فى أن أقول أن الزواج المبكر أضر ضرراً بالغاً بحياة الشعراوى الفكرية .

ربما لو تساءلنا عن هموم الشعراوى الفكرية فى تلك المرحلة فلن نجد أية إجابة إذ أن الرجل الذى يكون فى موقفه ـ وهو موقف لايحسد عليه أحد ـ كان أكثر مايمكن أن يفعله هو أن يحافظ على القرآن بقراءة ورده اليومى له، ثم محاولة التحضير للدروس التى كان يدرسها فى المعهد الدينى لتلاميذه . . هل معنى ذلك أن الشعراوى لم يكن يقرأ فى هذه المرحلة؟!

بالطبع الشعراوى كان يقرأ . .

ولعله كان يقرأ بكثرة لكنها ليست قراءة المفكر .

بل كانت قراءة بحكم العادة والمحافظة ـ كما سبق القول ـ على تحضير الدروس لطلابه، والذى يعطينا حرية الكلام بهذا الشكل هو أن الشعراوى لم يتحدث عن قراءاته والكتب التى أثرت فيه، بل الكارثة أنه صرح أنه لم يقرأ منذ أربعين عاماً . . وكانت هذه ثغرة دخل إليه منها جميع من هاجمه بعد ذلك.

الشعراوى فقط أسرف فى الحديث عن معاناته وضيق العيش والضنك الذى كان يعيش فيه . .

اقتطعت تلك الحالة من عمر الشعراوى ٩ سنوات يعانى فيها المعاناة ذاتها إلى أن نصل إلى . . .

*** شعراوى ١٩٥٠ :**

هل يمكن أن نربط بين شخص وبين عام من الأعوام بحيث نقول أن هذا العام يمثل عام الشخص.. بمعنى أن يكون عام حظه وقدره السعيد.. يمكن أن يحدث هذا بالفعل، والأمثلة كثيرة ومتعددة.

بالتطبيق على الشيخ الشعراوى نجد أن عام ١٩٥٠ يعتبر عامه بلا مبالغة وإن كانت هناك أعوام كثيرة ستحمل البشرى للشيخ..

لكن عام ١٩٥٠ كان عاماً مختلفاً..

فقد آن الأوان كى تنفرج كروب الشعراوى وتتسع الطرق الضيقة ويأتيه المال بعد شدة حاجة..

فى هذا العام تغير شيخ الأزهر وأحل الشيخ حمروش بدلاً من الشيخ عبدالمجيد سليم.. كانت العلاقة بين الشيخ حمروش والشعراوى علاقة طيبة حيث كان أستاذاً وشيخاً للمعهد الذى كان يدرس فيه الشعراوى.

قصد الشعراوى القاهرة حتى يهنىء الشيخ بمشيخة الأزهر..

اصطحب معه أحد أصدقائه وبعد المقابلة أشار له الشيخ أن يبقى حيث طلب منه أن يعمل معه فى القاهرة ويترك طنطا..

لم ينشغل الشعراوى بدعوة الشيخ حمروش وعاد إلى طنطا.

أيام قليلة مرت على هذه المقابلة ثم جاءت دعوة قاهرية أخرى للشيخ ليحل بها..

المفاجأة كانت أن الشيخ الشعراوى طُلب منه أن يسافر إلى السعودية حيث يعمل مدرساً فى كلية الشريعة التى أُنشئت عام ١٩٥٠ فى مكة.

وكانت السعودية قد أرسلت إلى الأزهر طالبة عشرة للعمل بالتدريس بالكلية وكان من بين العشرة الشيخ الشعراوى.

ومن الروايات الطريفة التى يرويها الشعراوى فى هذا الموطن قوله:

«المشايخ اللى كانوا بيدوروا على المناصب وبيتصارعوا عليها.. قالوا الشعراوى قب خلاص فى الصورة ولازم نفرمله ونبعده عن الشيخ وعن الأزهر.. واتفقوا ودبروا المؤامرة من وراء ظهر الشيخ حمروش وطبخوها فى إدارة البعوث وحطوا اسمى ضمن العشرة وقالوا للشيخ حمروش إن أنا محظوظ وإن وضع اسمى ضمن العشرة هو مكافأة لى..

اقتنع الشيخ حمروش بذلك واندهش عندما وجدنى غير متحمس للسفر وقال إذا لم تعجبك ياوله اعمل عمرة وقول لهم سلامو عليكم وارجع».

من أين عرف الشيخ بتدبير المشايخ له؟.. لا أحد يدرى.. ولا هو يقول عن مصدر معرفته بهذا التدبير، ثم إن الشعراوى لم يكن قد لمع بعد، فهو مجرد مدرس قدم من طنطا ليهنىء شيخ الأزهر بمنصبه، لكن ولأن العهدة على الراوى فليقل الشعراوى مايريد.

فقط هذه الرواية لم تكن مناسبة بأى حال من الأحوال لبداية حياة الشعراوى العملية.. فهذه كانت البداية الفعلية..

تردد الشيخ فى قبول السفر كما يقول، لكن أقنعه أصدقاؤه وأمه وأبوه حيث إن مكة لاترد..

سافر الشعراوى ومعه أمه إلى السعودية وكان ذلك عام ١٩٥٠، وظل الشعراوى أربعة عشر عاماً فى السعودية، تقطع ذلك أجازات سريعة فى نهاية العام الدراسى.

والسؤال الآن هو:

ما الذى حدث فى هذه الأربعة عشر عاماً التى قضاها الشعراوى فى السعودية؟

زاوية هامة جداً فى مسألة السعودية عند الشعراوى، فالسعودية ساعدت إلى حد بعيد فى تحسين أحواله المادية حيث إن الشيخ خرج إلى السعودية بعد اعتصار الأيام له، وكانت أم الشيخ قد حلمت ذات ليلة أنها رأته وهو يحمل قفة مملوءة بالفلوس، كان ذلك أيام الضنك وسخر الشعراوى من رؤيا أمه ساعتها، ولم يتحقق حلمه أبداً طوال عمله فى طنطا.

السعودية فقط هى التى حققت حلم الشيخ، ولنسمعه يتحدث عن ذلك:

«كانت السعودية في ذلك الوقت تتعامل بالنقد الحجرى، يعنى الفضة والذهب، وليس بالفلوس الورق، وكان كل مبعوث يعطى دفعة واحدة مرتب ثلاثة شهور، ويضربون حاصل الجمع فى ١٤ ريالاً ويضيفون إلى جانب ذلك مرتب ثلاثة شهور هى أجرة السكن مقدماً، وعندما ذهبت لصرف هذا المبلغ من الخزينة فوجئت بأن المبلغ عبارة عن فلوس فضة وأنه موضوع فى شيكارة.. والشيكارة كبيرة وثقيلة، ووجدت عند الخزينة صديقا اسمه الشافعى كان يعمل بالسعودية وكان يعرف كل شىء هناك، ولاحظ دهشتى واستغرابى عندما سمعت موظف الخزينة يقول لى وهو يشير إلى شيكارة الفلوس هذا هو المبلغ شوف لك «تكرورى»..

فقلت متسائلاً: «تكرورى؟!» يعنى إيه «تكرورى» ؟..

فرد صديقى المصرى موضحاً.. تكرورى يعنى شيال، يعنى تروح تشوف شيال علشان يشيل لك شيكارة الفلوس.. وقال أنه سيذهب وينادى تكرورى من الشارع وغاب دقائق ثم عاد ومعه تكرورى.. - شيال - وفى يده قفة وقال لى الصديق المصرى: التكرورى الذى يأتى إلى الخزينة معه عادة قفة لكى يفرغ فيها شكاير الفلوس الخاصة بالناس ويحملها ليوصلها مع صاحبها إلى العنوان الذى يريد، وتناول التكرورى شيكارة الفلوس الخاصة بى وأفرغها فى القفة وحملها على

كتفه وقال اتفضل ياشيخ، ومشيت ومعى التكرورى إلى أن وصلت إلى باب البيت الذى أسكنه، وتناولت القفة منه وأعطيته أجره وشكرته، ودخلت بالقفة إلى البيت وناديت على أمي: يا أمه.. يا أمه.. فجاءت ووضعت القفة أمامها وقلت شايفة القفة دى يا أمه؟ قالت شايفة ياابنى، وسألتنى القفة دى فيها إيه؟ قلت فلوس، وكشفت لها عن الفلوس..

وقلت: فاكرة يا أمه.. فاكرة الحلم بتاعك.. فاكرة الرؤيا بتاعتك ليلة ماكنت تعبان وزهقان وقلقان وباشكى لك من المعيشة الصعبة.. قالت: فاكرة ياابنى يوم ماقلت لك إنى رأيتك فى المنام وأنت شايل قفة فلوس.

قلت: آدى القفة وآدى الفلوس، وابتسمت أمى وأضاءت وجهها الابتسامة.. وأخذت يديها وقبلتهما».

وهنا ينتهى الشعراوى من حكاية هذا المشهد الروائى الجميل، ولكنه للأسف الشديد غير محكم. .

فلأن الشعراوى يريد أن يقول آدى الفلوس وآدى القفة. . يجعل التكرورى يمضى دون أن يأخذ قفته. . ربما يكون نسى. . ربما!!

على أية حال فالسعودية كانت السبب المباشر فى إصلاح أحوال الشعراوى المادية وأربعة عشر عاماً ليست بالأمر الهين. .

زاوية أخرى هامة جداً من زوايا صورة الشعراوى فى السعودية وهى زاوية تكوينه الفكرى. .

فأربعة عشر عاماً قضاها هناك تعطيه فرصة كافية كى يقرأ ويطّلع ويفكر، فأمامه فسحة من الوقت وأمامه مايريد من كتب التراث ومعه العديد من مشايخ الأزهر الذين لابد أنه كانت هناك العديد من المناقشات تدور بينهم.

وعليه كانت هذه فرصة جيدة للشعراوى، فالوقت أمامه ولا يعوزه وجود المال.

ومن حسن حظنا أن الشعراوى لم يتواجد فى السعودية فى فترة تمتلىء فيها شوارعها بالآراء المتطرفة والأفكار التى لاتملك منطقاً ولا حجة إلا أنها أفكار تخرج من عقول اعتقلت خلف جدران القرون الغابرة.

ونظرة واحدة على الكتب التى تأتينا من السعودية بكل أحجامها وبكل أشكالها نستشف منها مدى السطحية التى يتمتع بها هؤلاء الناس، وكذلك شرائط الكاسيت التى تجدها عند طائفة وفئة كبيرة من المصريين وهى شرائط لاتحمل إلا صراخاً وبكاءً وعويلاً ونحيباً فى بعض الأحيان.

ولست أجد علاقة بين رجل يتحدث عن حجاب المرأة المسلمة وبين بكاء شديد يقطع به المتحدث قلوب المستمعين، فمنهم من يبكى تأثراً ومنهم من يبكى بميكانيكية مايسمى «البكاء بالمشاركة»، ليس فيها علم ولا فقه ولا شىء يفيد فى دنيا ولا دين.

فالإسلام عندهم حجاب لامرأة ولحية لرجل ونار فى الآخرة، وكأن الله يقف على قارعة طريق ويمسك فى يده بسكين ويقطع رقاب العباد.. فالله أرحم من ذلك بكثير، فالله الذى اسمه الحكيم لايرضى لعباده أن يخوضوا فى مثل مايخوض فيه أهل المملكة.

الشعراوى كان هناك فى فترة لم تكن تلك الأجيال قد ظهرت على السطح بتلك الطريقة البشعة التى تفرض نفسها علينا من باب النفط والدولار، والمصيبة أن العديد من المصريين يخرجون قاصدين السعودية وليس على كتفهم من دينهم شىء إلا أنهم فقط يقيمون الصلاة ويصومون رمضان.. بعد عام واحد يقضونه فى أرض النفط نجدهم عائدين ليحللوا ويحرموا، وفى أيديهم كم هائل من الفتاوى الجاهزة لكل الأوضاع فى مصر.

بعض المثقفين يقفون فى طريق هذا الزحف..

وبعض رجال الدين يبذلون مجهوداً كبيراً لوقف هذا السوس الذى بدأ ينخر فى أساس عقيدتنا وصلتنا بالله. .

وللأسف الشديد. . الشعراوى ليس منهم. . فالشيخ عاش فى هذه الأرض فترة لايُستهان بها، وهو من أعرف الناس بأهلها وبأفكارهم واتجاهاتهم، فيوم أن تخرج مثل هذه الأفكار منهم، كان لابد أن يقف الشيخ ليصحح ويقود الذين أعطوه الراية حتى يقودهم على الطريق الصحيح للعقيدة.

لكن أن يصمت الشيخ. .

فهذا يؤخذ عليه، لأن الأمر لم يعد يحتمل، فعندما يفتى أحد مشايخ السعودية الكبار أن الأرض ليست كروية وعنده الدليل، فالأمر يكون وصل بالعقل العربى إلى مرحلة متدنية لاتطاق. . وتحتاج الأمور كلها إلى وقفة.

نبحث عن الشيخ فى هذه المعمعة فلا نجده. . !!

على كل حال فالسعودية المكان والوقت كانت عاملاً هاماً للغاية فى تكوين الشعراوى، وذلك لما أتاحته له من وقت ومئونة مالية يستعين بها على حياته.

والسؤال:

أين كانت مصر فى تلك الفترة بالنسبة للشعراوى؟!

لم ينفصل الشعراوى فى أية لحظة عن تراب هذا البلد، لسبب بسيط هو ارتباطه الشديد بطين الأرض.

لكن مصر التى تركها الشعراوى عام ١٩٥٠ لم تبق على حالتها بل انقلبت الدنيا رأساً على عقب. .

قامت الثورة وطرد الملك. .

أصبحت مصر جمهورية وخرج الإنجليز من مصر نهائياً. .

تدخلت أصابع النظام الجديد فى كل شبر من أرض مصر . .

نهضت مصر أسطورة التاريخ فى طريق البناء والتعمير . .

أممت القناة . . وحدث العدوان الثلاثى . .

جرت محاولات كثيرة للوحدة، وحدث نوع من التقارب بين الدول العربية . . بدأت الدول العربية تتجه فى طريقها إلى التحرير والخروج من ربقة الاستعمار.

لم يكن الشعراوى بعيداً عن كل ذلك . .

جمعته لقاءات مع زعماء الثورة حيث إنه التقى بجمال عبدالناصر فى السعودية عام ١٩٥٣ ، أى بعد قيام الثورة بعام واحد . . ويقول الشعراوى عن هذا اللقاء:

«كان عبدالناصر قد جاء إلى السعودية للعزاء فى وفاة الملك عبدالعزيز آل سعود، لم يكن وحده، كان معه كمال الدين حسين وسليمان حافظ، وكنت وقتها أعتبر لسان المصريين فى السعودية، فمن قبل أن تقوم الثورة ومنذ ذهبت للعمل فى السعودية كنت أحضر الاستقبالات وبعض المقابلات الرسمية وأشارك فى الاحتفالات وأتكلم وألقى القصائد باعتبارى شخصية مصرية، ولذلك كانوا يعتبروننى لسان المصريين هناك..

وعند حضور عبدالناصر للسعودية دُعيت من قبل السفارة المصرية كى أكون فى استقبالهم، وكان عبدالناصر وقتها هو البكباشى جمال عبدالناصر، ولم أجد فى نفسى الرغبة فى الذهاب إليهم، فعندما قامت الثورة استبشرت بها خيراً وقلت فيها شعراً وتصورت أنها قامت لكى تأتى بالرجل الطيب النحاس باشا ليتولى الحكم، لكن تبين لى أن الذين قاموا بها يريدون أن يحكموا بأنفسهم، ولذلك أخذت أتحسب الأمور، ومن هنا لم أجد فى نفسى رغبة فى الذهاب عندما دُعيت لأكون فى استقبال البكباشى جمال عبدالناصر والصاغ كمال

الدين حسين وسليمان حافظ عند حضورهم إلى جدة، وقلت معتذراً: اعفونى لأننى تعبان..

لكن زميلى فى البعثة الشيخ عبدالمعطى الكحكى قال لى لاتعتذر، إنك تتكلم فى كل مناسبة وتشارك فى كل حفلة عن مصر، فكيف إذا جاء جمال عبدالناصر تعتذر وتقول اعفونى ؟!.. أنت بذلك ستجر على نفسك المتاعب ووجع الدماغ.. ونصحنى الشيخ الكحكى بأن أذهب.. وأخذت بالنصيحة وذهبت..

ذهبت من مكة إلى جدة، وكنت فى استقبال جمال عبدالناصر...».

نتوقف هنا ونفرغ من حديث الشيخ، فالمقام يقتضى أن نشكر الشيخ الكحكى، فهو رجل طيب وابن حلال أنقذ لنا الشيخ.. !!

يكمل الشعراوى كلامه قائلاً:

«... عندما دخلت كان هناك عبدالناصر وكمال الدين حسين وسليمان حافظ والسفير المصرى، ولم أجد مكاناً أجلس فيه إلا على الكنبة مابين عبدالناصر وكمال الدين حسين، وقعدنا نتكلم، وقلت كلمة ترحيب بعبدالناصر والذين كانوا معه، وجاء بعض مصورى الصحف والتقطوا لنا صوراً، صورونى وأنا جالس مابين عبدالناصر وكمال الدين حسين، وفى اليوم التالى نشرت الصحف السعودية الصورة وتكلمت عن الوفد المصرى الذى حضر للتعزية ونشرت صورتى وأنا جالس مع عبدالناصر وكمال الدين حسين، وقالت كلاماً طيباً عن استقبالنا لعبدالناصر ونسبت بعض هذا الكلام لى، وأذكر أن صحيفة مصرية نشرت صورتى وأنا مع عبدالناصر وكمال الدين حسين وقالت أننى ألقيت كلمة تحية لعبدالناصر».

بعد نهاية اللقاء طلب منه جمال عبدالناصر أن يزوره عندما يعود لمصر..

فرغنا من قراءة كلام الشيخ . .

لكن المؤكد أننا لم نفرغ من صدى هذا الكلام، فأنا أحب أن أسجل إعجابى الشديد بقدرة الشعراوى على الإحكام الشديد الذى يتبعه فى بناء رواياته وأحداث حياته، فقد أكد الشيخ على مسألة الصورة التى نشرتها له الصحف السعودية ونقلتها عنها صحيفة مصرية . .

ففى موطن آخر من السيرة الذاتية للشعراوى نجده يقول أن هذه الصورة أنقذته من أنياب رجال الثورة، حيث قُبض عليه مع زملائه بتهمة أنهم يقرأون الفاتحة بجانب الحرم ويدعون على الثورة، حيث قال بعد أربعين يوماً من التحقيق معه ومع زملائه من قِبَل رجال الثورة:

«جاءنى الشيخ أبو طالب وقال لى: باقولك إيه ياشيخ شعراوى..

قلت: نعم يامولانا.

قال: أنت تقدر تخلصنا من المصيبة دى..

قلت: إزاى؟ أعمل إيه؟!

قال: إنت فاكر يوم ماجاء عبدالناصر للسعودية علشان العزاء؟

قلت: فاكر كويس.

قال: أنت قابلت عبدالناصر واتصورت معاه والجرائد نشرت الصورة وكتبت الكلام الطيب اللى انت قلته عنه وعن الجماعة اللى كانوا معاه.. فاكر الحكاية دى؟

قلت: فاكر.

قال: لو تقدر تجيب الجرايد دى وتقدمها لهم يمكن يغيروا رأيهم ويعتقونا لوجه الله.

قلت: فعلاً.. فكرة، نحاول وجايز تنفع.. وطلبت من ابنى سامى وهو أكبر أولادى أن يبحث عن الجرايد التى نشرت الصورة والكلام ده، وكان ابنى مهتماً بمثل هذه الأوراق التى تخصنى وكان يحتفظ بها

عادة، وسافر ابنى إلى بلدنا دقادوس وأخذ يبحث عن هذه الجرائد.. وقدمتها لوكيل النيابة سامى الإتربى، وقلت له كيف تتهموننا بأننا نعمل ضد الثورة وأننا نقرأ الفاتحة ضد العهد الجديد فى الكعبة مع أن صورنا منشورة فى الجرايد مع عبدالناصر عندما جاء إلى السعودية هو وكمال الدين حسين وسليمان حافظ والجرايد كتبت إننا استقبلناه استقبالاً طيباً.. وتكلمنا أمامه كلاماً طيباً وتمنينا له التوفيق.. وتناول وكيل النيابة الجرايد فى دهشة ورأى الصور والكلام فارتدى الجاكيت التى كان يضعها على مقعد مجاور وخرج من المكتب مسرعاً ومعه الجرائد وذهب إلى جمال سالم الذى كان يتابع القضية، ورأى جمال سالم الجرائد فقال لوكيل النيابة سامى الإتربى:

وابن الكلب ده (يقصدنى أنا) لما صورته اتنشرت مع جمال عبدالناصر فى السعودية وقال الكلام المكتوب ده عن الثورة ورجالها ساكت ليه؟! روح خللى ابن الكلب ده يمشى هو والمشايخ اللى معاه وكفاية عليهم كده».

لا.. بالله يامولانا نحن الذين كفاية علينا هذا..

فقد كدنا أن ننام من فيض سذاجة رواياتك..

وهنا أستطيع أن أقول أن الأمر فيه مبالغة.. بل هو ذاته مبالغة..

* **أولاً:** لأن القبض على الشعراوى كان قد تم فى الأجازة التى أعقبت السنة التى زار فيها جمال عبدالناصر السعودية.. الفترة - إذن - لاتسمح بأن ينسى الشعراوى الصورة والكلام الذى قاله فى حق عبدالناصر حتى يذكّره به غيره، هذا فى ظل الذاكرة القوية التى يتمتع بها الشعراوى، والتى تمكنه من تذكر أدق الحوارات التى حدثت منذ ربع قرن.. وفى ظل أربعين يوماً قضاها الشيخ فى تحقيقات رهيبة - كما يقول - يجعله هذا الموقف يستشفع ولو حتى بصورة يحملها لعبدالناصر وليس صورة له مع عبدالناصر.

* **ثانياً:** أسلوب ساذج جداً الذى يتحدث به الشيخ عن وكيل النيابة الذى دهش ساعة أن أعطاه صورته مع عبدالناصر وساعة أن تعجب جمال سالم من الصورة، حيث إن المفروض أن هؤلاء بعثة تعليمية فى دولة زارها عبدالناصر منذ فترة بسيطة وبالتأكيد هم على علم بمقابلة هؤلاء لعبدالناصر، إلا إذا كان هؤلاء يعملون فى بلاد واق الواق..

* **ثالثاً:** وكيل النيابة الذى يذكره الشيخ باسمه سامى الإتربى مهما وصل الأمر لن يخرج للشعراوى ليقول له أن جمال سالم قال له: قل لابن الكلب يفعل كذا.. أو لماذا لم يتحدث ابن الكلب؟!

أغلب الظن أن وكيل النيابة حاول أن يعتذر للشيخ ولزملائه على ماحدث معهم لا أن ينقل لهم السباب والشتائم المقززة التى تلفظ بها رئيسه.. أو أن الأمر على إطلاقه لم يحدث، والشعراوى من قبيل الحكى يدخل مثل هذه الشتائم فى حديثه.. ربما!!

* **رابعاً:** وهذا هو الأهم.. فما هذه السذاجة التى تتعامل بها يامولانا مع من يقرأون عن حياتك فما أسهل ماحدث.. فبمجرد أن تخرج لهم الصورة التى تجمعك مع عبدالناصر والكلام الذى قلته يقولون لك مع السلامة، ومدى علمى أن تهمة الوقوف ضد الثورة لم تكن تهمة هينة، إلا إذا كانت الصورة تحدثت أو خرج منها جمال عبدالناصر وقال لجمال سالم عيب ياجمال فأنا اتصورت مع الشعراوى وأنا أحبه وأغضب من اللى يزعله ولهذا أفرج عن الشيخ..

ربما.. ولم لا..!!

لقاء آخر جمع الشعراوى وعبدالحكيم عامر فى السعودية وكان هذا اللقاء فى عام ١٩٥٤، لكن رحمة بنا لم يُقبض على الشعراوى مرة أخرى!!

ظل الشعراوى فى السعودية حتى عام ١٩٦٣ حيث دب الخلاف بين عبدالناصر والسعودية فعادت البعثة الأزهرية وهو معهم بالطبع..

لم يغلق ملف السعودية نهـائياً فسوف يعود إليها مـرة أخرى، لكن قبل أن يغادر الشيخ أراضى السعـودية نحب أن نرصد مكانة السعودية عند الشـيخ . . بالطبع ليست هناك أية موانع على الإطلاق فى أن يترنم الشعراوى بحب السعودية، فهى البلد الذى يحوى جـثمان النبى الـطاهر، وعلى أرضها بدأت أولى خطوات الدعـوة التى جلبت معها المجد الذى كان . .

المشكلة أن الشعـراوى فُتن بالسعودية والإمكانيات الهائلة والمـال الوفير . . ويدلنا ماحـكاه فى أحد البـرامج التليفـزيونية، والكلام هنا بمعـناه وليس بلفظه . . «أنه أثناء بعثته التعليمية فى السعودية خرج وفد لزيارة أحد الأماكن، وأثناء الرحلة سأل المسئول عن الوفد الشيخ الشعـراوى ما إذا كان يريد شيئاً معـيناً . . فرد الشيخ: هل لو طلبت أى شىء أجده؟ فقال له الرجل: اطلب ماتشاء فستجده عندنا . .

فـفكر الشـيخ قليلاً حـتى يأتى بشىء يعـجـزه، وانتهـى إلى أن يطلب منه إبرة وخيطاً، ولمـا طلب الشيخ ذلك رد عليـه المسئول عـن الوفد قائلاً: وهل تـريد الخيط أحمر أم أبيض؟ . . » .

حادثة طـريفة أيضاً تـضاف إلى الحوادث الطـريفة التى اعـتاد الشيخ أن يـرويها لجمهوره . .

والدلالة من وراء هذه الحادثة واضـحة . . إذن افتتـان الشيخ بالمكان لم يكن على أساس دينى على الإطلاق، وهو مـانراه واضحاً الآن بما يمـثل الظاهرة فى كل مكان ممن يسافرون إلى السعودية . . وتكفى تعليقات مثل:

- السعودية بلد الإسلام . .

- والإسلام الحقيقى هناك . .

وغير ذلك من أقوال نسأل بعدها هؤلاء ومن قبلهم الشيخ ونقول:

ومصر . . أين مصر من كل ذلك؟

موقف الشيخ من السعودية كان مدخلاً لهجوم البعض على الشيخ، ففي إحدى المقالات المنشورة في مجلة «روزاليوسف» - عدد ٢٦/٩/١٩٩٤ - يقول كاتب المقال عن الشيخ:

«وانتقاداته للمظاهر السلبية في المجتمع لماذا هي مقتصرة دائماً على مصر؟ لماذا لم تتحدث أبداً أو تنتقد أبداً أو تتساءل أبداً عن غيرها من المجتمعات التي يحبها، صحراءها وآبارها لدرجة العشق ويذكر أمجادها النفطية والبدوية دائماً؟..

وهل تلك المجتمعات خالية من العيوب.. خالية من الانتقادات؟ ولماذا مصر دائماً عند الشيخ الشعراوي وغيره من الشيوخ هي الحيطة المايلة التي تنتقد في إسلامها وتتهم في مسلميها؟».

هي ثغرة إذن يدخل إليه منها الجميع، ومع كل مايقال عن الشيخ، لكن الثابت أن الشعراوي يحب مصر ولا يفضل عليها شيئا. . وتكفي كلمته التي صرخ بها في ساحة الجامع الأزهر قبل إلقاء بيان شيخ الأزهر الذي كان موجهاً للرد على الجماعات الإسلامية، فقد نشرت مجلة «الأزهر» كلمة الشيخ الشعراوي في عددها الصادر في يناير ١٩٨٩، وقد جاء فيها:

«من يقول عن مصر أنها كافرة؟!

إذن فمن المسلمون؟ من المؤمنون؟ مصر صدرت علم الإسلام إلى الدنيا كلها، صدرته إلى البلد الذي نزل فيه الإسلام.. هي التي صدرت لعلماء الدنيا كلها علم الإسلام..

أنقول عنها ذلك؟ ذلك هو تحقيق العلم في أزهرها الشريف.

أما دفاعاً عن الإسلام فانظروا إلى التاريخ!!

من الذي رد همجية التتار عنه..؟ إنها مصر.

من رد هجوم الصليبيين عن الإسلام وعن المسلمين؟ إنها مصر.

وستظل مصر دائماً، ولكن لنعلم جيداً أن علم الإسلام عندما انتقل إلي هنا وكانت مصر محكومة حكماً طبيعياً كان الإسلام مطبقاً ولكنها بليت بالاستعمار وللاستعمار جنود استوردوا كثيراً من التقنيات فغلبونا، ولكنه حينما زال الاستعمار ظن الناس أن الاستعمار بكل أنواعه زال.. لا».

كان الشيخ يقول هذا الكلام وهو فى قمة انفعاله ودموع صامتة تخترق حجاب الحاضرين . .

بعد هذا يضعنا الشيخ فى موقف حرج بين ادعاء بتقديس مكان قضى فيه بعضا من عمره وبين مكان أعطاه أصل عمره . .

المؤكد لدينا أن الشعراوى محب لهذا الوطن ولا داعى لأن نزايد على الرجل فى حبه ذلك.

سطوة السلطان..

بعد عودة الشيخ من السعودية عاد إلى بلده دقادوس..

وساعتها كان يدخر القدر للشيخ عملاً جديداً حيث تولى الشيخ حسن مأمون مشيخة الأزهر، وأصدر قراراً بتعيين الشعراوى مديراً لمكتبه، لم يقبل الشيخ المنصب فى البداية لكن بعد إقناع أصدقاءه له ووعد الشيخ مأمون له بأنهما سيعملان على إصلاح أحوال الأزهر بعد القانون الذى أصدرته الحكومة بشأن تطوير الأزهر، وإن لم تتخذ الحكومة خطوات إيجابية نحو ذلك فإنهما سيخرجان سوياً من الأزهر.

وأشد مايجذب الانتباه فى حياة الشعراوى أنك تجده أحياناً شيخاً بلا طموح.. بلا أحلام.. بلا غرض فيما يستقبل من الزمان، فتراه يرفض السفر إلى السعودية فى البداية، ثم تراه يرفض عمله كمدير لمكتب شيخ الأزهر.

وأحياناً أخرى تجد أن الشيخ يريد أن يقبض على الدنيا بيديه، يحول دفتها إليه ويعمل على توجيه المسار هو.. من كلام الشيخ عن حياته وسرده لأحداثها يشعرك أنه كان نقطة البداية فى كل شىء.. وبالإضافة إلى الأمثلة السابقة لنسمع كلامه هنا:

«وجاءنى ثلاثة من زملائى وأصدقائى يسألوننى لماذا لم تذهب لاستلام عملك مع شيخ الأزهر الشيخ حسن مأمون؟

فقلت لهم: إنه يشرفنى كثيراً العمل مع شيخنا الجليل الشيخ حسن

مأمون، لكن ماذا يملك شيخ الأزهر الآن؟ لم يعد يملك شيخ الأزهر شيئاً، لقد سلبه قانون تطوير الأزهر الذى أصدرته الثورة كل اختصاصاته..

أصدرت الثورة القانون فى ليلة واحدة وبصورة تثير الاستفزاز، ولم يعرض على المسئولين فى الأزهر لدراسته أو إبداء الرأى فيه.. اقرأوا القانون جيداً وسوف تجدون أن شيخ الأزهر لم يعد يملك شيئاً، فالمادة الأولي تتكلم عن شيخ الأزهر وتعمل له ديباجة طويلة توحى بأن له عملاً يتفق وجلال منصبه، وتأتى المادة الثانية فتسلبه كل شيء..!!

فالمادة الثانية تقول «يعين للأزهر وزير..»!! وزير لشئون الأزهر؟! وللوزير وكيل طبعاً لتسيير شئون الأزهر، فماذا يبقى لشيخ الأزهر إذا كان شيخ الأزهر لم يعد فى استطاعته أن ينقل فراشاً؟ وقال زملائى وأصدقائى أنه من الواجب أن أذهب إلى الشيخ حسن مأمون وأشكره وأوضح له موقفى.. وقلت لهم هذا ما سأفعله.. وسافرت إلى القاهرة وذهبت لمقابلة الشيخ حسن مأمون فى مكتبه بالأزهر..».

والغريب أن هذا القانون عندما صدر لابد أنه أزعج جميع مشايخ الأزهر بما فيهم زملاء وأصدقاء الشعراوى، الذين جاءوا إليه. . فحديث الشعراوى معهم كان حديث العارف بما لايعرفون والعالم بما يجهلون. .

وهذا ليس لغرض إلا لأنه تعود وتعودنا معه أن يكون هو نقطة البداية دائماً فى كل الأحداث التى يكون طرفاً فيها، وهو نفس مافعله مع الشيخ حسن مأمون عندما سأله عن الحل. . !! ولنسمع للحوار الذى دار بينهما:

«الشيخ مأمون: أنا فى رأيى نعمل مذكرة لتعديل القانون رقم ١٠٣ الخاص بالأزهر لإعادة المسائل إلى ماكانت عليه، فاعمل لنا هذه المذكرة.

الشعراوى: وإذا لم نوفق فى هذا العمل.. إذا لم يسمحوا لنا؟
الشيخ مأمون: أنا أعدك بأن نخرج معاً.. نطلع من هنا أنا وأنت..
الشعراوى: وهل فى العهد الثورى يملك وزير أو موظف أن يطلع من تلقاء نفسه؟.. ده لازم يترفس.
الشيخ مأمون: يبقى نقول لهم عايزين نمشى أو هم اللى يمشونا.
الشعراوى: على هذا العهد نعمل يامولانا؟
الشيخ مأمون: على هذا العهد.».

ويكتب الشعراوى المذكرة ويقدمها شيخ الأزهر لصاحب الأمر، لكن لا رد ولا جواب ولا حتى كلمة صغيرة.

وتحول شيخ الأزهر وبالتبعية مدير مكتبه إلى اثنين من الموظفين لدى الحكومة، إلى أن اقترح شيخ الأزهر أن يعملوا فى الفتوى، وبالفعل أقاموا مكتباً للفتوى، وكانت تلك مهمة شيخ الأزهر بالطبع وليست مهمة الشعراوى، فمهمة الشعراوى ساعتها كانت ترتيب دخول المترددين على مكتب الشيخ حسن مأمون..

تمتد الأيام بلا أحداث..

فهى مياه راكدة لاتحركها شئون عظيمة.. فقط تبتسم المياه ساخرة للأحداث مهما كانت عظيمة ثم تعود راكدة مرة أخرى.

وفى وسط الركود الذى كان يعيشه الشعراوى وشيخه حسن مأمون أرسلت الرياسة تعليمات لمشيخة الأزهر بأن الرياسة ترغب فى اجتماع أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر وتقنين قرار بتحديد النسل..

وكان ذلك بمثابة القرار الذى يمثل مركباً تغرق قفز منها الجميع ولم يتبق إلا الشعراوى.. قال له الشيخ حسن مأمون:

«أنا عيان من النهارده ياشيخ شعراوى.. شوف إنت الحكاية دى.

قال له الشعراوى: وأنا مالى.. أنت شيخ الأزهر!».

لكن شيخ الأزهر نفـذ ما أراد وتغـيب وترك الشعراوى.. حـتى أعضاء مـجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ظل الشعراوى ينتظرهم لكن لم يكن أحد يأتى..

وظل الوضع هكذا إلى أن خرج الشيـخ حسن مأمون من مشيـخة الأزهر وخرج معه الشعراوى بالطبع.. لكن ماذا تعلـم الشعراوى من هذا الموقف؟ وماذا كان ينبغى أن يفعل؟

من المؤكـد أن الشعـراوى تعلم مامـدى سطوة السلطان الذى ينزع من مـشيـخة الأزهر كل سلطاته بقرار ويملى عليه رغباته فى إصدار أى القرارات شاء..

هكذا بلا حياء..

هذا خيط مـن الخيوط الكثـيرة التى ربطت الشـعراوى بالسلطان، منـذ النحاس وحتى السادات، وهو الخـيط الذى أرغم الشعراوى فى كثيـر من الحالات أن يصمت ولا يتحـدث ويقول كثيـراً ليس لى شأن بهذا الأمـر.. وهذا الأمر هو أشد مـانعانى منه.

والشيء الملفت للنظر بصورة كبيرة هو موقف شيخ الأزهر وموقف مشايخ مجمع البحـوث.. لماذا لم يقفوا فى وجه السلطان ويقـولون له: لا.. هل كانوا سيـفقدون وظائفهم؟

فسحقاً للوظائف.. لست أتحدث من منـطلق عنترى أو أمسك فى يدى سيفاً من خشب وأقف على منبر من خـشب وأخطب فى ناس من خشب، لكن الموقف هكذا مخزٍ.. شـيخ الأزهر يدّعى المرض ويتغيب ويترك مـدير مكتبه فى مواجـهة الأمر.. العلماء لايذهبـون لمشيخة الأزهر.. مـاهذه السلبية، ومـاهذا الفرار؟ ومع أن الموقف مرفـوض من أى فئة، لكنه من علـماء الدين مرفـوض أكثر.. إذ كـيف يقبل الناس كلامهم على أن الرسول قدوتهم بعد ذلك؟!

الحجج كثيرة والمبررات أكثر.. لكن كلها مرفوضة..

مايهمنا بالفعل من هذه المواقف هو تأثيرها على شـخصية الشعراوى، فنحن من

ناحية لانستطيع أن نقول أن الشعراوي شيخ سلطان، وهذا مجاراة له في كلمته التي قالها في الأزهر قبل إلقائه بيان شيخ الأزهر عام ٨٩.. قال الشيخ:

«واعلموا جيداً أنني لست من رجال السلطة، فأنا الوحيد في مصر الذي رد قرارات جمهورية ولم يستمع لها في تاريخها كله، ملكية كانت أم جمهورية، فلا يستطيع أحد أن يتهمنا أبداً بأننا علماء سلطة...».

ونحن والله العظيم لانقول أنك عالم سلطة يامولانا، لكن في الوقت ذاته مواقفك وآراؤك لانستطيع من خلالها أن نقول كما قلت أنت أنك الوحيد في مصر الذي رد قرارات جمهورية ولم تستمع لها سواء كانت ملكية أو جمهورية..

تصدقك فقط إذا كانت مصر التي تتحدث عنها مصر أخرى غير مصرنا التي نعرفها جيداً.

الشيخ إذن ورث من وظائفه الحكومية نوعاً من الطاعة، وإن اعترض هو على كلمة الطاعة أستطيع أن أعدل الكلمة وأقول السكوت، فهو لم يعترض حتى عندما جاءه كمال رفعت وسأله عن أعضاء مجمع البحوث، ولم تأخروا؟ يقول الشيخ:

«قلت له من باب التهدئة: ياسيدي أنت جاي في عربية خاصة والطريق مفتوح أمامك، أما المشايخ فدول ناس غلابة اللي بيركب الترماي واللي يتحشر في الأتوبيس واللي بيتشعبط على الرفوف.. ناس معذورين..».

لأ والنبي ياشيخ.. على كل حال كتر خيرك.. فهذا على العموم هو سر تأخر المشايخ.. فلماذا ياصوت الحق لم تخبر الوزير بأمر شيخ الأزهر والمشايخ؟ ولماذا لم تحدثه بأنهم يرفضون مثل هذا القرار؟!

لماذا تحدثه أنت بفكرك ومنطقك وعقلك؟!

لكن على حد قولك عن المشايخ أنهم ناس معذورون.. وأنت أيضاً يامولانا معذور!

الجزائر أول وآخر مرة..

عندما خرج الجيش الفرنسي من الجزائر لم تخرج لغته ولا ثقافته التى حاولوا من خلالها طوال فترة الاحتلال مسخ الشعب الجزائرى وإلغاء هويته العربية والقضاء على اللغة التى تجعله حلقة فى سلسلة الدول العربية.

الوضع فى الجزائر لم يكن مطمئناً ولابد أن تمتد يد الإنقاذ حتى تحاول أن تقوم مسيرة هذا البلد ولم تكن هذه اليد سوى مصر، وخرجت بعثة الأزهر التى كان هدفها الوحيد هو تعريب الجزائر.. خرج مع البعثة الشيخ الشعراوى رئيساً أو عضواً فيها، هذا ليس موضع اهتمامنا، لكن الفترة التى قضاها الشعراوى فى الجزائر كيف كانت؟ وكيف أثرت فيه؟!

لا أحد يدرى.. ولم يتحدث الشعراوى كثيراً عن تلك الفترة.

لكن الشعراوى، وكعادته دائماً تحدث عن موقف جمع بينه وبين الرئيس بومدين الذى تولى رئاسة الجزائر عام ١٩٦٥.. يقول الشعراوى:

«كان الرئيس بومدين قد انتهى من بناء سد اسمه غرين وذهب لافتتاحه، وعمل احتفالاً وحضرنا هذا الاحتفال ووقف الرئيس بومدين يخطب ويقول الحمد لله عملنا سد غرين وهذا السد سيحجز كذا متر مكعب من المياه وبذلك يمكنكم أن تقوموا برى زراعاتكم سواء أمطرت السماء أو لم تمطر، ولم تعجبنى عبارة سواء أمطرت السماء

أو لم تمطر.. فقلت لعبدالعزيز بوتفليقة وزير الخارجية الجزائرى فى ذلك الوقت: «ياسى عبدالعزيز قل للرئيس بومدين أن هذا الكلام خطأ ليس من الناحية العقائدية التى تلغي المشيئة بل من الناحية العلمية لأنه إذا لم تمطر السماء فما الذى سيحجزه هذا السد؟!»
وذهب بوتفليقة وأبلغ الكلام للرئيس بومدين، وشاء الله بعد أسابيع من كلام الرئيس بومدين أن يحصل جفاف، فلما حصل جفاف قالوا نصلى صلاة الاستسقاء، وقد استقبل الناس الدعوة لصلاة الاستسقاء استقبالين: الناس المتدينون المؤمنون أصحاب الثقافة الدينية كانوا يؤملون فيها وينظرون إليها باعتبارها من نُسك الدين وأن الله سبحانه وتعالى شرعها لوقت الفزع هذا.. أما الناس الآخرون أصحاب الثقافات الغربية غير الدينية بل والمعادية للدين فقد قالوا فى استهزاء «اعملوا صلاة الاستسقاء وشوفوا حتعمل إيه الصلاة بتاعتكم دى»!..
ولما أبلغونى أن الرئيس بومدين يريد أن يقيم صلاة الاستسقاء فى الجامع الكبير بعد يومين قلت لزميلى الشيخ أبو الصفا: احنا واقعين فى مطب وربنا يخرجنا منه على خير.. ولن يخرجنا من ذلك إلا أننا نفزع إلى الله من هذه اللحظة وأن نصلى لله وأن نطلب منه ألا يفضح دينه أمام هؤلاء الذين لايعرفون كيف ينظرون إلى دين الله..
وجاء يوم صلاة الاستسقاء وجلسنا فى الجامع الكبير ننتظر ومعنا وزير الأوقاف الجزائرى حضور الرئيس بومدين، وجاء الرئيس بومدين ودخل المسجد وقبل أن يهم بالجلوس قلت لوزير الأوقاف قل للرئيس يصلى ركعتين تحية المسجد، وأضفت: احنا جايين هنا نشحت من ربنا، بنقول يارب وبنفزع إليه فقل له يصلى ركعتين لله تحية للمسجد، وذهب وزير الأوقاف للرئيس الجزائرى وأبلغه الرسالة، فوقف وصلى ركعتين وبعدها عملنا مراسم صلاة الاستسقاء والفزع إلى الله، ثم صلينا صلاة الاستسقاء وقعدنا ساكتين، وطالت القعدة

وطال السكوت فقلت لأحد المشايخ الذين يجلسون إلى جانبى: احنا قاعدين كده ليه دلوقت.. مش نقوموا نروحوا؟ فقال لى: اسكت.. اسكت..

فقلت له: فيه إيه.. حصل إيه؟

قال: أنت موش دارى الدنيا بتمطر.. بتشتى..

فقلت: صحيح؟!

قال: أيوه.. وراحوا علشان يجيبوا مظلة كى يخرج بها الرئيس بومدين.

فقلت: الحمد لله.. الحمد لله..ولن أخرج من هنا من المسجد الكبير إلا بعد صلاة المغرب.. الحمد لله ربنا سترها معنا..».

وحتى يسترها الله معنا.. يجب أن نتوقف هنا عند كلام الشعراوى، فالشيخ مازال فى موقف أنه نقطة البداية لكل الأحداث، فهو الذى قال لوزير الخارجية الجزائرى، وهو الذى قال لوزير الأوقاف الجزائرى، وهو الذى اقترح، وهو الذى طلب، وهو الذى كان يخاف.. وحدك يامولانا.. وحدك.. هل من المطلوب أن نصدقك؟!

وماذا نفعل وليس أمامنا سوى أن نصدق الشيخ؟! ونحمد الله أنه لم يقل أنه الوحيد فى الجزائر الذى لم يخضع لقرار سواء فى حكمها الفرنسى أو الوطنى!!

ليست هناك تفاصيل عن حياة الشعراوى فى الجزائر، لكن الشىء المهم جداً وللغاية هو أن نعرف أن الشعراوى كان فى بعثة تعليمية للجزائر هدفها تعريب الجزائر، بعد أن تركها الاحتلال الفرنسى مفرنسة - إذا صح التعبير - لم تكن للشعراوى وظيفة أخرى.. وهذا الكلام هام للغاية، لكننا نؤجل أهميته تلك لحين موضعها.

تمضى الأيام ويعود الشعراوى مرة أخرى.. يعود إلى هنا..

السعودية مرة أخرى..

عندما تولى السادات حكم مصر رغب فى تحسين العلاقات مع السعودية، تلك التى ساءت أيام عبدالناصر، طلب السادات أن يسافر الشعراوى إلى السعودية حتى يعمل على تنقية الأجواء مع السعودية.. كان الشعراوى ساعتها فى الجزائر.. والشعراوى يحكى الموقف بنفسه:

«لقد اتصل بى السفير المصرى فى الجزائر وأبلغنى بالمهمة التى كُلفت بها من جانب الرئيس السادات، وفعلاً سافرت فوراً إلى السعودية، وقابلت الإخوة هناك، وتكلمنا وعادت البعثة الأزهرية وعدت رئيساً لها، وكانت عودتها هى بداية تنقية الأجواء وإزالة الجفوة وإعادة العلاقات الطبيعية إلى ماكانت عليه بين البلدين..».

وهنا تسكن البداية إذن..

أي بداية تلك التي تقصد..؟!

بالطبع بداية طريق العثرات لشيخ من علماء الدين يقترب من الحاكم، فالشعراوى عندما انطلق عائداً من الجزائر وفى طريقه إلى السعودية لم يكن مسيطراً عليه أى نوع من الأفكار سوى أنه يعمل من أجل الإسلام ومن أجل التقريب بين الدول الإسلامية..

وهاهى جهوده تتضافر وتتزايد . .

فهاهو عائد من مهمة تعريب الجزائر وفى ذات الوقت يجد نفسه منطلقاً إلى السعودية لإعادة تطبيع العلاقات مرة ثانية، ومن حق الشعراوى أن تكون هذه هى الأفكار التى تسيطر على عقله، لكن ماذا كان يدور فى عقل السادات؟ . . هذا شىء آخر .

فالشعراوى فى هذا الموقف كان يقوم بمهمة سياسية كلفته بها مؤسسة الرئاسة . .

فالشعراوى هنا رجل سياسة من الطراز الأول . .

وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى طريق العثرات . .

والخطوة الثانية كانت . .

وزارة الشيخ..

لاتأتى المناصب بحسن النية ولا بالأعمال الطيبة مطلقاً . .

وأظن أن الزمان الذى كانت تسعى فيه المناصب لمن يستحق قد مضى وولى . . وعليه فقد تقلد الشعراوى منصب وزير الأوقاف لأسباب أبعد ماتكون عن الأسباب الدينية أو العقائدية أو حتى لخدمة الإسلام والمسلمين . . الكلام فيه مبالغة، هذا مؤكد . . فيه تجاوز وتهجم يمكن للجميع أن يقول ذلك . .

المهم أن عام ١٩٧٦ حمل الشعراوى إلى مقعد الوزارة الذى لم يجلس عليه الشعراوى مطلقاً، وعلى حد قوله . . كان يجلس على كرسى صغير بجانب الباب حتى عندما يصدر قرار بإعفائه من الوزارة يفر بجلده . . وللمرة الثالثة فى حياة الشعراوى نجده يتردد فى قبول منصب الوزير . . حيث يقول:

«كنت وقتها أعمل أستاذاً بكلية الشريعة فى مكة المكرمة، فاتصل بى السفير المصرى فى السعودية تليفونياً وقال لى طالبينك فى مصر، وأذكر أن الاتصال كان مساء يوم الأحد، وكنت لحظتها ألقى محاضرة على طلبة الكلية.. سألته: من الذى يطلبنى؟ قال: الرياسة، تعال إلى مكتبى وسوف يحدثونك فى التليفون.. ورحت على السفارة فى جدة وقابلت السفير المصرى وكان اسمه أحمد ثابت، وجلست فى مكتبه فى انتظار المكالمة التليفونية من القاهرة، وجاءت المكالمة وكان المتحدث ممدوح سالم الذى كان يقوم بتشكيل الوزارة الجديدة.

قال لى ممدوح سالم أنهم اختارونى لوزارة الأوقاف، فحاولت أن أعتذر عن عدم قبولى للوزارة شاكراً لهم تفضلهم باختيارى وتكلمنا كثيراً وشرحت له ظروفى، وقلت له أنى غريب عن مصر منذ ٢٦ عاماً وليس لى جلَد على مثل هذا العمل.. فرد بعبارات طيبة مشجعاً لى على قبول الوزارة للنهوض بها وبرسالتها».

إذن الشعراوى تردد، لكن ابنه سامى أقنعه بأن يقبل المنصب، حيث قال لوالده:

«صحيح أنك غريب عن مصر منذ ٢٦ سنة، ومواقفك معروفة مع جمال عبدالناصر، فإذا ماجاء السادات وترك كل من يعرفه فى مصر وأخذ يسأل عن رجل يعمل فى مكة، فمن الجائز أن يعمل تغييراً وأن فى ذهنه شيئاً، فتوكل على الله..».

استراح الشيخ لكلام ابنه وجاء للقاهرة.. وكما يخبرنا أنه قبل الوزارة بعد أن صلى صلاة الاستخارة، ومع أن الموقف الصحيح للشعراوى هنا، هو الرفض التام دون تردد أو تراجع، لكنه قَبِل وسمع لكلام ابنه الذى من المؤكد أنه يفضل أن يكون والده وزيراً، فذلك خير من رئيس لبعثة تعليمية حتى ولو كانت فى السعودية.

وليس معنى ذلك أن الشعراوى لم يوفق فى عمله كوزير.. فقد تضمنت فترة وزارته التى امتدت لعامين إلا أياما قليلة العديد من المواقف الجيدة والمخزية، وهذا طبيعى، فهو بشر.. إنسان.. وفى الوقت ذاته يدور فى إطار وزارة تخضع لسطوة سلطان له رغباته وأحكامه التى يريد أن يطبقها..

*** الموقف الأول:**

دخل الشعراوى الوزارة باسم وزير الأوقاف وشئون الأزهر، فقد كانت شئون الأزهر من اختصاصه هو للدرجة التى أصبح ليس من حق شيخ الأزهر أن يصدر أى قرار، بل إن جميع قراراته يجب أن تمر على وزير الأوقاف حتى يوقعها.

بمعنى ذلك أن شيخ الأزهر أصبح صورة، ولم يكن هذا الموقف يعجب الشعراوى، وذلك منذ أن كان يعمل مديراً لمكتب الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر..

لقد كان الشيخ عبدالحليم محمود يجلس على كرسى شيخ الأزهر عندما كان الشعراوى وزيراً وهنا يقول الشعراوى:

«عندما توليت وزارة الأوقاف وشئون الأزهر كان الشيخ عبدالحليم محمود رحمه الله شيخ الأزهر، وكنت أحبه وأقدره وأجله لعلمه وخلقه، وكنت لا أقبل ولا أسمح لنفسى أن يرسل لى بالقرارات التى يريد تنفيذها لكى أوقعها باعتبارى الوزير حسب ماتقول اللائحة.. كنت لا أقبل أن يرسل لى الشيخ الجليل عبدالحليم محمود شيخ الأزهر القرارات إلى مكتبى فى الوزارة لكى أوقعها، وقلت له يامولانا كل القرارات تبقى عندك وأنا الذى أحضر إليك كى أوقعها، واتفقت معه على أن أذهب فى يوم محدد كل أسبوع لأوقع له القرارات»..

وهذا هو الموقف المنتظر من الشيخ الشعراوى، حيث إنه شيخ أزهرى والمؤكد أنه يعطى شيخ الأزهر حقه وقدره، وقد بدا تبرمه من هذا الوضع أثناء عمله مع الشيخ حسن مأمون، لكن الغريب أن الشيخ كان يفعل ذلك بصفة ودية، فاللائحة مازالت تقرر خضوع شيخ الأزهر للوزير.. معنى ذلك أن الشعراوى عندما يتغير فإن الوزير الجديد سوف يعود مرة أخرى إلى إخضاع شيخ الأزهر لسلطته وتضيع جهود الشيخ الطيب الشعراوى هباء..

والسؤال: لماذا لم يتقدم الشعراوى بخطوة ملموسة وبجهود مادى يواجه به رئيس الوزارة والرئيس إذا اقتضى الأمر، حتى يرفع الظلم الواقع على كاهل شيخ الأزهر، لكن أن يعمل الشعراوى ذلك بصفة ودية وبشكل نظرى، فذلك لايحسب له، وقد يقول البعض أن الرجل فعل كل مايستطيع ولم يكن فى إمكانه أن يفعل أكثر من ذلك..

لكن على الأقل يسجل إعتراضه بدلاً من أن يتقدم بمجرد مذكرة للوزارة بإصلاح شئون الأزهر وهو أعلم الناس بما يحدث لمثل هذه المذكرات.

* **الموقف الثانى :**

عندما اندلعت أحداث ١٨ و١٩ يناير كان الشيخ الشعراوى فى الوزارة، وقبل الحديث عن هذه الأحداث، من الأفضل أن نسجل شهادة الشعراوى عليها . . يقول الشيخ :

«فعلاً أنا ذهبت ليلتها إلى الإذاعة والتليفزيون وألقيت بياناً.. كانت الشوارع فوضى وكان الناس يكسرون الدكاكين وجاء البوليس ليأخذنى إلى التليفزيون، وكان شيئاً عجيباً أننا ونحن نخترق الشوارع فى طريقنا إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون أن البعض من المتظاهرين كانوا يلمحوننى وهم يكسرون الدكاكين فيقولون: مرحباً يامولانا.. مرحباً يامولانا!! فكنت أقول لهم: أجرمتم.. أجرمتم! ماذنب أصحاب هذه الدكاكين؟ ماذنب الذين تعتدون على ممتلكاتهم وأموالهم؟!..

ووصلت إلى مبنى التليفزيون وقلت فى بيان للناس أن الذى يريد أن يثور على الفساد عليه أن يبنى لا أن يهدم، إذا كنتم تعارضون الحكومة فهناك قنوات شرعية للمعارضة ولإبداء الرأى، ليست المعارضة أن تيسروا سبل الفوضى والنهب والسرقة.. وقلت: هب أنكم أطهار تريدون طهارة الحكم فلماذا تمهدون للأشرار لكى ينقضوا عمل الأطهار؟!..

وفى يوم الجمعة التالية للأحداث ذهبت للجامع الأزهر وصعدت المنبر وقلت أننا نعيش فتناً وأحداثاً ونعيش أحداثاً خطيرة، وحين نتجه إلى العلاج نتجه إلى ظواهر الأمراض ولا نتجه أبداً إلى منابع الأمراض، وشفاء الظاهر لايجدى، فالذى يداوى البشرة من بثور ونتوءات فيها لايداوى أصل العلة ولكنه يداوى فقط ظاهر العلة..

وإذا مانظرنا إلى الأحداث التى تمر بنا داخلياً وخارجياً أيضاً فى محيطها البعيد فى أمتنا الإسلامية وأمتنا العربية لوجدنا أن الأصل هو العزوف عن منهج الله، فهناك نقابات للعمال انتخبها العمال بمحض

إرادتهم واختيارهم، فإذا أراد عامل أن يصحح شيئاً، فعليه أن يرفعه إلى نقابته والنقابة ترفعه للمسئولين ليتفاهموا فيه، وكذلك للطلاب اتحادات. وفي مجلس الشعب من يمثل العمال ومن يمثل الفلاحين ومن يمثل الفئات الأخرى والتي تعنى الطائفة المثقفة، وإن كنا قد امتحنا بهذه المحنة فإن الله في محنه منحة، والمنحة أننا وجدنا طبقات شعبنا واعية متفهمة، فالعمال حياهم الله وأحييهم من على المنبر لم يستجيبوا لشعار مزيف ولا أقول مزخرف وفهموا النية وظلوا أمناء على عملهم، أمناء على آلاتهم وأدوا واجبهم أداءً كاملاً، ولم يغير من ذلك الموقف أن يوجد بعض الهمج الذين يقومون بتنفيذ أغراضهم، وكذلك الطلاب أحييهم حياهم الله فقد تنبهوا إلى الفتنة والتفتوا إلى مثيريها، ووجدوا مظاهرات تحاول أن تخرجهم من معاهدهم فاستحصنوا بالمعاهد وبالعلم وردوا كيد هؤلاء جميعاً في نحورهم، لقد وجدنا الوعي وأصبحنا نعرف الذين يعلنون الشعارات المزيفة..».

أهلاً بك يامولانا في حديثك التليفزيوني وخطبتك الرائعة..

صدقنا فيما مضى أنك لست رجلاً للسلطان، لكن هنا لانستطيع أن نقبل هذا منك حتى ولو أقسمت على كل كتب السماء المقدسة..

وبصرف النظر عما إذا كانت هذه الانتفاضة انتفاضة شعبية أم حرامية فإن الحديث هنا يتعلق في المقام الأول بالشيخ، وليكن الحديث فقط عبارة عن قراءة لما قاله الشيخ فعسى أن نخرج من قراءتنا بشيء.

فالشيخ يقول: «وجاء البوليس ليأخذني إلى التليفزيون».. معنى ذلك أن الشيخ لم يتخذ المبادرة من تلقاء نفسه حيث إن الأحداث الخطيرة لم تكن في مقام يستدعي أن يذهب الشيخ إلى التليفزيون ليلقي بياناً للأمة بحكم أنه وزير للأوقاف، لكن المبادرة جاءت من البوليس الذي يقف في نهاية طريق تنفيذ الأمر الصادر من السلطة.

هل معنى ذلك يامولانا أن البوليس لو لم يأت ليأخذك هل كنت ستذهب إلى الإذاعة؟ أم أنك كنت ستظل قابعاً في بيتك تنتظر الأخبار كأي فرد عادي؟!

مايدعو للضحك من كلام الشيخ أنه وهو فى طريقه إلى مبنى التليفزيون وكان بالطبع يركب عربة البوليس أو سيارة تليق به كوزير، لكن تسير أمامها عربة من عربات البوليس، يقول الشيخ بمنتهى الاستخفاف أن بعض المتظاهرين عندما كانوا يلمحونه كانوا يقولون له مرحباً يامولانا.. والأمر غريب جداً إذ كيف يحدث هذا الموقف والشيخ وزير فى الحكومة التى تثور عليها هذه الجموع؟! ومنطق الثوار لايفرق بين شيخ معمم وبين وزير لص، فالكل من أعضاء الحكومة، لكن يبدو أن الشيخ أراد أن يقول ذلك حتى يسجل كلمته أنه كان يرد عليهم عندما يقولون له مرحباً بقوله: أجرمتم.. أجرمتم..

على أية حال.. شكراً لك يامولانا على هذا التوجيه.

وكلام الشيخ الذى قاله فى كلمته التى وجهها للناس من خلال التليفزيون يعتبر من قبيل المسكنات التى يحاول من خلالها أن ينهى هذا الشغب الذى لاتريده الحكومة بالطبع، فهو كلام من قبيل أن هناك قنوات شرعية للمعارضة ولإبداء الرأى وليست المعارضة أن يُسر الناس سُبل الفوضى والنهب والسرقة.. لماذا يامولانا لم تسأل عن أسباب هذه الفوضى وهذا النهب وهذه السرقة؟ لكن كيف للشيخ أن يسأل فلابد أن يقول مايريد أن يقوله أو على الأصح أن يقول مايجب أن يقوله، وتريد أن تقوله الحكومة بشكل غير مباشر.

وإن مضى حديث الشيخ مع ذرات الأثير فإن خطبة الجمعة التى صرخ بها من فوق منبر الأزهر لها وقع آخر حيث إنه هنا خطيب يجب أن يسمع له الناس، فهو هنا يقف فى مكان النبى - صلى الله عليه وسلم - وحديث الشيخ يصل إلى قمة التسكين فهو لم يستخدم منطقاً ملتوياً لطمس حقيقة الأمور، فقد انتقل بالحدث إلى الناحية الدينية البحتة، فما يحدث إنما هو محنة ولكن الله يخلق من المحن منحاً، وهو يحيى العمال والطلاب وبقية الفئات التى لم تشارك فى الفتنة كما يقول، وهو يحمد الله على أن الناس لم يستجيبوا للذين يعلنون الشعارات المزيفة وكشفوا أغراضهم.. ومرة ثانية نشكر الشيخ..

لكن يامولانا لاتطلب منا بعد ذلك ألا نقرنك بالسلطة والسلطان، فحديثك التليفزيونى وخطبتك المنبرية لاتدلنا على غير ذلك وإن كنت تقول وتقسم أن مانقوله ليس صواباً.. فسوف نسكت يامولانا..

فأنت لاتخطىء أبدا..!!!

*** الموقف الثالث:**

فى الوقت الذى كان السادات يزور فيه إسرائيل كان آلاف المسلمين يقفون على جبل عرفات وكان من بينهم الشيخ الشعراوى حاجاً وملبياً، وبالطبع لم يكن الشعراوى يعرف شيئاً عن هذه الزيارة مثل الجميع، فقد فاجأ السادات العالم بهذه الزيارة..

ففى لحظة من لحظات الزمن التى تمضى أصرت اللحظة أن تبقى وأن تصبح خالدة على مر الزمن.. فى تلك اللحظة نزل السادات من باب طائرته ليصافح مناحم بيجين وموشى ديان وجولدا مائير..

انقسم الحجيج ساعتها بين مؤيد ومعارض..

المؤيدون يدعون للسادات بالتوفيق فى خطواته التى أقدم عليها.. والمعارضون يسألون فى غضب وتجف حلوقهم من ترديد كلمة واحدة هى: لماذا؟.. لماذا؟.. لماذا؟

لكن الشعراوى يقف فى أرض ثابتة، فقد أوضح موقفه من القضية منذ فترة، وأسمعه يقول:

«زمان لما حصل التقسيم - تقسيم سنة ١٩٤٧ - كان من رأيى يومها أننا لايجب أن تأخذنا الحمية، بل يجب أن نقبل هذا التقسيم لأنه يضع إسرائيل فى بقعة محدودة ويعمل على تحجيمها وحصارها، ولكن عدم القبول أدى إلى التوسع فى ظروف لم نكن قادرين على

التحكم فيها أو السيطرة عليها، فالذى يرفض شيئاً يجب أن يكون لديه حيثيات لهذا الرفض بحيث يرتقى فى رفضه ولا ينزل عنه..

وهذه هى السياسة.. أن تقول كلاماً يستشهد به أى واقع..».

وعلينا فقط أن نعرف أن الذى يقول مثل هذا الرأى عن اليهود هو الشعراوى، الشيخ الذى يحفظ القرآن بما فيه من آيات عن اليهود، ولابد أنه قرأ السيرة النبوية ومافيها من مواقف اليهود المخزية التى لاتشفع لهم مطلقاً، حتى لو احتج الشيخ بالآية الكريمة: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾، أقول له والله ياشيخ - وهذا اجتهادى الخاص - إن الله لايطلب منا أن نطبق هذه الآية مع إسرائيل - مع اليهود -!!

لكن نحن نبحث عن رأى الشعراوى الوزير وليس الشعراوى الإمام الجليل عالم الدين. . يروى الشيخ:

«بعد المبادرة كانت هناك ردود فعل غاضبة فى بعض الدول العربية، وحدث فى مصر هنا أن بعض الفلسطينيين عملوا هيصة فى مصر الجديدة، ويومها اجتمع مجلس الوزراء لمناقشة هذه المسألة وتكلم الوزراء، كل وزير قال الكلام الذي تمليه عليه روحه الوطنية، وكان الرأى الغالب هو أن نأخذ معهم إجراء وأن يقبض عليهم ويتم ترحيلهم من مصر، واستمع السادات إلى كل الآراء ثم قال رأيه هو فى النهاية.. قال: مع احترامى لمشاعركم وآرائكم ووطنية اقتراحاتكم وغضبكم لما حدث، لكن لى رأى وهذا الرأى هو أن لانقبض عليهم ولا نعمل على ترحيلهم، بل نبقيهم لأنهم إذا خرجوا فمن الجائز أن يعملوا أى حاجة للإساءة إلى أبنائنا في الخارج فهم هنا أمام أعيننا.. ووافق المجلس على رأى السادات..».

هذا ماقاله الشعراوى، لكنه لم يحدثنا عن رأيه هو أو عن كلامه هو، بل عمم

الأمر، وفقط وهو شيء يسيء للشيخ دائماً ويجلب عليه الأقوال والهجوم وذلك ينصرف إلى التصريح الذى قاله وناشد السادات به، حيث قال الشيخ:

«إن من يصنع مبادرة مع اليهود عليه أن يصنع مبادرة مع الله..».

كلام مبهم ولا يشير إلى شيء.. ومن الغريب أن الشعراوى بعد سنوات عديدة يقول أنه كان يقصد بهذه العبارة:

«أنه إذا كنا نرى في سلام الأرض أن نهادن أعداءنا ونصنع معهم مبادرة لنطفيء نار الغل والحقد ونجنب أمتنا الدماء، فهلا نصنع هذه المبادرة مع الله حتى يأتوا إلينا صاغرين».

تفسيرك الحالى لما قلت يامولانا يقول أنك ضد السلام مع إسرائيل وترفض معاهدة السادات مع إسرائيل، لكن موقفك التاريخى لم ينطبق مع ماقلته!!

هذه بعض المواقف التى عاشها الشعراوى أيام كان فى الوزارة..

لكن كيف كان يعيش الشعراوى فى الوزارة؟ وكيف كان يقضى أيامه؟ فهذا لايهم.. فهو كأى وزير فصل موظفاً عنده أو أعاد حق موظف كان قد ظُلم، فهذا شأنه.. عاش مثل الوزراء فى رفاهية أم أنه رفض رفاهية الوزراء فذلك يعود إليه ويتوقف على مدى تعامله مع الله، ومدى إخلاصه له.. ولا يحق لنا أن نتدخل فيه حتى ولو قام الشعراوى بإقحام جمهوره فيه، فهذا نوع من ضياع الوقت لنا وله..

وقد يقول البعض أن الشعراوى ربما يتحدث بهذا الكلام حتى يكون قدوة للوزراء كلهم فيصبحون مثله.. كان من الأفضل أن يرفض الشعراوى الوزارة ويعطى القدوة لأمثاله من رجال الدعوة أن لهم وظيفة يجب أن يحافظوا عليها..

فرغم أن الشعراوى يقول دائماً أنه لم يكتب مطلقاً كلمة «وزير الأوقاف وشئون الأزهر السابق».. لكن تحت جلده شخصية وزير، وهذا لايستطيع أن ينكره أحد.

نغلق ملف وزارة الشعراوى.. هذا أفضل.. فهى فترة على كل حال لم تبنِ فى شخصية الشعراوى الداعية شيئاً.. بقدر ما أهدرت منها..

مقاتل بلا قذائف..

عندما خرج الشيخ الشعراوى من الوزارة لم يكن رحيله منها رحيلاً إلى حياة هادئة، بل إن الشعراوى بعد خروجه من الوزارة نستطيع أن نقول أنه خرج إلى صخب الحياة.. إلى محيط كبير فيه الضجة أكبر من الهدوء، والعنف أكبر من الرقة، والجدال أكثر من الحوار بالحكمة.

وليس مبالغة إذا اعتبرنا السنوات الأخيرة من حياة الشيخ هى أخصب فترات حياته مع التسليم الكامل أن هذه الفترة من عمر مصر لم يكن فيها أحداث جسام، لكن عمر الشعراوى فى تلك المرحلة كان عمراً مثيراً للعواصف والزوابع، وأصبح الشيخ مصدراً للقلاقل.. ويمكننا أن نعتبر تلك الفترة من حياة الشعراوى فترة معارك، ومع أنها كانت معارك من جانب واحد، فالشعراوى فى كل معاركه الفكرية لم يكن يرد أو يقارع الحجة بالحجة والدليل بالدليل، لكنه كان يقول رأيه ثم يمضى.

فالشيخ يرغب فقط فى أن يصبح مركزاً للدائرة، كل نقاط محيطها هم الذين يختلفون معه.. ومن عجب أن الشعراوى من الشخصيات التى اختلف عليها الجميع، فتجد فى كل طائفة بعض الذين يختلفون معه.

فأغلب المثقفين يرفضون الشعراوى، بل ويتهمون الشيخ أنه يزيف الواقع ويخدع العامة والبسطاء حين يضع على أعينهم ستاراً يحجب عنهم مشاكل ومآسى الواقع؛ فهو كالمخدر الذى لن يغنى عن وقوع الكارثة..

كذلك لم يكن الشيخ الشعراوى هو الرجل الأول عند الإخوان المسلمين، فهم يميلون أكثر إلى الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله. . وقد يكون بغضهم للشيخ من موقفه من الجماعة حيث إنه دائم الحديث عن انحراف الجماعة عن أهدافها، وإن كان لايترك موقفاً إلا ويثنى على مؤسس الجماعة، حيث يتحدث عنه كشهيد، لكنه يعاتب دائماً أعضاء الجماعة، يظهر ذلك واضحاً فى كلمته التى وجهها للإخوان حيث قال:

«كنتم شجرة ما أروع ظلالها وأروع نضالها.. رحمة الله على شهيد استنبتها وغفر الله لمن تعجل ثمرتها».

كما أن الشيخ عدد حسن البنا من بين الذين تأثر بهم فى حياته، وكان يعجبه منه أنه كان ملماً بالسيرة النبوية إلماماً عظيماً. .

جماعة أنصار السُّنّة المحمدية كذلك يختلفون معه، ولم يترددوا أن يكتبوا على عدد من مجلة «التوحيد» التى يصدرونها عنواناً يقول: «اتق الله ياشيخ شعراوى». وهو نفس العنوان الذى كتبته جريدة «الأهالى» يوماً ما، والفارق معروف بين توجه جماعة أنصار السُّنّة المحمدية وأصحاب جريدة «الأهالى»، لكن الكلمة وُظفت فى كل من الموضعين بطريقة صحيحة، وربما تكون فتوى الشيخ الشعراوى التى جاءت فى مجلة «الشباب وعلوم المستقبل» فى عدد ديسمبر ١٩٨٦م، وكانت عن صحة الصلاة فى المساجد التى بها قبر أو مقام. . ؟

وكانت الإجابة كالتالى. . قال الشيخ:

«لامانع من الصلاة فى مسجد فيه قبر، فقبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبيه أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فى مسجده فى المدينة، كذلك فالقبر إذا وُجد فى مسجد فإنه يكون محددا بسياج خشبى أو رخامى، وعليه فالقبر لايتخذ مسجداً وإنما المسجد بجوار القبر، ويبقى الاستدلال بتاعهم باطل أو استدلال غير واع أو غير فاهم».

فهم أعضاء الجماعة أنه يقصدهم، فقامت قيامتهم وأخذوا يسردون الأدلة على بطلان الصلاة فى المسجد الذى به قبر. . ولله فى خلقه شئون.

الشعراوى كذلك عند أعضاء الجماعات الإسـلامية والجماعات المتطرفة هو العدو وليس الصديق، حيث إنه جاهر بإدانتهم واتهم أعـمالهم بأنها بعيدة عن الإسلام، بل وأكثر من ذلك عندما قـال أن السادات مات شهيداً، والسادات فى عـرفهم رجل كافر أُحل دمه، فـهو قد أظهـر الفساد فى البر والـبحر، وحيث قـال الشيخ عن جمـاعة الجهاد:

«إنهم أفاقون، وإذا كانوا قد وصلوا إلى ثمانية أو تسعة تنظيمات فأين الحق؟ الحق مع من فيهم؟ الحق مختلف عليه طبعاً بينهم، يبقى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء».

كثير من النساء يرفضن الشيخ الشعراوى لآرائه فى المرأة والتى بالطبع لاتعجبهن، فعندما صدر كتاب «المرأة فى القرآن الكريم» وكان ضمن «مكتبة الشعراوى الإسلامية» التى أصدرتها «أخبار الـيوم» ثار جدل عميق، وأضحت هموم الجمعـيات النسائية هى مناقشة آراء الشعراوى وتفنيدها ومناداته بأن ينصف المرأة، بل اسـتعانوا بالشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ وبكتابه «السُّنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذين يرون أنه أنصف المرأة فيه إنصافـاً كبيراً، والمأساة كبيرة، فـلا الغزالى ـ يرحمه الله ـ أنصف المرأة ولا الشعراوى أيضاً ـ أبقاه الله ـ لم ينصفها، ولكنه اختلاف فى الرؤى.

الشبـاب الجديد أيضاً، لا أقـول أنهم يكرهون الشعراوى، لكـنهم على أية حال لايحبـونه، بل هم منصرفـون عنه، فهم لايعرفـون عن الرجل شيـئاً سوى برنامـجه الأسبوعى وصوره التى تنشر فى جميع الصحف وكتـبه الفياضة عدداً وليس كيفاً، مما أوجد نوعـاً من العزلة والحجـاب، فكان الحال هو عدم التـفاعل بين الشبـاب الجديد والشيخ الشعـراوى، هذا لايعنى بالطبع أن الكل لايؤيد الشعراوى، فـإن هذه الفئات التى ذكرتهـا تمثل نسبة ضـئيلة جـداً فى أعداد محـبى الشيخ الشعـراوى، ولن أكون مخطئاً إذا قلت مـريديه، فالشيخ له مريدون ليس فى مصـر وحدها ولكن فى العالم كله، ومع أن هذه الفئات جميعاً دخلت كطرف فى معركة مع الشعراوى، لكن الرجل يقول رأيه ويعلن فتواه ثم يمضى.

وكانت الثمانينيات حقلاً خصباً لمثل هذه المعارك.. ولنبدأ من البداية..

معركة توفيق الحكيم..

*** الأهرام - فبراير ١٩٨٣ -:**

خبر فى الصفحة الأولى، كان هذا نصه:

«هل يمكن للإبداع الفكرى الذى ظل متواصل العطاء لحركة الثقافة الإنسانية أكثر من نصف قرن أن يدلف إلى عالم النورانية وينقطع عن كل ماحوله سوى الحديث مع الله؟ أحد الرواد من جيل العمالقة الأستاذ الكبير توفيق الحكيم ـ أطال الله عمره ـ يدخل الآن هذا الامتحان، وهو امتحان صعب اتخذ فيه قراراً صنعه بنفسه ومع نفسه.. قرار التفرغ للذات، فلا يتحدث إلا مع الله من خلال فترات مناجاة، قد تكون وقفة تأمل للكون ولحركة الحياة، وقد تكون حواراً يزيح فيه كل الحجب عن أعماق نفسه ومكونات وجدانه ويستشهد فيه بمن سبقوه من زمالة الريادة أمثال: عبدالعزيز فهمى وطه حسين.. هو نفسه يقول مخاطباً الله ـ سبحانه وتعالى ـ «إنه لم يبق لى وأنا فى آخر أيامى غيرك وليس غيرك من أحب الحديث معه وأن يكون آخر ما أكتب هو هذا الحديث ولايسقط القلم من يدى إلا وهو يخط اسمك الأكرم.. أسألك أن يكون حديثى فى كل شىء شاهدته وفكرت فيه أثناء إقامتى فى هذه الدنيا دون حرج».. اختار الحكيم بعد

غد الثلاثاء ومن كل أسبوع لحديثه الأسبوعى مع الله فى الأهرام واختار ذلك اليوم لأنه يوم وفاة وحيده إسماعيل».

انتهى الخبر . . .

*** الأهرام فى أول مارس ١٩٨٣ ..** الصفحة الثالثة عشرة:

العنوان «حديث مع الله» مصحوب بصورة كاريكاتورية لتوفيق الحكيم يقف على سحابة فى السماء وتحت أقدامه بعض الكتب يضع يداً فى جيبه والأخرى رفعها فى الفضاء . .

وكانت هذه هى كلماته:

«هذا الحديث مع الله لم أرَ مانعاً من نشره بإذن الله طبعاً، فأنت تعرف ياربى أنه لم يبق لى وأنا فى آخر أيامى غيرك وبإذنك أسألك أن يكون حديثى فى كل شيء شاهدته وفكرت فيه أثناء إقامتى فى هذه الدنيا دون حرج وأن تقوينى على نشره فى حلقات أسبوعية كل حلقة يوم ثلاثاء..

نعم يارب لن أكتمك حديثاً ولم يبق لى فى حياتى الآن سوى الحديث معك، ومن أكون أنا حتى تحدثنى أنت بالوحى، لن يقوم إذن بيننا حوار إلا إذا سمحت أنت بفضلك وكرمك أن أقيم أنا الحوار بيننا تخيلاً وتأليفاً وأنت السميع ولست أنت المجيب بل أنا فى الحوار المجيب عنك افتراضاً، وإن كان مجرد حديثى معك سيغضب بعض المتزمتين لاجترائى ـ فى زعمهم ـ على مقام الله سبحانه وتعالى، خصوصاً وحديثى معك سيكون بغير كُلفة، لا أصطنع فيه الأسلوب الرفيع اللائق بارتفاعك ولا بالوصف العظيم المناسب لعظمتك فأنا سأخاطبك مخاطبة بعض المؤمنين بنبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ

عما إذا كانوا سيرونك في الآخرة، لم يرد أن يخيب أملهم، فلم يقل لهم كيف ترون من ليس كمثله شيء؟ وكيف وأنتم شيء أن تدركوا من ليس بشيء؟ وكيف وأنتم بشر ترون بعيونكم البشرية ما لاتراه العيون؟ وهل سنبقى فى الآخرة بعيون وأجساد البشرية؟ إن العالم الآخر عالم مستقل عن عالمنا الأرضي لن يكون رداؤنا فيه رداءً بشرياً ولا القوانين هي القوانين الأرضية، وربما قصد العالم أينشتين بقانون النسبية شيئاً كهذا، وهو من العلماء القلائل المؤمنين بالله، وليس كبقية العلماء الملحدين، لست أنسى قوله بالنص: «إني أدين بالتبجيل كله لتلك القدرة العجيبة التي تكشف عن نفسها في أضأل جزيء من جزيئات الكون».. معنى ذلك أن الأديان نسبية، لأن البشرية نفسها نسبية، وكأنك ياربي تلمح إلى ماسوف يكتشفه العلماء بعد قرون في شخص أينشتين، والعلماء أقدر على إقناعنا بوجودك ووحدانيتك من الفلاسفة الذين لايعتمدون إلا على لغتهم وهي في الغالب عاجزة أو ملتوية، ولكن ياربي بعض رجال الدين عندنا يرون غير ذلك.. يرون مصير هؤلاء العلماء من غير المسلمين لأنهم لم يقولوا لا إله إلا الله شهادة لغوية، مع أن العلماء قالوها بالممارسة وليس باللفظ...».

يمضي توفيق الحكيم في كلامه إلى أن يصل إلى قوله:

«... وفجأة حدث العجب!! حدث ماكاد يجعلني يغشى عليّ دهشة، فقد سمعت رداً من الله أو خُيّل إليّ ذلك وهل إذا درست الحساب بنجاح والتحقت بمدارس العلوم كنت ستراني؟».. هذا ماسمعته، وهذا يكفيني ليجعلني أعتقد أن الله قد سمح أخيراً أن يدخل معي في حديث، وسأنتهز الفرصة وأبادر فأسألك ياربي بفضلك العميم أن يتخذ الحديث شكل الأخذ والرد أو الحوار حتى لايطغى سردي، فلا يبرز جوهر المسائل، فهل أنت موافق ياربي العظيم؟..

فقال الصوت العظيم.. وسأضع قوله أمام كلمة «الله»، كما نفعل كلما كتبنا الحوار، وهو تعالى قد سمح بذلك فيما خُيِّل إلىَّ، وهو الغفور الرحيم..

الله: قل على لسانى ماتشاء وأنت تعلم أولاً أنه ليس لى لسان مثلكم، ولكن انسب وتخيل وألف، على أن يكون ذلك كله على مسئوليتك وتحاسب عليه يوم الحساب.. فهمت!!».

بالتأكيد ماقرأته فى السطور السابقة مجرد سخف.. نعم مجرد سخف وهذيان من شيخ عجوز حتى ولو كان توفيق الحكيم، وليس كما قال أن بعض المتزمتين سوف يغضبون لأنهم يعتبرون ذلك اجتراء على الله، بل لو حمل توفيق الحكيم ماكتبه إلى الناس فى الشوارع وقرأ عليهم مقاله، لفر الناس منه هاربين ظناً منهم أنه مجنون.. فلم السذاجة فى أواخر أيام رجل من المفروض أنه من العمالقة فى الأدب والفن؟! وإن كان العملاق يريد أن يناقش مختلف الأمور التى تعرض لها فى حياته فلماذا لايناقشها بتأدب؟ لماذا لم يثرها عن طريق تساؤلات وعلامات استفهام كبيرة سواء أكانت فى الدين أو غير الدين؟..

من الممكن أن نقول أنه كان يريد أن يصل لشكل فنى جديد، لكن حتى لو كان ذلك، فسحقاً لهذا الشكل الفنى الجديد، فما فعله توفيق الحكيم استنفر العديد من علماء الدين واستنفر كثيرا من القراء العاديين جداً الذين هزهم ماكتب كاتبهم الكبير فى أخريات حياته..

وجاءت غضبة الشيخ الشعراوى، كما أطلق عليها بعض مريديه..

* **جريدة «اللواء الإسلامى»** فى ١٧ مارس ١٩٨٣:

الصفحة الأولى..

الشيخ الشعراوى فى بيان إلى الأمة.. وكان هذا نصه:

«مايكتبه توفيق الحكيم ضلال وإضلال، لقد شاء الله سبحانه وتعالى ألا يفارق هذا الكاتب الدنيا إلا بعد أن يكشف للناس مايخفيه من أفكار وعقائد كان يتحدث بها همساً ولا يجرؤ على نشرها، ولقد شاء الله ألا تنتهى حياته إلا بعد أن يضيع كل خير عمله فى الدنيا حتى يلقى الله سبحانه وتعالى بلا رصيد إيمانى.. إننى أطالب كما يتم عقد ندوات فى التليفزيون لمناقشة الذين ينشرون أفكارا خاطئة عن الدين، بأن تعقد ندوة ينقلها التليفزيون ويحضرها الناس، وأطلب أن يحضر هذه الندوة كل من توفيق الحكيم ويوسف إدريس وزكى نجيب محمود وأحضرها أنا وحدى لأكشف هؤلاء الناس للمسلمين فى العالم أجمع وأرد عليهم، ونترك الحكم لجموع المسلمين، كما أكشف وسائل الإعلام التى تقوم بنشر هذا الكلام، وإننى أتحدى أن تعقد مثل هذه الندوة، وأنا مستعد لها فى هذه اللحظة إذا كان هناك مايسمونه فكراً لهم، فكل كلامهم خارج هذا الدين وكله مردود عليهم، وأنا أريد النقاش علناً ليعرف كل إنسان قدره ولا يصبح دين الله نهباً مباحاً لكل من يريد أن يتعدى على مقدساته ويشوهه أمام الناس. إن مايقوم به هؤلاء الثلاثة لايمت إلى الحق بصلة ولا إلى الفكر الإسلامى الصحيح، ومايكتبونه هو قضية تحمل الضلال والإضلال، وإذا كان لديهم ذرة حق فليأتوا ولنتناقش أمام الناس جميعاً وإنى فى انتظارهم».

هل موقف الشيخ هنا صائب؟

بالفعل كل الصواب، لكن اللقاء لم يتم، واكتفى الشعراوى بالرد على توفيق الحكيم على صفحات «اللواء الإسلامى»، وانتهى الموضوع بإرث من الكراهية من توفيق الحكيم وكثير من الهجوم من بعض الذين رأوا أن توفيق الحكيم على حق ومنهم يوسف إدريس الذى كان له شوط آخر مع الشيخ الشعراوى، لكن أهم كلمة قالها يوسف إدريس عن الشعراوى أنه «راسبوتين العصر».

وراسبوتين - لمن لايعرف - كان مجرد فلاح لايقرأ ولا يكتب اتجه إلى الدين بالصدفة، حيث كان يزور أحد أصدقائه فى دير صغير، وبقى بعض الوقت وبهرته العزلة والهدوء وهذا الصفاء وهذه القناعة، وقرر أن يكون واحداً من رجال الدين، واختفى بعيداً عن قريته وهو فى العشرين من عمره بعض الوقت، وفى ذلك الوقت كان قد تعلم مبادىء الدين.

وراسبوتين ذلك مع أنه كان جاهلاً لكن كانت فيه قدرة غريبة خفية على جذب الناس وإقناعهم، وهو لايدرى ماهذا الذى يسحب الناس وراءه، على الأصح يسحب النساء وراءه ومعه وأمامه وبين أحضانه فى كل مكان، فلا هو غنى ولا هو رقيق ولا هو محب للمرأة، على العكس فهو لايشعر بأدنى احترام لإحساساتها، ولم تكن فلسفة راسبوتين عن قراءة وتأمل وإنما عن تجربة وإدراك لمعانى الحياة والناس.

قرر راسبوتين أن يكون راهباً نهائياً فسافر إلى اليونان وراح يدور حول جبل أتوس، ويقول جئت إليك من روسيا أحمل قلبى على يدى وأريد أن أعود بلا قلب.. وكان له ما أراد..

اكتفى راسبوتين بمئات القلوب حوله تدق معه خوفاً وفزعاً ورغبة وجوعاً وعطشاً، وجاءت الصدفة حيث سمعت به إحدى النبيلات ولمست قواه الروحية السحرية وراحت تشيع بين نساء البلاط القيصرى أن قواه الروحية لايقاومها أحد تماماً كقواه الجسمية وأن الحياة معه وفى أحضانه هى الجنة.

وأصبح راسبوتين شهيراً بأنه الرجل المقدس القادر على شفاء النفوس والأجسام بنظرته، بلمسته، بقبلته، بصلواته ودعواته، وجاءت النساء بالألوف يبكين ويحملن أطفالهن من أجل الشفاء، وكان الراهب المقدس يشفى الجميع ويستبقى لنفسه بعض الحسناوات، ولم يكن يقنع بأربع أو خمس، كان فى داخله وحش لايرتوى من الشفاه ولا يشبع من الخدود، وكان يسعد الجميع وهى قدرة هائلة.. وفى إحدى الكنائس ارتكب قسيس غلطة، فقد راح يصف للمؤمنين كيف أن الشيطان ارتدى ملابس أحد الرهبان واتخذ له اسماً راسبوتين، وكيف أنه يقيم الصلوات الفاجرة والمواخير المقدسة

وكيف يفتك بالعـذارى وهن راضيات، وأن هذا الرجل شر يجب أن تقاومـه الكنيسة وأن يعاونها المؤمنون فى ذلك. .

ولما ذهبت المؤمنات ليلقـين نظرة على هذا الشيـطان وقعن فى أحضـانه من أول نظرة وصرن عبيداً له من ثانى نظرة ومن ثالث نظرة لم يعد أحد يذهب للكنيسة.

راسبـوتين إذن كان يتمتع بقـوى خارقة، وقد رأى يوسف إدريس أن الشـعراوى يماثل هذا الرجل الأسطورة، ولذا أطلق عليه نفس الاسم. . ولو كان يوسف إدريس حيـاً لسألناه: فى أى ناحـية يا أسـتاذنا يشبـه الشعـراوى راسبوتـين؟ وأظن أن قدرة راسبوتين على جذب الناس وإقناعهم هو مادفع يوسف إدريس لهذا التشبيه.

لكن مأسـاة الشيخ أنه لم يكن يدير مـعاركـه بحنكة وذكاء، فمـثل هذه المواقف تحتاج لأحد أمرين:

الأول: إما أن يسكت نهـائياً ولا يرد على كلامـهم سواء أكان حقـا أو أكاذيب، وهذا بالطبع لايليق بعالم دين. .

والثانى: هو أن يتحدث ويرد على أكاذيبهم ويفند آراءهم. .

والملفت للانتباه أن الشعراوى فعل الأمـرين معاً، فالرجل صمت وتحدث، بمعنى آخر تحدث الشـعراوى بكلام يشبه السكوت أو كان السكوت أفـضل من حديثه، فلم يكن للرجل غير رد واحد، فقد قال الشيخ:

«إن الله تحمل عن كل من ينسب إليـه بالدعـوة إليـه وحـين يرد الله لانستطيع أن نرد بعـده، فمـاذا قال تعالى عن هؤلاء الذين يهـمزون ويلمـزون على من يقـومـون بالدعـوة إليـه، قـال: ﴿ويل لكل همـزة لمزة﴾، فهو توعدهم بشر أعمالهم، فماذا أفعل أنا؟..».

وكلام الشيخ فى مثل هذا الموضع الساذج لا يـليق بموقف كهذا، صحيح أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**إن الله يـدافع عن الذين آمنوا**﴾، ونحن مقتنعون تمام الاقتناع

أن الشعراوى من المؤمنين، لكن الأمور لاتتعلق بالشعراوى الشخص بمقدار ماتنصب على مايقوله الشيخ وبين مايقوله أعداؤه، فالشيخ يواصل كلامه:

«... والأنبياء عندما يقومون بدعوتهم فإن أول من يتصدى لهم هم الطغاة الذين لايريدون لدين الله أن يتدخل ليرحم الناس من مظالمهم وطغيانهم ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، وإذا كان لكل نبى عدو ومادام العلماء سيخلفون الأنبياء فهذا ميراثهم أيضاً من النبوة، فالذى لايناله من أعدائه ظلم وتهجم وغمز ولمز يكون قد نقص حظه من ميراث النبوة».

ونحن لانرضى أبداً ياشيخ أن ينقص حظك من ميراث الأنبياء..!! لكن كان من الواجب أن تتحدث، أن تقول، أن ترد بدلاً من أن تترك الجميع يتحدث ولاترد، بل تكتفى فقط بأن ترفع لافتة أنهم شيوعيون، أو منتفعون، أو يريدون هدم الدين الإسلامى.. من المفروض أن تعرف أن هذه جملة بالية، فحتى لو كان هؤلاء من الشيوعيين أليس من الواجب أن ترد مزاعمهم وتفند آراءهم؟!

كان هذا هو المفروض فى معاركك ياشيخ.

لكن الطريف فى المسألة أن الشيخ يروى بعد موت الحكيم ويوسف إدريس عن لقائه بهما قبل موتهما فيقول عن توفيق الحكيم:

«ذهبت لزيارته وهو فى مستشفى المقاولين العرب وكان هو قد قال: «أنا شفت الشيخ الشعراوى فى الرؤيا.. رأيته فى المنام».. قال ذلك للأطباء الذين يعالجونه، وكانوا قد نقلوه من الإنعاش إلى غرفته، وقد أبلغتنى ابنته بحكاية الرؤيا هذه وقالت أنه يريد أن يرانى، فذهبت إليه، وأذكر أنه قال لى: «ياشيخ شعراوى عايز أعرف منك إيه المطلوب منى الآن؟»، فقلت له: المطلوب منك الآن أن تتقرب من

الله قرباً شديداً لتكفر عن البُعد الشديد، وأول شيء تتقرب به إلى الله هو الصلاة.. وأعطيته السجادة»!!

وعن يوسف إدريس يقول الشيخ:

«التقيت بالدكتور يوسف إدريس هناك (فى لندن) بعد خروجه من المستشفى وقعدنا ليلة طويلة مع بعض وتصافينا..».

وقال الشيخ أن يوسف إدريس قد ترك فى نفسه انطباعاً بأن أنفاسه رضية رغم حدته، وعندما يشاء الله لإنسان أن يتراجع عما بدر منه فليس من الواجب أن نفكره ونذكره بعنف ما بدأ به، والخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية.

ومادام الشيخ يرى أنه هكذا انتهت معركته مع الحكيم وإدريس أظن أن التعليق لايفيد.

المعركة الثانية..

إلى الآن عندما يُسأل الشيخ عن مسألة توبة الفنانين تجد أن كلامه ليس قاطعاً.
فقد سئل الشيخ:

- فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، تزايدت فى الآونة الأخيرة ظاهرة اعتزال الفنانات المصريات، فخلال عام واحد اعتزلت كل من مديحة كامل وياسمين الخيام وعفاف شعيب وسهير رمزى ومنى جبر وعفاف رشاد وفريدة سيف النصر، ومعظمهن قد التمس منك الهداية، هذا الاعتزال شبه الجماعى قد دعا البعض إلى أن يروج بأن بعض الفنانات منهن قد تلقين مساعدات مالية من إحدى الجهات فى الخارج وبالتحديد من إحدى المنظمات الإيرانية المعادية لمصر.. مارأيك؟

وكان رد الشيخ كالتالى:

«جميل جداً أن فيه ناس فيها خير، تدفع فلوس علشان الناس تبتعد عن الشر، ياسلام يبقى كتر خيرهم، والناس اللى بيقولوا هذا الكلام ألم يسألوا أنفسهم ناس تعطى أموالاً من أجل الهداية وناس بتعطى من أجل الفسق، ألم يسألوا أنفسهم أيهما الفارق.. الأحسن ناس تعطى من أجل الهداية وناس تعطى من أجل الفجور.. ثم إن الواحدة التى أمامها طريقان يدران عليها أموالاً على فرض أنها تنكر ثم تفضل الطريق الذى فيه خير تبقى رجحت الخير أم أنها لم ترجحه.. الطريقان

سوف يأتيان لها بالأموال يبقى الأولى ماذا يقول.. اللى بيشترى واحدة مستهترة علشان تبقى كويسة يبقى كتر خير الدنيا أنه بيدفع فلوس علشان الناس تهتدى، هذا هو الجزء الهام من المسألة».

ولايمكن أن نعتبر هذا هو موقف الشعراوى، فالقضية متشعبة..

- فمسألة اعتزال هؤلاء تثير مسألة موقع الفن من الحلال والحرام، ويجعل المجتمع يدخل فى نقاش طويل حول هل الفن حلال أم حرام؟ وهنا لن نسأل عن الغناء فقط، بل سنسأل عن المسرح والسينما وغيرها من الفنون، فالمعتزلات منهن المطربات وممثلات السينما والمسرح والراقصات.

- يثير كلام الشيخ كذلك مسألة الأموال التى تُدفع لتوبة هؤلاء.. فما هو شكل التوبة التى تأتى عن طلب أحد ويدفع فى ذلك أموالاً حتى تتوب امرأة.. كنا ننتظر أن يقول الشيخ أن التوبة جاءت من دواخلهن.. فالشيخ لايستنكر أن يكون البعض قد دفع.. وهذه مصيبة، وقد يكون كلام الشعراوى رداً على المتقولين.. لكن لا.

- ثالثاً، وهذا هام جداً، فهذا الموقف من الشيخ أدخله فى معركة مع جميع العاملين فى مجال الفن وجميع الصحفيين والنقاد والمهتمين بالعمل الفنى، وقالوا ماقالوا، لكن الشيخ كعادته قال كلمته ومضى.

والمشكلة الكبيرة فى الشكل الذى تمت به هذه التوبة وهذه الضجة التى صاحبت هذا الموضوع، وأذكر مثلاً أنه بعد أن أعلنت فريدة سيف النصر توبتها أنى قرأت خبراً فى جريدة «الجمهورية» فى صفحة كل الفنون.. يقول الخبر:

«أعلنت الفنانة فريدة سيف النصر اعتزالها العمل الفني وارتداء الحجاب، وكانت قد اعتذرت مباشرة عن بطولة مسرحية سحلب بدلاً من سماح أنور للموسم الشتوى، كما اعتذرت عن مسرحيتين تليفزيونيتين بعد أن قامت بالبروفات، آخر أعمال فريدة خمسة أفلام سينمائية بطولة، من إنتاج صالح فوزان وجهاد خوري. وتقول فريدة

أنا ونورا أصدقاء منذ أربع سنوات قبل أن ترتدي نورا الحجاب، وكنا نؤدي الصلاة معاً ونصوم يومي الاثنين والخميس وقد رأت في المنام شمس البارودي وهي تأخذ نورا من بينهم قبل تحجبها، وفي اليوم التالي مباشرة للرؤيا أعلنت نورا الحجاب، كما أديت صلاة العشاء أمس الأول مع سوسن بدر في الحسين. وتضيف فريدة أنها ارتدت صباح يوم الحجاب ملابسها العادية بالماكياج، ولكنها بعد أن أدت صلاة العصر لم تخلع غطاء الرأس وأعلنت الحجاب. وقالت فريدة أنها شاهدت رؤيا تحتفظ بتفاصيلها وإن كان مسموحا لها أن تبوح ببعضها وهي رؤية يوم القيامة والإمام الشافعي والسيد أحمد البدوي، وأن شخصاً في المنام قدم لها كتاباً أخضر اعتقدت أنه سيناريو لفيلم وعندما فتحته انطلق منه غبار وعبارة «مرسل من محمد رسول الله»، وأضافت أنها في اليوم التالي شاهدت رؤيا في غرفة نومها تضم شمس البارودى وهي تفتح دولاباً به مجموعة من أغطية الرأس وقدمت لها أحدها، وقالت لها: ماذا فعلت أم كلثوم وعبدالحليم حافظ؟ وقدمت لي القرآن الكريم. وتقول فريدة إنني عندما كنت أعرض بطولة مسرحية «حلو الكلام» مع سعيد صالح وأرقص علي المسرح كنت أحس بنظرات الجمهور وصفيره كأنها دبابيس موجهة إلي جسدي مما اضطرني إلى جمع ملابسى وتركت المسرحية».

ومن يرد أن يقرأ عن مهزلة فليقرأ الخبر السابق مرة ثانية..

فسخافة الخبر وماقالته صاحبته يصح أن تضحك به على جمهورها الذى تقدم له أفلام درجة عاشرة ومسرحيات درجة عشرين.

وأسأل فريدة الآن بعد أن خلعت الحجاب وعادت.. أسألها: نظرات الجمهور وصفيره هل مازالت مثل الدبابيس.. أم أن «جتتها نحست»؟ وعفواً إذا كان التعبير غير مناسب.

ومارأى الشيخ نفسه فى موقف مثل هذه الرؤيا والتوبة ثم العودة مرة أخرى؟ ثم لماذا بعد توبة هؤلاء تملأ صورهم وأخبارهم الجرائد والمجلات؟ ولماذا وصلت هذه الصور وهى بالطبع بالحجاب؟ وكيف وصلت من الأساس؟ هذه أسئلة للشيخ الذى لم يدر المعركة بحنكة الداعية التى نراها فيه وهو يفسر آيات القرآن.

المعركة لم تكن قوية.. ولكن قد نعود إليها مرة أخرى.

المعركة الثالثة..

«لو تحدثنا عن شركات توظيف الأموال.. اللى يثبت عليه مخالفة يقطعوا رقبته..».

كانت هذه إجابة الشيخ أوردها عندما طُلب منه الحديث عن شركات توظيف الأموال، وكان هذا الكلام عام ٨٩، بعد أن ضاعت أموال الناس وتخلفت كمية هائلة من المصائب.

وأصل المعركة أن الشعراوى تعرض لهجوم بسبب أنه كان يظهر دائماً مع أصحاب هذه الشركات فى افتتاح مشروعاتهم، ويظهر كذلك فى إعلاناتهم عن مثل هذه الافتتاحات، مما جعل البسطاء يتسابقون وراء هؤلاء، فمادام الشيخ معهم فإنهم ولاشك على صواب، وتهافت الناس عليهم فالشيخ معهم.

ولم يكن الشعراوى وحده هو الذى أضفى الشرعية على هؤلاء، فهو كان أداة، مجرد أداة لصبغهم بالشرعية الدينية.. فهم قد بحثوا أيضاً عن الشرعية السياسية فسار فى ركابهم الوزراء ورجال الدولة..

وبين أصحاب الشركات والشعراوى ورجال الدولة.. ضاعت أموال الناس، صحيح أن الشيخ صرح أنه أحضر للحكومة توكيلاً من أحمد الريان وتم تسجيل التوكيل بالشهر العقارى وإيداعه لدى الدكتور فج النور، لكن على حد قول الشيخ

أيضاً فالحكومة لم تقبل التوكيل، وعليه فالشيخ حاول الحل، لكن الحكومة رفضت الحل، فيكون الشيخ قد برىء من ضياع أموال الناس . . !!

ومع أن القضية قد ضاعت وأصبحت باهتة إلى حد كبير لأنها أثارت بين الشعراوى وبين من وقفوا ضده أشياء كثيرة منها حدود تدخل شيخ الدين أو رجل الدين كما يحب البعض أن يسميه فى نشاطات المجتمع المختلفة.

فظهور الشيخ وبعض رجال الدين الآخرين مع هؤلاء عمل بالدرجة الأولى على خداع الناس وضياع أموالهم، وسواء عمل الشعراوى على تقديم حل كما قال أم لا . . فإنه يتحمل تبعة وعبء استغلالهم كرجل دين له تأثير حتى تسير مشروعاتهم الاقتصادية.

وبعد «خراب مالطة» كما يقولون يأتى الشيخ ليقول بمنتهى البراءة والبساطة والسهولة أيضاً:

«اللى يثبت عليه مخالفة يقطعوا رقبته».

صحيح يامولانا ونحن أيضاً نقول لك شكراً . . كما شكرك قبلاً أصحاب هذه الشركات.

كانت هذه المرحلة من حياة الشعراوى إذن مرحلة صاخبة، لكنها كانت صاخبة على مستوى الشكل فقط، أما الجوهر والمضمون والعمق فكانت هادئة للغاية، فالشيخ له طريقة غريبة فى إدارة معاركه . .

وهكذا تمضى حياة الشعراوى من يوم مولده إلى يومنا هذا . . يثير الكثير من الخلافات مع الجميع ويظل هو وحده فى منطقة الضوء.

موت الشعراوى..

هل من حقى أن أتخيل أحداث اليوم الذى سوف يموت فيه الشعراوى؟!

أظن أن ذلك من حقى تماماً، مادمت لن أتدخل فى المشيئة الإلهية، فكلامى ليس فيه أدنى تدخل، فكون الشيخ الشعراوى سيموت، فذلك أمر مؤكد، فكل نفس ذائقة الموت، القرآن يؤكد ذلك..

إذن تعالوا بنا نتخيل ولو لدقائق ماذا سيحدث عندما يموت الشعراوى.. هذا إذا كنا نحن أحياء؟

بالطبع سوف تقطع الإذاعة إرسالها وكذلك التليفزيون لتذيع الخبر، وأغلب الظن أن الذى سيقوم بذلك مذيع وليست مذيعة!!

ويمكن أن يكون الخبر كالتالى:

«جاءنا الآن الخبر التالي.. فقدت الأمة الإسلامية والعالم أجمع علامة من علاماتها المضيئة وعلماً من أعلامها البارزين.. توفى فضيلة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى إمام الدعاة إلى الله، وستشيع جنازة الفقيد من مسجد (.....) عقب صلاة (.....)، ونحن إذ ننعى الشيخ، فإنما ننعى أمة بأسرها فقدت فيه رجلاً خدم الدعوة الإسلامية بكل ما أوتى من قوة وجهد..».

جنازة الشيخ لابد أنها ستكون شيئاً مهيباً، فسوف تخرج الجماهير من كل مكان فى أرض مصر لتودع فقيدها، ففى كل بلد وفى كل قرية تجد مريدى الشيخ ومحبيه، ولابد أن يكون هناك مندوب عن الرئيس وكثير من الوزراء ورجال الدولة وأيضاً كبار رجال الدين، والمؤكد أن خادم الحرمين الشريفين سوف يرسل مندوباً عنه، هذا إن لم يأت بنفسه وإن كانت صحته لم تعد تسمح.. المؤكد أنها ستكون جنازة تاريخية، ربما تصل إلى درجة جنازة جمال عبدالناصر..

والسؤال الذى سيُطرح على الساحة بقوة..

هل سيُدفن الشعراوى فى دقادوس مسقط رأسه أم أنه سيُدفن فى القاهرة؟ أغلب الظن أنه سوف يدفن فى القاهرة حيث إن الشيخ بعد موته ـ وهذا مؤكد ـ سيكون له مريدون أكثر ومحبون أغزر ليسوا من مصر فقط بل من كل دول العالم، والقاهرة ستوفر المكان القريب لهؤلاء حتى يزوروا الشيخ بدون عناء، وإن كان المؤكد أيضاً أن أهل دقادوس سوف يطلبون جثمان الشيخ حتى يرقد رقدته الأبدية فى ترابها..

فى اليوم التالى سوف يكون عنوان الصحف جميعها عن موت الشعراوى.. كل الصحف على الإطلاق التى تعارضه والتى تؤيده والتى على الحياد.. «الأخبار» ستهتم أكثر وسوف تخصص أكثر من صفحة للحديث عن الحدث الجلل، وربما تتحدث عن بعض الكرامات أو النبوءات أو الوصايا التى تحدث بها الشيخ قبل موته.

«آخر ساعة» أيضاً ستفعل شيئاً مثل هذا.

التليفزيون سينقل الجنازة أو على الأقل سيجعل خبر موت الشعراوى وجنازته هو الخبر الأول فى جميع نشرات أخباره وحتى آخر الأنباء وربما يذيع التليفزيون على مدار اليوم العديد من لقاءات الشيخ مع جميع أنواع البرامج بداية من برنامجه الشخصى «الخواطر» وحتى برامج المرأة التى كانت تستضيفه دائماً..

الإذاعة أيضاً ستفعل شيئاً مثل هذا.

بعد ذلك بأيام سوف تخرج عشرات الكتب عن الشعراوى وتعاد طباعة الكتب التى كتبت عنه، كما أن كتبه التى لاحصر لها ولا عدد سوف تلفظها المكتبات إلى أرصفة الشوارع أمام باعة الصحف بالطبع.

بعد شهر واحد سوف ينتهى كل هذا المولد ولن يتبقى، وهذا على الظنية أكثر منه على اليقينية، لن يتبقى سوى برنامجه الأسبوعى والذى سيظل التليفزيون يعيده ويكرره حتى يأتى فى دورة من دوراته ويلغيه.. وفقط..

ويتحول الشعراوى إلى صفحة فى كتاب التاريخ، وتتوالى الأجيال فيصبح اسمه بين أسماء العلماء الكثيرين بلا بريق ولا لمعان، فقط يظل الاسم شاهداً على أنه كان هناك ذات يوم من يسمى بالشيخ محمد متولى الشعراوى.

آه نسيت.. لو دفن الشعراوى فى دقادوس فلابد أن يعمل أهل القرية مولداً سنوياً للشيخ الشعراوى.. هذا أيضاً على الظنية فقط..

ومن الغريب أن الشعراوى تعرض لشائعة تقول بموته، وذلك عقب لقائه مع الرئيس مبارك بعد تعرضه ـ الرئيس ـ لحادث الاغتيال فى أديس أبابا، وكان الشعراوى قد ألقى كلمة جاء فيها:

«وإني ياسيادة الرئيس أقف على عتبة دنياى لأستقبل أجل الله، فلِمَ أختتم حياتي بنفاق...».

وقال أيضاً:

«إن آخر ما أقوله لك ياسيادة الرئيس، ولعل هذا يكون آخر لقائى بك، إذا كنت قدرنا فليوفقك الله وإن كنا قدرك فليعنك الله على أن تتحمل».

كان ذلك فى ٢٩ يونيو ١٩٩٥.

وانتشرت شائعة موت الشعراوى كالنار فى الهشيم.

وعلق البعض أنها مجرد حركة من الشيخ لجأ إليها، حيث إن شعبيته قد قلّت فى الفترة الأخيرة، وعندما يشاع أنه مات فإن الناس سيشعرون أن الشيخ لابد أن يكون ولياً من أولياء الله الصالحين، فقد توقع الموت فمات، وهو مايضفى على الشيخ وأقواله وتصرفاته هالة من القدسية..

ومهما اختلفنا مع الشعراوى فلا يمكن أن نعلق على شائعة موته بمثل هذا الكلام، فالشائعات كثيرة.. كثيرة جداً..

لكن المؤكد عندى أن الشعراوى حتى فى موته سوف يُظلم من معارضيه ومؤيديه، وسوف يقال عنه الكثير.. والكثير.. أما من هو السبب فى ذلك؟..

فكما يقول إيليا أبو ماضى: «لست أدرى».. ربما أنت يامولانا تدرى.. ربما.

الفصل الثانى

فتـــاواك يـامـــولانـا

«هوامش على ضفاف حياة هادئة»

هوامش على ضفاف حياة هادئة..

عندما كتب كامل الشناوى «بعضى يمزق بعضى»..

تشعر بالفعل بمعركة دائرة داخل هذا الشاعر..

وعندما تقرأ فتاوى الشيخ الشعراوى..

تشعر بالفعل أيضاً أن هذا الرجل «بعضه يمزق بعضه»...

ففتاوى الشعراوى تحمل فى أحشائها تناقضاً مقيتاً..

ولذلك كان خطأ الذين يهاجمونه أو يعترضون عليه أنهم يبحثون عن حجج تؤيد كلامهم، مع أن بحثهم فيما كتب الشعراوى يمدهم بالدليل، حيث إن معظم فتاوى الرجل سبق أن تحدث بها مرة أو مرتين فى كثير من الأحيان.. كانت إجاباته مختلفة..

ليس افتراءً.. فقط نقرأ.. هذه السطور.. سوياً..

وقبل القراءة....

وهذا من وجهة نظرى على الأقل، وبرغم كل مايقوله الشعراوى عن حياته، وبما توحى كلماته من أنها حياة صاخبة.. لكنها بالفعل حياة هادئة للغاية..

هذا مجرد رأيى..!!!

ولكم أنتم رأيكم أيضاً..!!!

بيت الشيخ..

رجل «أبوى» هو بلا شك.. أحداث طفولته وحكاياته التى يرويها تدلنا على ذلك، فالشعراوى الذى نعرفه من خلال سطور يخطها هو، تشى بانتمائه إلى الأب أكثر، فهو ليس «أموياً» نسبة إلى الأم..

وقد يقول البعض أن ذلك طبيعى للغاية فنشأة الشعراوى فى الريف كانت تحتم ارتباطه بالأب، فهو معه فى الزراعة يساعده أو يلعب فى الشارع.. فالأوقات التى كان يقضيها مع أمه لم تكن أوقاتاً كثيرة مما يعنى أن الأم عند الشعراوى لم يكن لها تأثير يذكر..

يمكن أن تكون الفكرة السابقة غير ذات قيمة، فكثير هم أولئك الذين تأثروا بآبائهم أكثر، بل هناك من ماتت أمهاتهم وتولى آباؤهم تربيتهم.. لكن مايلفت الانتباه أن الشعراوى يتحدث عن والده بصورة غير معقولة، ولنتتبع سوياً مكونات الصورة التى رسمها الشعراوى لهذا الرجل..

فمنذ أن وهب متولى الشعراوى ولده للأزهر والعلم حرص الرجل على إلحاقه بالكُتّاب حتى يتعلم، ولم يكن الرجل رفيقاً بولده، لكنه كان يوصى شيخ الكُتّاب ويقول له:

«اضربه واكسر له ضلعاً إذا هو أهمل فى أى شىء».

الرجل إذن كان حريصاً على تعليم ولده تعليماً جيداً بما يمثل رغبة فى دفعه إلى الأمام ناحية العلم والدين والأزهر..

لكن كيف كان هذا الرجل..؟

كان الرجل مجرد فلاح لايقرأ ولا يكتب إلا قليلاً، نستطيع أن نقول أنه رجل أمى يحرص على الصلاة فى أوقاتها، يقضى معظم أوقاته فى أرضه، تلك القطعة الصغيرة التى كان يزرعها.. استمد الرجل خبرته من الحياة بطولها وعرضها.. علمته الدنيا الكثير وتعلم من الناس أكثر، وليس هذا امتيازاً للرجل فهو فى ذلك مثل جميع الفلاحين، حيث تجد أنهم جميعاً أو لنقل معظمهم يتحدثون بالحكمة وسداد الرأى.. وذلك ماجعل الشعراوى يقول ذات مرة:

«إننى أخذت من معلمى ١٠ فى المائة من ثقافتى، وأخذت من أبى الفلاح الأمى الساخر ٩٠ فى المائة من ثقافتى..».

وبقدر مايمكن أن نعتبر أن التصريح عادى جداً.. لكنه خطير للغاية، والذى يستمع للشعراوى وينصت تماماً إليه يدرك مدى تأثر الشعراوى بتجارب والده وخبرته، فالرجل الذى تراه جالساً أمامك يفسر القرآن لايختلف كثيراً عن رجل يجلس وسط مجموعة على «مصطبة» فى القرية، فهو يحكى ويرد على التساؤلات ويصحح الأخطاء.. فوق ذلك يعتمد الشعراوى بشكل كبير على أمثلة الفلاحين وحكاياتهم والتركيز على حياتهم ومايستخدمونه من أدوات، هذا بالطبع ليس عيباً ولكنه يشكل انفصالا عن الحياة المعاصرة وحياة المدنية.. فالشعراوى وإن كان يتحدث عن المدنية وحياة أصحابها، لكنه يتحدث عنها برؤية الناقد أبداً والمقارن دائماً بين الريف والمدينة.. ومن أظرف ماقاله الشيخ الشعراوى فى مقارنته بين السيارة والحمار حيث إن السيارة وسيلة للانتقال فى المدينة والحمار مع أنه يمثل رمز الغباء فى المدينة لكنه وسيلة ركوب للفلاحين.. يقول الشعراوى إن الحمار أفضل.. لماذا يامولانا؟.. يقول

لأن الطبيعة فرضت أن الحمار إذا مات صاحبه وهو يركبه فإنه يتوقف فوراً ويعود به إلى المكان الذى خرج منه، أما السيارة فإن صاحبها أو الذى يقودها عندما يموت وهو يقود فإن السيارة تنحرف به إلى أى مكان مما يسفر عن حادثة مروعة..

رأى ظريف للشيخ ومقارنة أظرف.. لكنه كما قدمنا فالكلام تحكمه نظرة ضيقة أسسها الشيخ على امتداد من خبرة حياة قضاها مع الفلاحين وفى الريف..

والشيخ لم يقل ذلك عن والده فقط، لكنه يحكى عن مواقف تدل على ذلك، حيث يقول الشيخ:

«كان عندنا فى بلدنا واحد من الأعيان اسمه الحاج عبدالمنعم الشيخ، وهو من أسرة عريقة فى الدين وكان عنده ولد اسمه عبدالمجيد، ومن حبه لابنه هذا اشترى له «خاتماً به فص من اللولى»، وعلم بذلك رجل يعمل فى المقابر اسمه الشيخ مصطفى، فلم يعجبه ذلك، كيف يضع شاباً من أسرة طيبة خاتماً من اللولى فى إصبعه؟! وتصادف أن التقى الشيخ مصطفى بوالدى ودارت بينهما مناقشة طويلة وساخنة، قال فيها الشيخ مصطفى أن وضع الخاتم اللولى فى يد شاب هو حرام وشىء لايليق، وطلب من والدى أن ينبه هذا الشاب إلى ذلك وأن يشير عليه بأن يخلعه، ورد عليه والدى وقال: ياشيخ مصطفى، الخاتم اللولى ليس حراما، الحرام هو الذهب لأنه فلوس. وأضاف: هل نسيت ياشيخ مصطفى أن ربنا فى كتابه العزيز قال: ﴿تستخرجون منه لحماً طرياً وتستخرجون منه حلية تلبسونها﴾، يعنى اللى يجى من البحر وناكل منه ونصنع منه حلية زى اللولى ليس حراماً»..

ويعلق الشيخ على كلام والده فيقول:

«شوف يا أخى الكلام اللى بيقوله رجل أمى، رجل لايقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يتكلم فى الحلال والحرام وبوعى كبير..».

وللشعراوى مطلق الحق فى أن يتحدث عن والده وأن يضفى عليه من الصفات مايريد، فنحن أولاً نحترم الشعراوى ونحترم أباه.. ولانحيد عن ذلك، لكن أن ينطق الشعراوى بلسان أبيه بكلام ليس من المنطق، فهذا هو المرفوض.. الواقعة حدثت لكن أن يستشهد رجل أمى لايقرأ ولايكتب على حد قول الشيخ بآية من القرآن بل ويفسرها على النحو الذى يقتنع به الشيخ مصطفى، فهذا كثير..

وإن كان الشعراوى يقول عن والده ذلك، فهو بلاشك يرسم صورة جيدة للرجل الذى أخذ منه ٩٠٪ من ثقافته كما يقول، وإن كان ليس من العيب أن يكون الرجل لايفتى ولايدلى بدلوه فى أمور الدين وبوعى كبير..

وهناك بُعد آخر يريد الشعراوى أن يؤصله فى شخصية أبيه، حيث قال:

«أبى كان متكلماً وساخراً رغم أنه كان فلاحاً وأمياً كما قلت، وأذكر أننى أيام الحرب العالمية كنت أسكن فى حى السيدة زينب وكان الخبز وقتها قد نقص من السوق وشح ولم يعد الحصول عليه سهلاً، وكان ذلك بسبب الحرب، ولما اشتد بى الضيق أرسلت إلى والدى فى البلد وقلت له أننا لانجد العيش، وبمجرد أن وصلته الرسالة أسرع وراح يجمع العيش الذى فى بيته وبيت أخته وأقاربه ووضعه فى عدة قفف وأتى بها إلى القاهرة ونزل فى شبرا وركب الترماى من شبرا إلى السيدة زينب، كان عدد القفف التى مع والدى يصل إلى ستة وكانت مملوءة بالعيش الجاف الذى يستمر لفترة دون أن يصيبه العفن، وكانت معه أيضاً كمية من الجبن وازدحمت عربة الترماى التى ركبها والدى بهذا العدد الكبير من القفف، وأراد أحد الركاب من القاهريين أن يستظرف ويسخر من والدى الذى بدا له فى صورة فلاح ساذج جاء من القرية بكل هذه القفف المملوءة بالخبز، فقال له ياعم الشيخ.. فرد والدى نعم ياسيدى، قال الرجل قل لى هى «الجلة» فى البلد عندكم سعرها وصل كام، والجِلة هى روث البهائم الذى يجفف

ويستخدم كوقود فى إشعال الأفران فى الريف، وكانت القاهرة وقتها تعانى من عدم وفرة الجاز نتيجة الحرب، وكان يصرف بكوبونات، فرد عليه والدى وقد أدرك أنه يريد الاستظراف والسخرية: حضرتك بتسأل عن سعر الجلة وصل كام عندنا فى البلد،قال الرجل: أيوه علشان الجاز شاحح عندنا شوية والناس بتفكر تعمل أفران زى اللى عندكم فى الفلاحين وأنا عايز أعرف سعر الجلة وصل كام عشان نشترى؟ فضحك الركاب، ورد والدى: حضرتك بقى حتشترى أكال ولا متسبب؟ وضحك كل الركاب لدرجة أنهم لم يستطيعوا السيطرة على أنفسهم من شدة الضحك.. كان معنى الرد الذى قاله والدى هو: هل ستشتريها للأكل أم لتبيعها وتكسب منها؟ واضطر الرجل إلى النزول فى أقرب محطة».

جميل هذا الجانب أيضاً من حياة الرجل، فهو يمتلك قدرة كبيرة على السخرية، لكن الشعراوى يجدها فرصة حتى يسخر من أهل المدينة ومايفعلونه من أفعال يرغبون بها السخرية من أهل الريف والفلاحين. . وإن كانت مثل هذا المواقف يمكن أن تحدث فى كل مكان. . لكن روح الدعابة والسخرية فى شخصية الأب أورثت شخصية الابن نوعاً من السخرية والدعابة أيضاً، فالشيخ مرح بطبعه، وقد أجاب عن سؤال: هل المرح يأخذ جزءاً كبيراً من حياتك؟ فقال الشيخ للسائل: طبعاً. . اسأل إخواننا، لما نتكلم لانقول إلا حقاً.

كل هذا لم يمنع الشيخ وهو فى الصف الثالث الابتدائى ـ ١٨ عاماً ـ أن يكذب على أبيه حيث لم يكن يرغب فى الأزهر، والرواية قالها قبل ذلك:

«أذكر أننى كتبت له قائمة طويلة بأسماء الكتب التى أريدها باعتبارها من الكتب المقررة علينا فى الدراسة ولم تكن هذه الكتب ضمن الكتب المقررة ولكننى أردت التضييق عليه وتعجيزه، كانت الكتب التى طلبتها من أمهات الكتب فى التراث وغيره، هذه الكتب وغيرها

كثير طلبت شراءها وقلت له أننى محتاج لها وفى أسرع وقت، وفوجئت بوالدى يشتريها ويحضرها لي.. كل الكتب التى طلبتها وقال وهو يقدمها لى إننى أعلم ياابنى أن جميع هذه الكتب التى طلبتها ليست مقررة عليك ومع ذلك فقد اشتريتها لك لكى تنهل من علومها وتنمى ثقافتك..».

نثبت هنا هذه الرواية بنصها لأن الشعراوى فى موقف آخر حكى هذه الحكاية، وكانت كالتالى:

«رحت عند محمد زكى صاحب مكتبة الاتحاد، كان فوقه مكتب فكرى باشا أباظة المحامى، والمكتبة مكتبة فخمة وفيها كتب تستميل الأبصار وبريق التجليد، فأنا وأنا ماشى كده شفت منظرها انبسطت منها فدخلت عند محمد زكى قلت له: الكتب دى إيه؟ قال: كتب إيه..! كتب للمشايخ بتاعتك.. قلت له: متنفعنيش؟ قال لى: لا متنفعكش. قلت له: انت عايز تبيعها؟ قال: أيوه عايز أبيعها إيه ياابنى اللى جرالك؟ قلت له: طب أبويا جاى يوم التلات، كان الكلام ده يوم الأحد فهو جاى يوم التلات عشان يشترى لى كتب فلما أجيبه نزل لى الكتاب ده والكتاب ده وده.. والراجل ميت من الضحك: تعمل بها إيه ياابنى؟ قلت له: انت مش عايز تبيع، أنا عايز الكتب دى.. الغرض أبويا جه وقعدنا ننزل وننزل لما الكتب، كل مايجى كتاب كبير كده ومجلد أبويا يقوللى: الكتاب ده عليكم؟ أقول له: آه مش أنا فى سنة تالتة. يقول: الله يفتح عليك ياابنى الله يفتح عليك.. لحد ما الكتب بقت كتيرة جاب الراجل الكراتين ومين اللى حيشيلها دى؟ فراح أبويا الله يرحمه نده على العربجى وراح على الحتة اللى مسكنّى فيها.. أبويا شاف الكتب كده محطوطة فى الشباك مرصوصة كتير كده قام قال لى: دى كتب كويسة والجلد بتاعها كويس ومدهبة وحتتعفر من مسكة الإيد أنا حروح أجيب لك ورق عشان تجلدها.

قلت له: روح. راح جاب مقص وورق وصمغ طول الليل قاعد يقص ويجلد لحد الفجر، صلى الفجر وشرب الشاى وقال أنا عايز أروّح بأه.. قلت: اتفضل. رحت معاه على المحطة هو ركب القطار وأنا وقفت على الرصيف وبعدين قال لى: يا أمين، قلت له: نعم، قال: عايز أقولك كلمة، قلت له: اتفضل. قال لى: أنا حقولك لك حكاية بس متزعلش. قلت له: اتفضل إيه.. فخفت.. كانت أمى عيانة، قلت له: أمى جرالها حاجة؟ قال: لا أنا خفت بس لما أروح وأسافر تفتكر إنك أنت عملت فىّ فصل، الكتب دى مش مقررة وكتبك كلها بتاعة سنة تالتة تمنها تمانية وتلاتين قرش.. أنا قلبى نزل فى رجلىّ.. إنما ياابنى الله ينفعك باللى فيها.. القطار صفر ومشى بس كان تحويل حياتى كله».

نكتفى بهذا القدر من رواية الشيخ..

ورغم أن الروايتين لهما نفس المضمون، وقد يقول البعض أن الأحداث لاتهم لكنها بالنسبة لنا هنا تهم جداً، حيث إن هذه بمثابة الزاوية الهامة فى حياة الشيخ.. التضارب فى أحداث حياته، أقصد فى الكيفية التى وقعت بها الأحداث..

والسؤال: عندما يحكى الشعراوى حادثة حدثت له فى حياته.. لماذا يرويها بشكلين مختلفين؟

قد يكون خطأ الذين يكتبون، لكن الشيخ هو المسئول الأول عن قصة حياته، فإن كان من الممكن أن يخطىء الشيخ فى اجتهاده فى الدين فيفتى بشىء خطأ.. لكن ليس من الممكن أن يُغفر للشيخ أن يخطىء فى حياته، أن يروى أحداثها من زاويتين مختلفتين وبشكلين مختلفين، لأنها فقط حياته.. هو حر فيها نعم، بمعنى أن يفعل فيها مايشاء، لكنه ليس حراً أن يرويها كما يشاء وخاصة أنه يروى حياته لكل من يطلب ويرغب.

وإن كان الرجل قد لعب دوراً هاماً للغاية فى حياة ابنه من الناحية الخُلقية والتعليمية.. فإن الشعراوى لاينسى أن أباه قد أعطاه درساً فى السياسة حيث يحكى

أنه يوم صدر الحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين يوماً كان قد قضاها قبل صدور الحكم أن والده قال له:

«مادمت عامل من نفسك راجل سياسى يبقى ماتهربش أبداً ولازم تتحمل نتيجة عملك».

الأب إذن احتل بؤرة الصورة التى يرسمها الشعراوى لنفسه احتل المنطقة الوسطى دون أن يشاركه فيها أحد. . لكن أيضاً. .

* كانت هناك أم..

بالطبع كانت هناك أم. . أين كان موقعها من حياة الشعراوى؟!

لم تكن الأم تحتل جانباً كبيراً من جوانب الصورة التى تغطى حياة الشعراوى، ليس ذلك ضرباً من توقع. . ولكن الشعراوى نفسه دلل على ذلك عندما لم يعط لأمه من ذكريات حياته شيئاً يُذكر، فلم تظهر أمه على صفحات حياته إلا مرتين. .

المرة الأولى عندما أظهرت غضبها منه عندما كان يخطب فى ذكرى سعد زغلول وكان إعجاب الناس به يصل إلى حد أن يقولوا له بعد كل بيت من الشعر يلقيه: «أعد. . أعد». .

ويحكى الشيخ ماحدث فيقول:

«وعندما انتهت الحفلة وذهبت فى طريقى إلى البيت ولم يكن البيت بعيداً عن مكان الاحتفال، وجدت أمى قاعدة على الباب زعلانة وعندما لمحتنى قادماً أشاحت بوجهها عنى فاندهشت، ماذا جرى؟ قلت لها بلهجتنا وكما تعودنا: سالخير يا أمه، فلم ترد كانت زعلانة، سألتها: مالك يا أمه حصل حاجة، إيه اللى جرى؟ فلم ترد، فعدت أسألها: أبويا حصل منه حاجة، فنظرت إلىّ فى غضب واستنكار ثم

.

أشاحت بوجهها عنى، وجاء والدى هذه اللحظة فوجدها على هذا الحال فسألها بدوره: مالك زعلانة ليه إيه اللى حصل؟ فلم ترد عليه،وتصور والدى أننى أغضبتها، فسألها فى انفعال: الولد ده حصل منه حاجة؟ وردت أمى وهى تنظر إلىّ فى غضب واستنكار: إسأله إيه اللى حصل؟ وسألنى والدى: فى غضب حصل إيه ياوله قل لى إيه اللى حصل؟ ولم أجد ما أقوله فأنا لم أفعل شيئاً يغضبها، وقالت أمى وهى مازالت غاضبة وفى استنكار: الولد ده كسفنا قدام البلد كلها وخلى رقبتنا زى السمسمة، وأضافت وهى ترمقنى فى غضب: إخص عليك. واندهشت واندهش والدى أيضاً وسألها: عمل إيه الوله ده؟ قولى انطقى، قالت فى استنكار بالغ: كل واحد من اللى اتكلموا فى الحفلة قام وقال كلمتين ونزل وقعد فى مكانه، أما ده حضرة الشيخ قعد كل مايقول كلمتين الناس ترد عليه وتقول «أعد ياشيخ أعد ياشيخ» علشان مش حافظ الكلمتين بتوعه لما كسفنا قدام البلد كلها، إخص عليك. وعادت فنظرت إلى والدى وقالت فى عتاب: موش تقول له يبقى يحفظ الكلمتين بتوعه كويس قبل مايقف قدام الناس ويفضحنا. وتركتنا ودخلت البيت وضحكت وضحك والدى كثيراً وقال: أنا موش قلت لك من زمان إن أمك دى أكبر واحدة مغفلة فى البلد..».

والقصة على طرافتها وبساطتها تبين لنا مدى بساطة وسذاجة المرأة المصرية التى تعيش فى الريف، وموقف كهذا يظهر أم الشعراوى فى صورة المرأة التى لا وظيفة ولا عمل لها فى الحياة سوى خدمة الرجل والأبناء وتنظيف البيت.. أما كيف يسير هذا البيت فهذا عمل لا شأن لها به.

الموقف الثانى كان عندما حلمت بالشعراوى ومعه قفة الفلوس وتحقق الحلم عندما سافر السعودية ودخل على أمه وقال لها: «آدى الفلوس.. وآدى القفة»، غير ذلك لم يذكر الشعراوى أمه إلا بإشارات بسيطة، وكان يقرنها دائما بأبيه..

ماذا يعنى ذلك؟..

يعنى ذلك ببساطة أن التكوين الأكبر فى شخصية الشعراوى كان تكويناً رجولياً أبوياً مبتعداً فى هذا التكوين عن الجانب الأنثوى الأمومى، وهذا له تأثير بالطبع فى نظرة الرجل للمرأة..

وإذا كان هذا النمط من التربية يساعد على تكوين نظرة الرجل للمرأة، فإن زواج الشعراوى أيضاً بالطريقة التى أشرنا إليها يعمل على إكمال النظرة للمرأة وذلك كالتالى:

* فالعمل الذى كانت تقوم به أم الشعراوى فى بيتها أعطى الرجل صورة لما يجب أن يكون عليه عمل المرأة، فهى امرأة للبيت فقط، ومادون ذلك من أعمال فذلك غير مناسب لها، ولذا لانستغرب ماقاله الشعراوى ذات مرة.. أنه:

«يتعجب عندما يكون لدينا شباب ذكور عاطلون وعندما تقوم الحكومة بتعيينهم تقوم بتعيين الفتيات فى نفس الوقت، إن هذا خطأ، والصحيح عندما تنتهى الحكومة من تشغيل الذكور تتجه إلى الفتيات».

ويعترض الشعراوى كذلك على نوعية التعليم الحالى للفتيات، لكنه فى نفس الوقت يؤيد التعليم النوعى لكى تكون ست بيت.. وهذا تفكير قاصر إلى حد بعيد، فتعطيل نصف المجتمع من العمل يعنى كما قال الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه «من هنا نبدأ»: «أننا نعمل بذلك على إيجاد رئة معطلة فى المجتمع وأنى لمجتمع أن يعيش برئة واحدة».

* المستوى الفكرى لأم الشعراوى وهو الذى يظهر من الموقف الذى سرده يعطى صورة عن رأى الشعراوى فى المرأة كمتعلمة ومثقفة ودارسة، فالرجل يرفض أن تتعلم المرأة مختلف العلوم، ولكن يكفى أن يكون تعليمها تعليماً نوعياً لأن هذا التعليم سوف يفيدها فى إدارة البيت.. كلام جميل ياشيخ لكنه كلام قاصر..

إذن فتعليم المرأة وعملها عند الشعراوى مسائل تحتاج لإعادة نظر . .

لكن السؤال الأهم هو: كيف ينظر الشعراوى للمرأة. . وماذا تمثل المرأة فى فكره؟

هل هى جسد فقط. . ؟!

هل هى عقل فقط. . ؟!

هل هى عقل وجسد أيضاً. . ولا ضرر فى ذلك؟!

أظن أن الشعراوى ينظر للمرأة كجسد فقط. . ولذلك أسباب:

* **الأول:** أن الشعراوى تزوج مبكراً ولم يكن زواجه إلا لدرء الفتنة عنه، ولم يكن إصرار أبيه على زواجه إلا عندما رآه مع بنت صاحبة البيت الذى يسكنه. إذن عندما جاءت الزوجة كانت مهمتها هى الحفاظ على الطريق الذى يسلكه الرجل من الانحراف، فهى بالنسبة له كانت مثل إناء الماء يطفىء فيه لهيبه، والمؤكد أن الشعراوى ارتبط معها بعد ذلك بعاطفة المعاشرة، ففيها كما يعلم المودة والرحمة، لكن كلامى السابق يختص فقط باللحظة الأولى من عمر العلاقة بين الشعراوى (الرجل) وزوجته (المرأة).

* **والثانى:** هو نظرة الشعراوى للحب، فعندما سئل الشعراوى عن تجربة الحب الأول فى حياته قال:

> **«ماهو الحب.. الحب يعنى إيه؟! الحب يعنى انجذاب القلب إلى مفيد لاينقلب ضراً.. الحب أنك تميل إلى شىء يسعدك ولايوصلك إلى معنى الشقاء، إنما الحب الذى يأخذه يسعده فى لحظة ويرميه فى شقاء أبدى، فشخص مثلا يقول الرقص فن جميل، أقول له: لاشك فن جميل والناس مسرورون جداً، إنما يشترط للفن الجميل أن يظل جميلاً لايورث قبحاً، إنما التى ترقص وتهيج غرائزى وأنا ليس عندى مصرف للغريزة ماذا أصنع؟ أعربد فى الكون؟ فلكى يكون الفن جميلاً فلا يجب أن يورث قبحاً..».**

هل يمكن أن نسأل الشيخ سؤالاً: **مامعنى هذا الكلام يامولانا؟ وهل هذه إجابة فعلاً عن معنى الحب عندك؟.. ربما..**

لكن نواصل الحديث مع الشعراوى.. فعندما سئل: هل هناك تجربة حب أولى خاصة حين حدث انجذاب للفتاة ابنة الست أم أحمد التى كان يسكن عندها فى الزقازيق فى فترة دراسته وكان يشرح لها بعض مسائل الحساب؟.. يقول الشعراوى:

«لا والله لا انجذاب ولا حاجة وإنما هو تعايش، فمن فضل الله أن أبى لم يجعلنى أدخل تجربة، فهو شاف إنى ساكن فى بيت، والبيت ده فيه بنت والبنت بتيجى تسألنى فى أسئلة وعلوم، قال ح يقعد يعمل حاجة فجوزنى على طول..».

كلام الشيخ إذن يثبت ماقلناه سابقاً.

إذن ارتباط الشعراوى بأبيه وانفصاله عن أمه وزواجه المبكر أعطاه هذه النظرة للمرأة.. تلك النظرة التى عرضناها بشكل بسيط..

* إخــوة وأبنـــاء:

الشعراوى يقترب إلى نقطة أبيه إذن..

لكن أين يقع الشعراوى من إخوته؟.. لابد أنه درة التاج.. وغاية القصد لهم جميعاً، حتى الذين ماتوا من إخوته فإن أبناءهم يعتبرونه الجدار الكبير فى بيت عائلتهم.. لكن هل كان إخوة الشعراوى يحبونه؟

لو سئل الشعراوى فى ذلك فلن نجد عنده إجابة سوى أنه كان ملء أسماعهم وأبصارهم لأن مباشرة السؤال تفرض لوناً من مباشرة الإجابة، وقبل أن نتخيل سؤالنا للشعراوى وإجابته، علينا أن نذكر معه هذا الموقف.. يقول الشعراوى:

«كانت الأجازة فيما مضى طويلة وكانت تمتد لخمسة شهور وكان

إخوتي يريدون أن أعمل معهم في الغيط، ولكن أبي كان يريد أن أحصل على راحة تامة أثناء الأجازة لكي أستفيد منها في القراءة، فكان أبي يكسر القادوس بتاع الساقية ويقول لإخوتي: أنا مش قلت لكم الواد ده وش شؤم، فيقولون لي: ابعد روح بعيد عنا، وهو في الحقيقة الذى كسر القادوس علشان إخوتي لايسمحون لي بالعمل معهم ويقولون لي إبعد».

السطور لاتشى بشىء، ولكن ماوراء السطور قد يدلنا على أشياء كثيرة، منها مثلاً أن متولى الشعراوى كان يفضل ابنه محمد على بقية إخوته حيث يحبسه بعيداً للراحة والقراءة ومواصلة الاطلاع ويحبسهم هم للزراعة وللعمل وللتعب، ولاشك أن ذلك أوجد ضغائن من نوع ما بين الإخوة الصغار، إذ لابد أن الهمس ساد بين إخوته: لماذا يفضله أبونا عنا؟.. ولو قال أحدهم أنه يتعلم فى الأزهر وسيصبح عالماً لابد أن آخر يرد عليه قائلاً: إذا كان يتعلم فإنه الآن فى أجازة ولابد أن يساعدنا..

من حق البعض أن يقول أن هذا لم يحدث..

لكنى من حقى أيضاً أن أقول أنه لا الشعراوى أفضل من يوسف ـ عليه السلام ـ ولا إخوته أفضل من إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ، ولا الشيخ متولى الشعراوى أفضل من نبى الله يعقوب ـ عليه السلام ـ، فإذا كانت نفوس إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ كانت هكذا وهم من بيت النبوة، فما بالنا بأبناء رجل من الفلاحين؟!

ليس معنى ذلك أن إخوة الشعراوى كانوا يكرهونه أو يتمنون له الشر، ولكن لابد أنه كانت هناك ألوان من الغضب للتفريق فى المعاملة بينهم وبينه..

والمشكلة أننا لانستطيع أن نسترسل فى شرح علاقة الشعراوى بإخوته لأنه نفسه لم يستفض فى ذكر مواقفه معهم أو علاقته بهم..

ومع أنها ليست عادة الشيخ لكن هو وشأنه..

نفس الأمر تكرر مع أبناء الشيخ..

من أهم الآراء التى سمعتها من الشيخ الشعراوى فى مسألة تربية الأبناء هو أن نستحضر أثناء تربية الأبناء مبدأ «من أين لك هذا؟».

إلى أى شيء يستند الشيخ فى رأيه ذلك؟ يستند إلى قوله تعالى: ﴿ **وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله** ﴾.

ويقول الشعراوى:

«إن سيدنا زكريا مع علمه بمدى تقوى مريم وقربها من الله، ويعرف كذلك أنها لايمكن أن تكون قد أتت بهذا الرزق وهذا الطعام من طريق خطأ، لكن لأن هذا الرزق جاء دون أسباب فلابد أن يسألها من أين جاءت بهذا الرزق، لأن ظهور المال فى أيدى بعض الناس دون أن تكون هناك أسباب لظهور هذا المال فى أيديهم يمثل ظاهرة لبداية الفساد فى الأرض.. ولو طبق كل رجل مع أبنائه ذلك المبدأ، فلو حدث وظهر مال كثير مع أحد الأبناء دون أن يكون هناك طريق شرعى لوجود هذا المال معه فلابد أن يُسأل الابن».

بالتأكيد اتبع الشعراوى هذا المبدأ مع أبنائه، كذلك حاول أن يغرس فيهم حب النظام وكثيراً من الأخلاق الكريمة، حيث يقول الشيخ:

«أنا مثلاً أحب النظام وأكره أن ينقل أى طفل من أحفادى شيئاً من مكانه وأنفعل عليه وقد يزعل آباؤهم وأمهاتهم، ولكن لأن عدم النظام يقلقنى ويتعبنى فإننى أشرح للطفل الغرض من هذا الشيء ولماذا هو فى هذا المكان، وكذلك فى كل الأمور يجب أن يتضح فى ذهنه ما الذى نريده وماهو الغرض من هذا الشيء.. وأهم شيء فى التربية هو القدوة، فإن وجدت القدوة الصالحة سيأخذها الطفل تقليداً وأى حركة من سلوك سيىء يمكن أن تهدم الكثير مما بنيناه، وإذا أردنا أن نربى أولادنا تربية إسلامية فإن علينا أن نطبق تعاليم الإسلام فى أداء

الواجبات وإتقان العمل وأن نذهب للصلاة فى مواقيتها، فإذا رآنا الطفل ونحن نفعل ذلك فسوف يفعله هو الآخر حتى إن لم نتحدث إليه فى هذه الأمور فالفعل أهم من الكلام..

المسألة هنا تنصب على الناحية الدينية البحتة، وهى إلى حد بعيد صحيحة، ومثل هذه العناصر يريدها مجتمع يريد أن ينهض حتى ينهض على أكتافها، فالقدوة الحسنة على سبيل المثال تمثل دعامة رئيسية فى المجتمع الذى يرنو إلى التقدم، وإذا انعدمت فإن الأوبئة التى يمكن أن تسود المجتمع كثيرة، ومن المهم جداً أن تكون التربية فى هذه المرحلة تربية دينية، لأن تربية الأطفال هى أهم مرحلة فى حياة الإنسان أو على الأرجح، فالتربية لاتكون إلا فى مرحلة الطفولة فقط ومايأتى بعد ذلك يكون تقويماً وتعديلاً لما حدث فى هذه المرحلة».

ومع أن الشعراوى تحدث عن التربية بهذا الشكل، لكنه لم يباشر تربية أطفاله بنفسه، فالمنطق يقول أن الشعراوى الموظف لم يكن يتواجد فى بيته كثيراً، مما يعنى أن أبناء الشعراوى كانوا إلى الأم أقرب من الأب.. الشعراوى نفسه يقول:

«أم الأولاد ـ الله يرحمها ـ كانت تحكى لى عن كل شيء يجرى يومياً.. كانت تحكى لى عند عودتى وهى تخلع لى هدومى، وكنت إذا غضبت من تصرف أحد الأولاد كنت أقول لها هاتى الغدا بره أو ضعيه فى الغرفة الأخرى لأننى لا أريد أن آكل مع الأولاد فيأتى الأولاد ويسألون لماذا لاتأكل معنا؟ فكنت أقول لا آكل معكم وفيكم ولد بيعمل كذا وكذا، إننى أريد أن آكل وحدى علشان ربنا مايعاقبنيش بسببكم فيأتون ويأخذون فى تقبيل يدى ورجلى، وأخيراً أقبل اعتذارهم وأجلس آكل معهم».

إذن فنمط التربية التى نشأ بها الشعراوى لم يوفرها لأبنائه، فقد ترك للزوجة (المرأة) تلك المهمة، وهو شيء يثير التساؤل مرة أخرى، فرغم الاختلاف بين

الشعراوى الأب والشعراوى الابن فى ارتباط الأبناء به، لكن المرأة كانت تقوم بنفس الوظيفة وهى البيت، وعليه فالشعراوى حتى عندما أنهى تعليمه الأزهرى وعُين مدرساً فى المعهد الدينى، لم يكن قد قابل بعد امرأة تعمل وتثبت له أن رأيه ليس من المفروض أن يكون على إطلاقه، وهو حتى فترة قريبة جداً مازال يرسم للمرأة عملاً معيناً، فقد قال رداً على سؤال حول دور المرأة فى نظره.. فقال الشيخ:

«أن تؤدى مهمتها التى خُلقت لها، أى تلتزم منزلها إذا أنت توليت قطاع أسرتك كما ينبغى دينياً والأخريات من النساء اجتمعت اللبنات على اجتماع سليم، عمل المرأة فى بيتها أما المدرسة فعملها تربية نوعية».

إذن الموقف عند الرجل مازال كما هو دون تغيير خاصة إذا عرفنا أن هذه الفتوى صدرت عنه فى عام ١٩٩٢، أى بعد هذا الضجيج الدائم والمستمر الذى لم ينقطع حول مكانة المرأة وعمل المرأة وخروجها أم بقائها فى منزلها..

نخرج من ذلك بشيئين:

الأول: أن الشعراوى لم يكن مرتبطاً بأبنائه فى هذه المرحلة ارتباطاً كبيراً.

والثانى: هو تأثير حياة الشعراوى الشخصية فى آرائه حول موقع ومكانة المرأة.

لكن هل ظلت العلاقة فاترة هكذا بين الشعراوى وأبنائه؟

حتى نتعرف على ذلك يجب أن نتعرض لمرحلة أخرى.. فقد أثيرت فى المرحلة الأخيرة حول الشيخ الشعراوى العديد من الشائعات مثل مشاركته فى أعمال تجارية مثل الشركات والمطاعم وغيرها، كما أن هناك أحد أبنائه يشارك فى ملكية مدينة ملاهى.

مع أن الأمور عادية، فكون الشعراوى يشارك فى محلات تجارية أو شركات أو مصانع، فذلك لايشغل أحداً أو من المفروض ألا يشغل أحداً لأن الشعراوى فى المقام

الأول ليس حاكماً حتى نحاسبه على استخدام نقوده. . بل هو هنا رجل معه مال ويريد أن يستثمره، وإن كان الشعراوى قد نفى ذلك بشكل كبير وكأنها جريمة، وينفى حتى أنه يأكل من أحد محلات الكباب، فالشيخ يقول:

«والناس كانوا يظنون أنى صديق أبو شقرة ودائماً أجلس عنده وأنا أدخل عنده آخذ عمودى به الطعمية والفول النابت وما إلى ذلك وأنا مظلوم، فالناس تظن أنى آكل عند أبو شقرة ويعتقدون أيضاً أنى آكل مجاناً».

ومنطق الشيخ فى هذا الكلام منطق طفولى لايليق به، فليأكل مكان مايشاء. . ولا أفهم كيف يذهب إلى أى مطعم ومعه طعامه، فهذا لانجده أبداً وحتى إذا وجدناه فلا يكون إلا من صاحب المحل أو شريك فيه على الأقل. . إذن ليس ضرورة أن ينحدر الشيخ بنفسه فى أمور تؤخذ عليه.

أما الشيء الغريب والذى نأخذه على الشيخ فهو قوله عن ابنه الذى أُشيع أنه مشارك فى ملكية مدينة ملاه، حيث قال الشعراوى:

«على فرض أن ابنى عامل مدينة ملاهى.. أنا ذنبى إيه؟».

من وجهة نظرى ليس للشيخ ذنب والذين دخلوا للرجل من هذه النقطة ليس لهم هم إلا الهجوم، وأغلب الظن أنهم ما قالوا ذلك إلا من جانب الغمز واللمز. . فالشعراوى رجل يقوم بالدعوة إلى الدين وليس نبياً، والعجيب أن الأنبياء ذاتهم كانوا يعانون من العصيان من أبنائهم، والمثال فى نوح ـ عليه السلام ـ عندما طلب من ابنه أن يركب معه السفينة حتى لايهلك مع الهالكين، فهو وإن كان كافراً فإنه ابنه ولم يصمت نوح ويتراجع عن دعوة ابنه للركوب معهم فى السفينة إلا بعد أن حاجه ربه أنه ليس من أهله فهو عمل غير صالح. .

إذن كون الشعراوى لديه ولد ـ وهذا الكلام على سبيل الفرض ـ غير صالح، فهذا ليس مأخذاً على الشيخ، لكن كلمة الشيخ تثير هنا عدة نقاط هامة. .

أولها: هو المنطق الذى يتحدث به الشيخ، فالرجل يقول «على فرض»، ومعنى ذلك أنه ليس هناك بالفعل أحد من أبنائه يملك مدينة ملاه، وعليه فالشيخ من المفروض ألا يواصل كلامه عن هذا الموضوع، فمادام أنه ليس هناك شيء يؤاخذ عليه فلا داعى إذن أن يرد.

ثانيها: وهو الأهم.. أن الشيخ عندما رد على هذه الشائعات أوقع نفسه فى خطأ وهو قوله كله «على فرض أن ابنى عامل مدينة ملاهى.. أنا ذنبى إيه؟». الشيخ الشعراوى ودائماً هو كذلك نجده ينسى، وأقول ينسى أنه أصبح ذا شأن فى المجتمع ومكانته تلك استمدها فقط من مركزه ومكانته الدينية عند الناس، ويترتب على ذلك أن ذنبه يكون أنه شيخ الدين الذى يقتنعون بآرائه، فكيف يكون له ولد يملك مكاناً يظن الناس أنه يقدم شيئاً حراماً..

فلابد أن الشيخ يعلم ماكان يقوله عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لأبنائه أنهم إذا أخطأوا فسوف يكون عقابهم ضعف عقاب الناس فهم له أقرب ولابد أن يعينوه.

إذن نفى الشيخ ارتباطه بعمل ابنه خطأ.. لأن واجب الشيخ أن يسأل ويستفسر، فعمل مثل هذا من الممكن أن يسيء إلى موقف الشيخ كداعية، ولايجب على الشعراوى مثلاً أن يقول أن الناس سوف تقول «يخلق من ضهر العالم فاسد»، فهذا فقط كلام، لأن الثابت والذى سيقال هو انظروا لابن الشعراوى ماذا يفعل.. ولو كانت هناك دلالة يمكن أن نضع أيدينا عليها فلن تكون سوى أن الشعراوى مازالت علاقته بأبنائه غير وثيقة لدرجة أن يصرح أنه لاذنب له إذا عمل أحد أبنائه بعمل مخالف، وقد يظن البعض أنه أجاب هنا بكلمات عالم الدين، لكن عندى وهذا يقينى أنه كان يجيب بكلمات الأب.. لا بكلمات عالِم الدين..

ماذا لو انتقلنا إلى مرحلة أخرى لنجد تصريحاً عجيباً من تصريحات الشيخ عندما سُئل: هل هو طباخ ماهر؟! قال:

«نعم، ولكن ليس ماهراً ولكن طباخ معقول، ولكن لا أفسد على

أولادى حياتهم وأحضرهم وضيوفى كثيرون ولدىّ حراس كل وقت، فأولادى يصابون بالملل، فلماذا لا أستلذ بعمل الأكل لهم وأقدمه لهم، هذه أيضاً إن رأونى متميزاً عليهم فى شىء فيرون هذا التميز فى خدمتهم هم فهذا يجعلهم يخجلون أن يحقدوا علىّ».

ياقوة الله يامولانا!! . . ما الذى قادك إلى تلك الفكرة؟ وكيف سمحت لمثل هذه الفكرة أن تقفز إلى رأسك؟ أولادك يحقدون عليك ـ بنص كلامك ـ !! كيف يمكن أن العلاقة بين رجل وبين أبنائه حتى يقول لأى سبب من الأسباب أنه يفعل لهم كذا حتى لايحقدوا عليه؟! . . فقد تقول أنها النفس الإنسانية، لكن تلك نقيصة شخصية تلحق بثوب الشيخ أن يردد مثل هذه الكلمة عن أولاده، قد تكون وراء الكلمة مواقف معينة حدثت بين الشيخ وأبنائه جعلته يقول ذلك، لكن ليس من حق الشيخ إطلاقاً أن يصرح بذلك فهو قبل أن يجرح مشاعر أبنائه فإنه يجرح مشاعر جمهوره!! . .

هذه بعض أركان «بيت الشيخ»، لكن قبل أن نتركه، يحلو لنا أن نبقى مع الشيخ حتى نرى موقع الشباب فى المرآة التى يطول نظر الشيخ فيها. . إذن مع . .

الشباب فى مرآة الشيخ..

يتفق الجميع ولا يختلف أحد أن الشباب هم الأساس.. أساس البناء والتقدم والتطور والبقاء.

الدعوة الإسلامية ذاتها بدأت على أكتاف الشباب فقط، وإن لفت انتباهنا أنها بدأت بدخول امرأة وهى خديجة ـ رضى الله عنها ـ وصبى هو على ـ كرم الله وجهه ـ ورجل هو أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ، فالدعوة ضمت فى البداية جميع الفئات.. لكن نقطة البداية الحقيقية هى مع الشباب الذى تحملوا الإيذاء وجاهدوا فى سبيل الله وقدموا أنفسهم فداء لأوطانهم وعقيدتهم.. ولذا يجب أن يحتل الشباب بؤرة الاهتمام عند كل المفكرين والدعاة والفلاسفة.

صحيح أن الشعراوى تحدث عن الشباب كثيراً.. حيث إنه فى برامجه ولقاءاته وحواراته الصحفية يُسأل دائماً عن الشباب ويتحدث الرجل ويستفيض بطريقته التى عادة تعطى كلمات غير محددة، فهى كلمات لاتنطبق بنسبة مائة فى المائة على السؤال الذى يوجه إليه، وهو عيب من أكبر عيوب الشيخ، أو لنقل من باب الإنصاف، هو عيب من عيوب الذين يكتبون للشيخ.

وهناك نقطة هامة للغاية فى حياة الشيخ يجب أن نلتفت إليها.. فالشيخ تزوج زواجاً مبكراً، وهذا الزواج فوّت على الشيخ أن يعيش فترة المراهقة التى تعتصر الشباب، فهذه الفترة التى تترك أثراً كبيراً فى حياة أى شاب لم تترك أدنى علامة فى

حيـاة الشيخ، لذا فـإن حديث الشيخ عن الـشباب يكون خـالياً من هذا الخط، فـهو يتحدث عنهم بمعزل عن هذا التأثير.

وإن كنا نلتمس له العذر، فإن ذلك ليس مـبرراً للشيخ حتى لايدرس ويعرف أن الشباب الذين يتحدث عنهم يعانون، فالواقع الذى يعيشه هؤلاء الشباب واقع محبط، فهم شباب بلا أمل.. فهم بلا عمل ولا زواج، وهما عنصران هامان للغاية، فالعمل والزواج يساعدان على استقرار حياة الشاب، ومـادامت حياته استقرت فمن السهل أن نطلب منه أن يحب الوطن وأن يعـمل من أجل الوطن، لكن الشـباب الذى لايعـمل ولاتتيسر له سبل الزواج نجده:

* شباباً منصرفاً تمام الانصراف عن همـوم الوطن ولا نتعجب عندما نجد أن شاباً يصرح أنه لايحب وطنه، ومع أن ذلك خطر لكنه واقع موجـود ولابد أن نتعامل معه ولا نضع رءوسنا فى الرمال.

* شباباً حالماً لا من أجـل مستقبل مشرق، ولكن من أجل التـغلب على حاضر عقيم لايعطى بـل يأخذ ويقتل ويشرد ويمزق أحـلام الشباب، والعجب أن المسئولية كلها تلقى عليه.

* شباباً منـحرفاً لايهتم إلا بإشبـاع الغرائز والسير وراء الشـهوات، والدليل هو أفلام البـورنو التى تنتشر بطول مـصر وعرضـها ويتعـاطاها الشباب ويعـقدون لذلك الاجتـماعات، ذلك فـوق العادة السرية التى أصـبحت من الروتين اليومى لحـياة أى شاب.

* شباباً تائهـاً هائماً على وجهه لايعرف الطريق الصـحيح ولا السليم حتى يضع أقدامه عليه.

فى ظل هذا المناخ العـقيم الذى يعـيش فيـه الشبـاب نجد انصـرافاً من العلـماء والمفكرين عن هذه الدقائق من حيـاة الشباب، ويتحدثون عن التزامـه وأخلاقه وإيمانه وتقواه، هذا كلام جيد للغاية ومقـبول إلى أبعد الحدود لكنه حديث لايجدى فى ظل

مناخ يساعد على الانحـراف أكثر من الالتزام حتى أن الشباب الـذين يمارسون العادة السرية يحتجون على الديـن الذى ينهى عن هذه الممارسة ويصل فى النهاية مع تدرج الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مـن لم يستطع الزواج فـعليه بالصـوم ومن لم يستطع الصوم عليه بالصبر. . يقول الشباب لكننا لانستطيع أن نصبـر، فماذا نفعل؟ وهنا تحدث المواجهة بين الواقع الذى نعيشه وبين الدين. .

علماء الدين ومنهم الشـعراوى بالطبع ينصرفون عن هذه المواجـهة ويأخذون فى اتهام الشـباب بالضعف. . الشبـاب يعترف بأنه ضعـيف ويحتاج لعلاج. . الـشباب لايسأل العلمـاء هل نحن ضعفاء أم أقوياء؟! حـتى يقول العلماء أنكم ضـعفاء، لكن الشبـاب يسأل: مـاهو علاج هذا الضعف؟. . ويـبرز السؤال من الشـباب وتخـتفى الإجابة من الجميع، لذا فإن الشعراوى فى كل أحاديثه عن الشباب تجده يتحدث بكلام قاصر للغاية لايشفى مرضاً ولا يعالج سقماً ولا يضع نقاطاً فوق الحروف. .

فعنـدما سئُل الشـعراوى: لعل الشـباب هم أكـثر الناس فى مـجتمـعنا معـاناة بالمشاكل. . ماذا تقول لهم فضيلتك الآن؟

قال الشيخ:

«تعالى، كلمة شباب، الناس ماخدتهاش بمعناها الحقيقى ليه؟.. لأن الشباب طور قوة، وطور الفتوة يستغل ولايعلموش دلوقت ماتضيعش فترة التعليم وتيجى لما بقت له ذاتية وبقى فتوة وتيجى تقوله تعالى ولذلك قال: ﴿إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ بقت له ذاتية وقادر على إنجاب مثله، خلاص إحنا آفتنا فى الدول المتخلفة أنهم أطالوا طفولة الأبناء ودخلوا مرحلة الشباب فى مرحلة الطفولة وخلاه يبقى خمسة وعشرين ولسه بيمد إيده لأبوه ولأخوه تقول له لا مادام بلغ وأصبح قادراً على إنجاب مثله اجعل حبله على ظهره عايز يتعلم يطفح الدم ويتعلم مثلما يفعلون هناك، الغربيين تقدموا بهذا لأن فتوة الشباب استغلت لكنهم أخطأوا

فى شىء آخر وهو أنهم عمموا الحكم على الفتى والفتاة، الإسلام عندى مش كده على الفتى تقول خلاص انت، إنما الفتاة تظل فى حضانتها إلى أن يوجد لها حاضن من حجر، فاحنا اللى أطلنا فترة الشباب، فالشباب ده ماتقوليش أربيه ولذلك تقول تربية الشباب مش حتقول غلط التسمية غلط الشباب ولايرى إنما الشباب طاقة تستغل، ماتسيبوش فى المرحلة التى يربى فيها وبعدين تيجى تقول أربيه الآن إلا إذا الشباب ساب غروره وقال ياناس أنا ماتربيتش أنا أهل أنا أريد أن أربى، تقوم أدام جيت وقعد كده بالمرض حد الروشتة ماترحش ساعة ماتقولك الدواء ده إنما يعمل خده كده تقول له ماتنفعناش ولذلك فالشباب اللى يبقى بالشكل ده أنا أستعوض ربنا فيهم والموت يخلصنى منهم وألتفت أنا لتربية اللى ييجى بعده، انشغلت بالشباب مش حاقدر أربى وأفوت تربية الأطفال».

وحقيقة لا أجد كلاماً يصلح كتعليق على كلام الشيخ.

يامولانا كان من المفروض أن تتحدث بمنطق رجل الدين.. الدين يامولانا الذى يرسم الطريق الذى يجب أن يتبعه الناس.. الدين يامولانا الذى يجب أن يقود الناس إلى حيث السعادة.. هذا هو المفروض.. لكن كلامك هذا يدلنا على خبرة حياتية مهزوزة.. يدلنا على فترة شباب لاتتماثل إطلاقاً مع الشباب الذى يعانى اليوم.

فالشباب يامولانا لم يصل إلى درجة الحمير حتى تعبر عنهم وتقول «مادام بلغ وأصبح قادراً على إنجاب مثله اجعل حبله على ظهره»، لا أظنك نسيت أن أباك هو الذى زوجك وظل ينفق عليك حتى أصبحت مدرساً فى عام ٤٣، أى بعد مضى اثنين وثلاثين عاماً من حياتك، بل ساعدك الرجل فى بناء البيت الذى أقمته فى دقادوس حيث لم تكف نقودك التى عدت بها من السعودية.

الشباب الآن ليس أحسن حالاً منك يومها حتى تقول عنه ذلك، كذلك يامولانا هل تظن أن منطقك صحيح أو سليم عندما قلت: «فالشباب اللى يبقى بالشكل ده أنا

أستعوض ربنا فيهم والموت يخلصنى منهم»، كيف لك ياعالم الدين تقول أو تفتى بذلك؟! أبلغ رد عليك هو ألا نرد عليك..

ولو سيطر أمثال الشيخ على أمر الدعوة إلى مالا نهاية لانهار الدين، والمثال الأكبر من حياة سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أظنك يامولانا تذكر ويذكر جمهورك تلك القصة التى تستشهد بها كثيراً وهى قصة الشاب الذى ذهب حتى يستأذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الزنا.. أنت تستشهد بالقصة على حكمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى معالجة الأمور ومدى عبقريته فى إرساء قواعد دعوته حيث إنه لم يعنف الشاب بل قال له: «أترضاه لأمك أو لأختك أو لزوجتك أو لابنتك؟» فلما قال: لا.. قال له: «كذلك الناس يا أخا العرب لايرضونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم».

نحن نحتج عليك بهذا الموقف أيضاً يامولانا حيث إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان من المفروض أن يقتل هذا الشاب الذى وصلت جرأته إلى أن يطلب إباحة حد من حدود الله، لكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى من المفروض أن يكون قدوة لك لم تتبعه فى ذلك، وبمنتهى السلبية تحدثت وتتحدث عن الشباب.

فعندما سُئل الشيخ مرة أخرى: **هل شرع الإسلام مايضمن أجيالاً قوية لمجتمع الإسلام؟ وماهى هذه التشريعات؟**

قال الشيخ:

«أرشدتنا السُنّة النبوية إلى أن نتجنب القريبات حين نريد الزواج لأن القريبات حين يتزوج منهن الإنسان يؤول أمر النسل إلى ضعف، أما إذا اغترب فإنه يؤول أمرالنسل إلى قوة ولذلك يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اغتربوا لاتضووا»، أى لاتضعفوا، وفى العلم التجريبى الحديث أجريت التجارب فى عالم النبات على أن يكون النوعان بعيدين وحصلت نتيجة سارة أتت من الذرة فى أمريكا

أضعاف ماكانت تؤتيه قبل تفرق الذكورة والأنوثة، والتجربة التى أجريت يسمونها تربية التهجين أى كلما ابتعد الجنسان الذكورة والأنوثة كانت الحصيلة أقوى، من هنا نلمح أن القرآن حين حرم زواج الأمهات والبنات والأخوات وغيرهن إنما حرص على أن يوجد النسل القوى وإذا ما ابتعد الإنسان بهذه القرابة كان معناه إيجاد نسل قوى، ومن هنا شاع على ألسنة الشعراء:

أنصح من كان يعيد الهم تزويج أولاد بنات العم

وقولهم فى وصف الشجعان:

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى وقد يضوى سليل الأقارب».

والشيخ هنا لم يتحدث عن شيء مفيد إطلاقاً، فلو كانت الأجيال القوية نحصل عليها من الزواج من الأغراب لكان الأمر هيناً يامولانا، لكن أظن أن سؤالاً مثل هذا كان يحتاج منك يامولانا أن تتحدث عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه المجتمع حتى ينتج أجيالاً قوية تعمل على النهوض والتقدم والرقى.. وليس زواج الأقارب أو الأغراب فقط هو الذى يمثل ذروة المشكلة.

بل إننا نجد عجباً، ففى «كتاب الجمهورية» الذى صدر عام ٩٢ وكان عنوانه «الشيخ الشعراوى بين السائل والمجيب»، صفحة ١٤٢، به سؤال موجه، وأقول موجه وأعنى ما أقول، فالمسألة تمت هكذا:

السؤال: بعض الشباب ينخرط فى أمور السياسة، فكيف نهديه إلى صوابه؟

الجواب.. قال الشيخ:

«الشاب الذى لانزال نعطيه الجرعة التى بها سيكون مؤهلاً وعالماً نقول له انجح فى مهمتك وجرب أفكارك فى سياسة نفسك، فإن نجحت فى ذلك ستكون مأموناً على أن تجرب ذلك فى سياسة الدولة، وهذا سبب نجاح النظم فى الدول الغربية».

والسؤال خطأ شكلاً ومضموناً، فقد تعلمنا أنه كي ينجح أى حوار مع أى شخصية يجب أن يبتعد المحاور عن الأسئلة الإيحائية وهى تلك الأسئلة التى توحى للمتحدث بالإجابة، فكأن السائل يريد إجابة يعلمها مسبقاً ولايجب على الشيخ أن يقولها، والشيخ أخطأ بالطبع وإن كانت إجابته مطلوبة، فلا يجب أن يجيب إلا بما هو صحيح وحق.. حيث إنه ماهو الخطأ فى أن يمارس الشباب السياسة؟ فالشيخ يقول عن أيامه فى الأزهر وأيام نضاله كما يقول:

«العودة إلى تلك الأيام البعيدة هى عودة إلى أيامنا الجميلة، أيام الشباب والنضال والجهاد، أيام الثورات والانتفاضات من أجل الأزهر الشريف ومن أجل الوطن ومن أجل رسالة الإسلام والنهوض بعد طول رقاد، ولا ننسى أن البلاد وقتها كانت تحت الاحتلال البريطانى».

فالشيخ عمل فى السياسة وخرج فى المظاهرات وألقى القبض عليه، لماذا إذن ينكر على الشباب عملهم فى السياسة؟ قد يقول الشيخ أن ذلك كان أيام الاحتلال، فالبلد كانت محتلة ولابد أن تبذل جهود الجميع وأولهم الشباب.. وأقول للشيخ كلامك صحيح للغاية فالبلد لم تعد محتلة ولكن البلد تفتقد مشروعاً قومياً يسعى لتحقيقه الجميع ولابد أن يتدخل الجميع وأولهم الشباب حتى يتحقق مثل هذا المشروع.

ومن ناحية فإثارة مسألة اهتمام الشباب وعملهم بالسياسة مسألة سياسية بحتة يسعى خلف إثارتها البعض ولايجب أن يخوض فيها الشيخ..

ومن ناحية ثانية.. نطالب الشيخ أن يمثل أمامنا إذن هذا الإعجاب الشديد بالغرب يامولانا.. فمرة تقول أن الغرب يتعامل مع الشباب بطريقة صحيحة مع التحفظ على وضع الفتاة فيه، ثم تقول أيضاً أن سبب تقدم الغرب أن الشباب لايعمل فيه بالسياسة.. عهدنا بك أنك تهاجم الغرب دائماً.. ولاتعجب بأنظمته ولا بعلومه، ولنا معك فى ذلك موقف آخر، ولكن الآن أتساءل فقط ولا أريد إجابة: ماهو سر هذا الإعجاب الشديد بالغرب من جانب الشيخ؟

وإتماماً لما بدأنا ماذا لو سجلنا هنا حواراً مع الشيخ فى مجلة «شباب الجامعة» التى تصدرها الإدارة العامة لرعاية الشباب بالجامعة.. والمسئول عنها إدارة النشاط الثقافى والفنى.. ففى العدد ٧ الذى صدر فى ١٠ ديسمبر ١٩٩٤م جاء الحوار التالى:

«قلنا لفضيلة الشيخ الشعراوى: كيف ترون شباب اليوم؟

ـ شباب اليوم لايعجبنى لأنه رُبى تربية خطأ منذ البداية، ثم يقولون نريد أن نربى الشباب. منذ عدة سنوات دعانى د. صوفى أبو طالب ـ رئيس جامعة القاهرة الأسبق ـ للتحدث فى موضوع تربية الشباب فاعترضت على عنوان الندوة وقلت أن هذا تعبير خاطىء لأن الشاب لايُربى، الشباب طاقة وقوة لأن التربية طور تعداه الشباب، والشباب قوة يجب أن توجه إلى غاية، وعندما نربى الشباب فى هذه الفترة نراه ينتج لأنه أصبحت له ذاتية ومادام أصبحت له ذاتية لاتنفع معه التربية إلا إذا رفع يديه وقال أنا رُبيت خطأ فاستأنفوا تربيتى، ونقول له وأنت إذن تستأنف طفولتك، بمعنى أن نأخذ بيدك ولا تنتج، وإذا لم يع الشباب هذه الكلمة فليعوض الله علينا فى رجولته».

نتوقف هنا قليلاً، فالشيخ يبدأ حديثه بكلمة مخجلة بعض الشىء ويصدره بحكم مؤسف «شباب اليوم لايعجبنى».. على إطلاقه يامولانا؟! هذا سؤال ولكنه يصبح لامحل له من الإعراب عندما يقول الشيخ: «لأنه رُبى تربية خطأ».. الخطأ ليس من الشباب إذن يامولانا، فالذنب على من رباه ومادامت المشكلة بصورتها تلك فالمفروض أن يكون الكلام من أخذ بيد الشباب وليس إعادة لمنطق ـ عفواً ـ إن قلت فوضوياً فى معالجة الأمور حيث إن الشيخ على الرغم من أنه وضع يده على العلة لكنه لم يستطع أن يصف العلاج لهذه العلة، وانصرف مرة أخرى عن أن الشباب قوة ولايُربى وعما يسميه الشباب بتتنيح الشباب لأنه أصبحت له ذاتية.. وعلى الشباب إذا أراد أن تستأنف تربيته أن يستأنف طفولته.. ونحمد الله هنا أنه لم يطلب الموت للشباب هذه المرة.. الأفضل حقاً هو ألا يُسأل الشيخ عن الشباب إطلاقاً..

لكن ليس أمامنا إلا أن نستأنف الحوار . . وكان السؤال جيداً بالفعل:

«.. قل لنا من المسئول إذن عن هذه التربية؟!

ـ المسئول أولاً من يحتضن الشباب منذ النشأة الأولى قبل أن تعرف الدولة الشباب والأسرة ذاتها فى حاجة إلى من يربيها وهى فى نفس الوقت كبرت على التربية، المسألة متعبة والإنقاذ فى أن يفيق الشباب إلى الحق ويعترف أن تربيته كانت خاطئة ويعترف بأنه يحتاج أن يُربى من جديد..» .

أدعو الشيخ أن يقرأ إجابته بنفسه مرة أخرى، وإذا اقتنع بها سأقتنع أنا بها فى الحال . .

فمادمت يامولانا تقول أن الشباب رُبى تربية خطأ إذن مصدر الخطأ خارجى، وهذا يجعل وعى الشباب بوجه الخطأ فى تربيته مجهولاً، والعجيب أنك تطلب من الشباب أن يفيق ويعترف أن تربيته خاطئة، فكيف تطلب منهم أن يعترفوا وهم لم يجرموا ولكن أجرم المجتمع وأجرمت الأسرة التى تقول أنت فى أسلوب خطابى أن الأسرة أيضاً فى حاجة إلى من يربيها . . أليس هناك أحد فى رأى الشيخ اكتملت تربيته؟ من ظاهر كلام الشيخ يبدو أنه ليس هناك أحد قد تربى.

ويسير الحوار ليعترض الشيخ فيقال له أن الشباب بخير والحمد لله . .

فيقول الشيخ:

«إن الشباب بخير إذا رُزق بيئة صالحة طيبة احتضنته وأعطته «حقنة وقاية» ، ولذلك نجد الشباب فى هذه الأسرة شباباً نقياً فاهم واجبه ويعمل فى الإجازة الصيفية من أجل توفير نفقاته طوال الإجازة ويتبقى جزء لمصاريف الدراسة، إن هذا يعوض خسارتنا، لكن نحن للأسف لدينا شباب يعيش مرحلة الطفولة دائماً حتى ٢٥ و٣٠ سنة، فهو مازال طفلاً، والده مسئول عنه وعن ملابسه ويرتدى الملابس التى لم

يلبسها والده طوال حياته ويأكل أفضل من والده ويتمنى هذا الشاب أن يبدأ حياته أفضل مما كانت بداية حياة والده، وهى تربية خاطئة لأن الأصل حين يبلغ الشاب سن الرشد أن يعتمد على نفسه بل يصبح هو المسئول عن والده، وبالنسبة للبنت تبقى بجوار والدها إلى أن يرزقها الله بابن الحلال، لقد تقدمت أوروبا عندما استغلت طاقة الشباب، فحينما يبلغ سن الرشد يصبح مسئولاً عن أمور نفسه حتى لو كان الآباء من الأغنياء، تراهم يعملون فى كافة المجالات، والخطأ إذن لدينا أنهم عمموا الحكم على الفتى والفتاة وماخسروه فى الشباب يريدون كسبه فى الفتاة».

المسألة وصلت عند الشيخ إلى درجة لايمكن تحملها.. هذا بالفعل، فالرجل من ناحية يتحدث وكأنه يكتب موضوع إنشاء.. ناحية نظرية بحتة مفرغة من أى علاقة بالواقع.. قد يكون الشيخ بالفعل لايعرف ما جد على المجتمع من ظروف وضيق وعدم وجود عمل من الأساس أو أن الشيخ يعرف لكنه يتنكر لوجود ذلك.. ويظل الشيخ يهاجم الشباب ويترحم على حالهم ويظهر إعجابه الشديد بأوروبا ونظام أوروبا وسر تقدم أوروبا الذى يكمن فى إعطاء الشباب حدود المسئولية حتى ينفقوا على أنفسهم حتى لو كان آباؤهم أغنياء، ولو اتفقنا مع الشيخ أن نجلب هذا النموذج الغربى.. الشيخ سيقبل هذا نتيجة لرأيه.. لكن هل نجلب هذا النمط فقط أم نجلب كل أنماط الغرب الحياتية؟.. الحوار مازال موصولاً..

«... هل الحكومة عليها مسئولية؟

الشيخ: إن الحكومة ليس عليها مسئولية، متى تتولى الحكومة شأن الطفل؟ وعمره ٦ سنوات، الطفل يتربى عندما توجد لديه حواس وجوارح، يرى فيتعلم بالمشاهدة ويسمع ويتربى بالسمع، يجلس أمام والديه كأنه آلة تصوير تلتقط كل الحركات وتكون النفس كل الملكات، فعندما يرى الأسرة منسجمة ومتماسكة وعندما يرى والده

يعود من عمله مهتماً بأولاده ينشأ هادىء الطبع ومتميز الملكات ولكن قد يرى الفرد والده إما أن يكون نائماً أو خارج المنزل...».

مجرد تعليق: أين إجابة السؤال يامولانا؟!

نعود إلى الحوار مرة أخرى:

«... الشباب يعانى من مشكلة البطالة ترى ماهو تصوركم للقضاء على هذه المشكلة؟!...».

السؤال يجعلنا مجهزين نفسياً لتلقى حلول لمشكلة البطالة، فهيا نسمع:

«... قال الشيخ: هناك بطالة لدى الشباب لأن الشباب يريد عملاً من نوع خاص وهذه مسألة مرفوضة، عندما سُئلت فى هذا الشأن قلت المفروض أن يعمل الشاب فى أى عمل مادام شريفاً، إنه إذا وقف فى إشارة مرور أو موقف سيارات ومعه فوطة وقام بمسح السيارات فإنه يعيش، وكذلك إذا باع مناديل أو ورداً ليس هناك عمل أفضل من عمل، ولكن هناك عاملاً أفضل من عامل، أذكر أنه فى فرنسا بلد الحريات كانت هناك مناقشات صريحة فى مجلس النواب، وكان هناك نقيب عمال أصبح وزيراً للعمل، ومن المعروف أن النقيب يسرف فى الطلبات لعماله وهو ماكان يفعله النقيب قبل أن يصبح وزيراً ولكن الوزير تحكمه أرقام، دائماً يتقيد بها فلما جاء النقيب الجديد قال للوزير نحن نطلب منك أن تنفذ الذى كنت تطلبه وأنت نقيب، فقال له الذى كنت أطلبه كنت أطلبه بحرية المحتاج ولكن الآن أتصرف بقيود الميزانية، فثار نقيب العمال على الوزير وقال له يامعالى الوزير أذكر أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية، فضحك الوزير وقال له نعم نعم ولكنى كنت أجيدها.. إننى قلت ذات يوم لو أن الوزراء جلسوا فى بيوتهم أسبوعاً فليس هناك شىء

سوف يتغير، أما لو أن الكناسين لم يقوموا بأعمالهم لمدة أسبوع لصارت الشوارع كلها زبالة وقذارة، والشباب فى بداية عمله الوظيفى يطلب الجلوس على المكتب الأنيق ويكون نظيفاً فى مظهره وخلاص، الحياة ليست محتاجة إليه، ويتقنه الشخص ويخلص فيه...».

صرت تتكلم يامولانا حتى قلنا ليتك سكت.. فلمن يتحدث الشيخ هنا وعمن بالضبط؟!

أى شباب ذلك الذى يطالبه الشيخ أن يمسك بفوطة أو يبيع مناديل أو يبيع ورداً؟ هل هم الشباب الذين نسأله عن بطالتهم ورأيه فى حل هذه المشكلة؟ هل هذا هو الحل الذى تقدمه؟ لو كان هذا هو الحل فسحقاً له من حل.. ليس لأن هذه المهن وضيعة لاسمح الله.. ولكن..

لأن الشاب الجامعى - مثلاً - الذى ظل يتعلم ويحلم بمكانة اجتماعية عالية ومرموقة - يمكن أن نشطب كلمتى عالية ومرموقة ولكنه يحلم فقط بمكانة اجتماعية - لن يقبل أن يعمل مثل هذه الأعمال التى يطالبنا بها الشيخ.. فمن ناحية أن ذلك لايناسب طموحه ومن ناحية أخرى أن تعليمهم يصبح هدراً وعملاً لافائدة منه وضياعاً للمال العام فإطلاق الكلام بهذه الصورة سخف.

وحجر الزاوية فى ذلك هو نظرة المجتمع لمختلف الأعمال فنحن للأسف الشديد فى مجتمع لايحترم فيه البعض مواهب البعض، وعليه يصبح الشاب الجامعى مثلاً أو حتى صاحب التعليم المتوسط مثاراً للسخرية من الناس.. فالشباب الجامعى الآن الذى يعمل فى بيع الجرائد.. أصبح منظراً يثير الشفقة والعطف، فمع تسليمنا الشديد أن هذه الأعمال شريفة ويمكن أن يؤديها الشباب لكن ماهو العائد من وراء هذه الأعمال؟ وماهو الدخل الذى يمكن أن يجنيه الشباب؟.. فالعائد بسيط وبسيط للغاية لايساعد على الإطلاق فى إضافة لبنة واحدة فى بيت الشاب الذى لم يبدأ فى بنائه بعد.

صحيح أن الشيخ قال كلاماً طيباً عندما سُئل عن وسيلة إقناع الشباب بذلك فقال:

«كم جامعة فى مصر الآن؟ قلنا له ١٣ جامعة. قال: إنها أكثر من ٣٠ جامعة لأن كل جامعة لها فروع، والتخطيط خطأ لأننا نعد لغير مجال عمل، شباب بدون مجال عمل.. الأصل فى التخطيط ألا يكون الهرم مقلوباً لاتكون القمة تحت والقاعدة فوق، لقد مرت عشر سنوات حتى الآن وتخرج آلاف من الشباب بغير حاجة إليهم...».

لكن المنطق مازال مغلوطاً.. العتاب يوجه لمن هنا؟.. الشيخ لايفرق فى كلامه بين الشباب كضحية وبين الحكومة كمقصرة.. والقراءة الثانية لكلام الشيخ لن تدلنا على الإطلاق على أية طرق لإقناع الشباب بهذه الأعمال.. فالرجل يتحدث ويتحدث.. وعندما يُسأل يظل يتحدث ويتحدث.. وهكذا..

مر الحوار على مسألة الحجاب ورأى الشيخ فيها لكن هذا ليس محله..

ينتقل الشيخ لنقطة هامة، حيث كان السؤال:

ــ ماهو رأيكم فى غياب القدوة الصالحة فى المجتمع؟

وكلام الشيخ عن المجتمع كان كالآتى:

«لم يعد أى نوع من القدوة موجوداً فى المجتمع لأن الناس لاتبحث عن الكمال. المطلوب أن يجعل الشخص مبادئه قدوته ومادام هناك مبادئ للخير فالمنتظر أن تكون القدوة هى المبادئ ليس من الضرورى أن تكون القدوة ماثلة أمام الفرد، والقدوة نأخذها من البيت والبيت كما نعرف غرقان..».

نعم هو بالفعل غرقان ياشيخ، لكنه يزداد غرقاً بمثل هذا الكلام، فماذا يريد الشيخ؟ فلا شباب يعجبه ولا أسرة تعجبه ولا مجتمع بأسره يعجبه.. حتى لو كان الحال بمثل هذا السوء فمن هو المسئول؟! من هو الذى نتوجه إليه حتى يجيبنا عن أسباب الخلل فى هذا المجتمع؟ لن نسأل الشيخ.. لأننا تعودنا عند سؤاله ألا نخرج بشىء يفيد.

السؤال الأخير يقودنا إلى عدة حقائق نصل إليها فى فكر الشيخ. سُئل الشيخ:

ـ فضيلة الشيخ الشعراوى مارس السياسة عندما كان طالباً، وقد أدليت مؤخراً بتصريحات تطالب فيها الشباب بعدم الاشتغال بالسياسة.. والسؤال هو: لماذا؟

قال الشيخ ـ لافض فوه ـ:

«نعم هذا صحيح لقد طالبت الشباب بعدم الاشتغال بالسياسة رغم اشتغالى بها أيام كنت طالباً ولايعنى أنى تغيرت ولكن الظروف هى التى تغيرت، لقد كنا وقت اشتغالى وأنا طالب بالسياسة نعتبر أنفسنا وقوداً للسياسيين، لأن بلادنا كانت محتلة وهناك عدو غاصب يتربص بحريتنا ويهدم استقلالنا، ولكن الأمور استقرت وليس هناك عدو أو احتلال، والمصرى يحكم نفسه وهذا يعنى أن كل واحد يجب أن ينصرف إلى عمله وكل واحد يشوف شغله وهذه الأيام ممارسة الطالب للسياسة من حمق العصر، شباب أعرج فى تحصيل دروسه كيف يتحدث فى سياسة البلد ويقيمون لهم اتحادات طلابية ويدللونهم، أنا أدعمك من أجل النجاح ومطلع عين أهلك فى الدروس الخصوصية تقوم تشتغل فى سياسة الدولة، وإنى أتعجب من إتاحة الفرصة للطلاب مع رئيس الجامعة والأساتذة فى تنظيم مايسمى اتحاد الطلاب..».

وإنى أتوجه للشعراوى بعدة أسئلة:

ـ هل خلّف الشيخ وراءه بعد ممارسة السياسة كما يقول تاريخاً وطنياً حافلاً بالبطولات؟ لا أظن.

ـ هل الأوضاع فى بلدنا وفى الوطن العربى استقرت إلى الدرجة التى يطالب فيها الشيخ الطلبة أن ينصرفوا عن السياسة؟ لا أظن..

ـ وأخيراً.. هل الأسلوب والطريقة التى يتحدث بها الشيخ عن الشباب طريقة

مناسبة أم أنه يتجاوز حدوده في الحديث عن الشباب؟ فنحن نقبل منك الكلام فى كل شىء ياشيخ . . لكن يجب على الشيخ ألا يتعدى حدوده فى الحديث عن الشباب كأن يقول مثلاً: «شباب أعرج فى تحصيل دروسه كيف يتحدث فى سياسة البلد؟!» هل بنيت حكمك يامولانا على معلومات صحيحة أم أن الأمر إطلاق أحكام فقط؟!

انتهى الحوار ويجب أن نتوقف . . لكن توقفنا للحظات نذهب بعدها لفتوى أخرى وإجابة من الشيخ على سؤال آخر . . فنحن فى حاجة إلى معرفة رأى الشيخ فى الفتاة المسلمة، فقد كان حديثه السابق كله عن الشباب من الذكور . . لكن أين تقع الفتاة فى مرآته؟ صحيح أننا تعرضنا بشىء من الإيجاز لموقفه من المرأة . . لكن عندما سُئل الشيخ عن النصيحة التى يوجهها للفتاة المسلمة قال:

«خير نصيحة أوجهها للفتاة المسلمة هى وصايا أم إياس العشر لابنتها حيث قالت: أى بنية اعلمي لو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أهلها لكنت أغنى الناس،ولكن النساء للرجال خُلقن ولهن خُلق الرجال، فاحفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً، أما الأولى والثانية فالمعاشرة له بالرضا والقناعة وحسن السمع والطاعة وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع أنفه وموقع عينيه فلا تقع عيناه على قبيح ولا يشمن منك إلا أطيب ريح، وأما الخامسة والسادسة فالهدوء عند منامه والتفقد لوقت طعامه، فإن مرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ بماله والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة فإياك أن تعصى له أمراً أو تفشى له سراً فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وأعظك بعد ذلك من الفرح إن كان ترحاً أو من الترح إن كان فرحاً».

فنصيحة الشيخ تنصرف إلى الفتاة وهو يراها زوجة فقط . . فالمرأة عنده للبيت، وأتخيل أن رد الشيخ على سؤال حول نصيحة للفتاة كان من المفروض أن يتعلق

بجوانب كثيرة.. وكثـيرة جداً من حياتها، وليست فقط ترتبط بها كـزوجة أو حبيسة بيت.

الشبـاب إذن لايحتل مكانة مرمـوقة فى فكر الشيخ، فـالشباب لايعجـبه.. وإن كانت محاولات الشيخ لتقديم حلول لهـذه المشاكل كلها محاولات قاصرة، فلم تقدم شيئاً يقنع على الإطلاق.

أخطــاء الشــيخ..

فى حياة الشيخ موقف غريب للغاية يحكيه، يقول الشيخ:

«حدث أن كان لى ابنة عمة توفى أبوها وترك لها أخ وأخت وتربوا معنا لأنهم كانوا تقريباً فى سنى، فأنا دخلت فى يوم من رمضان وأنا جاى من الكُتَّاب، قمت شفت البنت الكبيرة من بنات عمى والكوب على فمها تشرب فى رمضان، فأنا أدباً منى ماخلتهاش تشوفنى، أنا شفتها وكرهى لها خلانى معدتش أكلمها، فبقت ظاهرة عجيبة أنى بقيت مابكلمش البنت دى، فأمى بتكلمنى فى مرة من المرات بتقولى مالك انت كنت الأول تقول لها هاتى يابدر هاتى يامش عارف إيه، إيه اللى جرالك؟ قالت لازم تقوللى. أنا خفت من معنى أمى تذهب إليه بنظرها، قمت قلت لها: أنا داخل عليها فى رمضان لقيتها بتشرب من الزير، فأمى ماتت من الضحك قالت: وإيه ياابنى فى ده، البنات لما بيكبروا بيبقى عندهم حاجة الصومماينفعش وياها، انت درست فى الفقه لحد فين، قلت لها مثلاً فى كذا، قالت بكرة حتعرفه فى الفقه».

وغرابة القصة أنه لما سُئل ذات مرة عن الخطأ الذى ارتكبه فى يوم من الأيام قال:

«هذا الموقف، ولم أخطىء بعدها أبداً سوى أنى كنت أقول انسرقت وأنا ماانسرقتش والكتب ضاعت وهى ماضاعتش.. وهكذا..».

وغرابة موقف الشيخ التى مازلت أصر عليها هى المنطق الذى رويت به القصة حيث إن الشعراوى يقول أن هذه الرواية حدثت أثناء حفظه للقرآن فى الكُتّاب فيقول: «وأنا جاى من الكُتّاب»، والصبى فى الكُتّاب لايدرس الفقه مطلقاً، ولذا فليس من المنطقى أن تسأله أمه عن دراسته للفقه.. وحتى لو كانت أمه لاتعرف ما إذا كان يدرس الصبى الفقه فى الكُتّاب أم لا.. فكان على الشيخ الصبى أن يقول لها أنه لايدرس الفقه فى الكُتّاب، وهذه النقطة تنسف هذه الرواية من أساسها.

وقد تكون الحادثة قد وقعت بالفعل لكن فى فترة متأخرة من حياة الشعراوى يكون فيها قد درس شيئاً من الفقه فتأخر الزمن يجعل هذه الرواية منطقية وليس هذا بحثاً عن مبرر لتناقض المنطق الذى يتحدث به الشعراوى..

فليس الغرض هنا أن نبحث عن أخطاء الرجل.. ونصفه بكل نقيصة، فقط نحن نبحث عن مناطق الزلل فى مقابل مناطق الصواب فى حياة رجل فى قامة الشعراوى لعل ذلك يقودنا إلى محاولة فهم فكر الرجل وفكر فتاواه.

الشعراوى شاعرا..

عندما سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الشعر . . قال: «هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح» . . الحكم واضح إذن . . ومايدعم هذا الرأى لرسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أنه كان هناك من يلقب بشاعر الرسول يدفع عنه أحياناً هجوم أهل قريش الذين نبغوا وبرعوا فى الشعر.

وقد يكون هناك الكثيرون الذين لايعرفون أن الشعراوى كان يكتب الشعر . . لكن الذى يثير الانتباه أنه حتى الذين يعرفون عن شاعرية الشعراوى لايذكرون له شيئاً من شعره . .

وخلاصة القول فى الشعراوى كشاعر أنه «شاعر مناسبات»، نعم فهذا تصنيف معترف به، فهناك بالفعل شاعر يقتصر شعره على المناسبات فقط والمناسبات هنا ليست قاصرة على أحداث فقط، ولكنها تتعلق بشخصيات أيضا . .

لكن قبل أن نتحدث عن الشعراوى كشاعر تعالوا نستعرض بعضاً من شعره . .

فقد كتب الشعراوى فى بداية حياته قصيدة زجلية لصابر ابن عمته الذى كان يصنع الطواقى وكان الشعراوى قد لبس «العِمّة»، قال الشيخ:

ياصابر يا ابن العَمة — تقدر تعمل لى عِمّة..!
أنا رحت الأزهر ياابنى — ولا عدش ده يناسبنى

طور إن كان ولابد طواقى ياقاعد رايق على السواقى
طـور ياابنـى فى الحرفـة واعمـل لى طاقيـة لخفـة

وكان الشعراوى يشارك دائماً فى الاحتفال بذكرى سعد زغلول، ومن أشعار الشعراوى فى هذه الاحتفالات ماقاله عام ١٩٣٤، وكان ذلك بعد إقالة النحاس:

ما منطقى لك والحقيقة تخجل قد جدت الدنيا وشعبك يهزل
فى كـل عـام تشتكى أوصابنا ونؤمـل الآتى فيقسـو المقبـل
مصر الأسيفة بح منها صوتها فضـراعة محمومـة وتوسـل
وارحمتاه على المستجير بجائـر والزافر الشـكوى لمن لايعدل
أو كلمـا وهـب الزمـان زعامة تعلـى وتكمـل مابنـاه الأول
نهـض العقـوق بكل نذل غادر دنـس وفى يده الأثيمة معول

ويحكى الشيخ أنه عندما ذهب كى يسلم نفسه بعد أن قبضوا على أبيه وأخيه أنه قال شعراً وهو فى القطار.. قال:

سر بى إلى السجن واذهب بى إلى الهون
فـإنى لمصـيرى غـيـر مـحـزون..
فـمـا اعـتـقلت لجرم نال من شـرفى
لكننى بالمعـالى جـد مـفـتـون
فى ثورة الحق والإجـمـاع زينهـا
وثورة الحق لاترضى بمغـبـون
يسـيـر مـثلى لبـيت جـاء سـاكنه
كـبـائر الإثم بالأوغـاد مـشـحـون
فـهل تسـوى بهم نفس لهـا أمل
شـتـان مـابين غـبـان ومـغـبـون

فـالصـبـر ياوالدى عـهـدى بكم رجل
له لدى الخطب رأس غـيـر مـأفـون
وطب شـقـيـقى فـؤاد كـفى شـرفـاً
إن كنت بالسجن لكنى غير مسجون

ويقول الشيخ أنه بعد عودة الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر وقف خطيباً وألقى قصيدة قال فيها:

الله أكبر هذا أجـر من صبروا وجاهدوا فى سبيل الحق فانتصروا
فاضـمن خلودك يامعمور إن له فتحـاً مبيناً بـه تقديسـك الظفر
ستصبح الأرض والإسلام قبلتها مساجد اللـه فيهـا يعبد البشـر
وارفع رؤوساً عنت وارفع كرامتنا يامستهن بك طاب الغرس والثمر
وما الرجـال سـوى تحقيق أمنيـة على أياديهمـو أولـى فهم صور
هل يحمد المـرء سـيفاً لايظفـره أو يحمد الناس سحباً مابها مطر
إنّـا لننتظـر الدنيـا موحـدة دنيـا إذا أمـر الإسـلام تأتمـر

وفى الذكرى العاشرة لموت سعد زغلول قال قصيدة أخرى جاء فيها:

عُشـر قـرن يمـر يازغلـول والمصـاب الجليل فيك جليل
ماسـلونا مـع أن مـر الليالى يسـتر الخطب أشهراً فيزول
غير أن المصاب فى فقد سعد أن يطـل عمره طويل طويل

ويقول الشيخ عن بيت الأمـة «بيت سعد زغلول» أنه كان رمـزاً للوطنية وأنه كان حريصاً على أن يحضر الاجتماعات الهامة التى تعقد فيه وأول اجتماع يحضره قال:

لازال روضـك مورقـاً يادار عـرش الزعامـة فيـك لاينهـار
أمل الكنانة أنت مبعث نوره وبـك الرجـاء إذا قسى المقدار

المجد فيك عتيقه وحديثه عبق به تتحدث الآثار
فعتيقه مجد لسعد الخالد وبمصطفى هذا الحديث فخار
يادار قد أديت رسالة نحو القضية كلها إكبار
الوفد ربى فوق حجرك لذا فكل جنوده أبرار

كان الشعراوى من عشاق النحاس، لذا تصدى للخارجين عليه بالهجوم ووظفه النحاس فى قذفهم، فقال مثلاً عن مكرم عبيد الذى خرج على الوفد وأصدر الكتاب الأسود ليظهر فيه مساوىء النحاس وحكمه بما كان يشكل إساءة لشخص النحاس ذاته.. قال الشعراوى:

عيد الجهاد وأنت عنوان الدم مازال مرك كل عام ملهمى
إن هجت من هول الضحايا أمة أسبلت من برد الخلود على الدم
إن المنية حين سوتنا بها ملأ العقول نجامل لم يعلم
فالله أعطى العبقرية حقها عمراً إذا الدنيا قضت لم يهرم
سعد تصدم عهده مستروحاً وجهاده فى الحق لم ينصرم
مازال فى أذن الكنانة نعمة ثورية إن تلق حنيناً تضرم
حثت من المستضعفين عزائم أمراً بأحضان الحوادث ترتم
ياسعد إن تك مصر بعدك يتمت وبدت ذئاب الأوصياء بمبسم
فالله أولاها العناية فارتأت فى مصطفى أنزه قيم
قل للخوارج فى طهارة مصطفى سر فمن يخرج عليه يعدم
مهما جمعتم أمركم وفلولكم سيظل أمنع من كل الأعصم
كالطود حطمت الوعول قرونها فى صخره وأقام غير محطم
إخواننا الأقباط فيما بيننا ود قديم ثابت لم يفصم
عطف الهلال على الصليب فحاذروا أن تجعلوا روح المسيح بمكرم
لا تجعلوها ضربة دينية فلا تنفصلن قبله من مسلم

وقد قال الشعراوى بعد عودة النحاس من الإسكندرية وكان قد أشيع عنه أنه مات قصيدة يرحب بها بعودة الرجل سالماً. . قال:

بسم الله نحرس هذا الرجاء والحمد لله على نعمة هذا الشفاء
والله أكبر لطف حين قدر وأزاح الغمام عن البدر فأسفر
فباسم الله والحمد لله والله أكبر

ووصل الأمر إلى أن الشعراوى وكان يحب الملابس النظيفة والمظهر الطيب حيث كتب قصيدة فى هذا الموضوع:

حسن كل لباس ترتديه إن العرض تحلى بالشرف
هل يشين فى عيون الناس أن يلبس اللؤلؤ ثوباً من صدف

والغريب أن الشعراوى قال الشعر فى الملك فؤاد وكذلك فاروق، فقال فى الملك فؤاد:

إلى مصر عدت باليمن يصحبك البشر أيا بسمة يفتر عن حسنها الثغر
عن الأزهر المعمور حياك فتية سرائرهم حب وإسرارهم بشر
كأن ثرى بنها سماء تواضعت عمائمهم فيها كواكبها الزهر

وكان ذلك فى تحية الملك وهو عائد من الإسكندرية حيث أوقفوا المشايخ على محطة بنها.

الشعراوى قال شعراً أيضاً فى الملك فاروق كذلك حيث قال:

حين تسرى البشرى بركبك تلقى أمة فى طريقه ترصد
فكأن السماء تمطر خلقاً والذى تنبته العمائر أمجد
كم فتى يافع تراه مهيضاً كلما ظنه الزحام تنهد
وقصير ود اجتلاء المحيا قد تمطى تسل به فتمدد

وصـغير عطـف الأبـوة يأبـى | أن يـرى وحـده الجلال ويشهد
فتـراه علـى وقـار ونبـل وإذل | مـن كبائـل الطفـل مقعـد
بين هـذا السكاك تلقى عجـاباً | وهو أعمى عيناه فى رأس مقعد
فإذا الطلعة السنية لاحت وتجلى | الفـاروق بحبـل موطـد
كبـر الحشـد والأكـف تلاقت | بـين من ردد الهتـاف وزغـرد

وعندما قامت الثورة قال الشعراوى فيها شعراً.. حيث قال:

أحييهـا ثـورة كالنـار عارمـة | ومصـر مابين محـبور ومرتقب
شقت توزع بالقسطاس جذوتها | فالشعب للنور والطغيان للهب

لكن الشيخ يقول:

«وسرعان ما أثبتت الأيام عكس كل الشعارات التى ترددت ولم تعد الحياة حرة ولا كريمة، ولذلك أضفت إلى قصيدتى السابقة فى تحيتها القول:

وهكـذا خلتهـا واللـه يغفـر لى

وكم لمواليد هذا الدهر من عجب

والشـيخ فى السـعودية حـيث كـان المتحـدث الرسـمى باسم المصـريين فى كل استقـبال، لذا نراه عندما جاء عبدالحكيم عامر إلى السعـودية ومعه الدكتور محـمود فوزى وزير الخارجية، وكـانت مصر وسوريا والسعودية قد عملوا اتـفاقاً ثلاثياً وجرى توقـيع هذا الاتفـاق فى مـكة المكرمـة وكـان هذا الاتفـاق عـام ١٩٥٤ وكـان ضـد إسرائيل.. فقال الشيخ تحية لهم:

نصرت بالله واستعصمت بالسيف | إلى العلا أم الإسلام والعرب
إنا شـعوب سـبيل اللـه يجمعهـا | فلا تفرقها الأعداء فى شعب

بل إن الشيخ قال قصيدة عصماء فى استقبال طه حسين عندما ذهب إلى السعودية لعمل عمرة.. قال فى قصيدته:

حيى ركب النهى ووفد الرجاء ... وانتظر ياشرق بعث العلاء
شمر العرب أجمعون من الساقى ... وهبوا للبغية البيضاء
ياركان المنى وصالك أضحى ... قاب قوسين منيع الخباء
أخذ الغرب منك ياشرق ليلى ... وهى لاترتجى بعذب الدعاء
كلما آنست من الشرق صوت ... حسبته من مقدمات النجاء

كان هذا الشعر من أجل الوفد المرافق لطه حسين لكنه خاطب طه حسين قائلاً:

اطمئنى يانفسى الغيور ... فإنا قد أفقنا من نوبة الإغماء
وثقى بالمنى فإن زمام العلم ... قد صار فى يد العداء
هو طه فى خير كل قديم ... وجديد على نبوع سواء
كرموه وكرموا العلم لما ... كلفوه صياغة الأبناء
لك فى العلم مبدأ «طحسنى» ... صار فى العالمين مسرى زكياً
جعل العلم للرعية جمعاء ... مشاعاً كالماء بل والهواء

هذه بعض أشعار الشعراوى وليست كلها..

هيا إذن نبدأ الكلام عن ومع الشيخ..

لايحق لنا ولا نستطيع أن نقول أن الشعراوى رجل لكل العصور، فهو الرجل الذى قال شعراً يمتدح فيه الملك فؤاد ثم الملك فاروق وعندما جاءت الثورة التى كتبت شهادة وفاة الملك كتب فيها شعراً. هذا لايعطينا المبرر أن نتهم الرجل مثل هذا الاتهام، فالمسألة لها وجه آخر..

يعلق محمود فوزى فى كتابه «الشعراوى من القرية إلى القمة»، فيقول:

«بدأ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى كتابة الشعر حوالى عام ١٩٢٨ ولقد تنوعت أشعاره فى مراميها وأهدافها من شعر سياسى إلى وصف الطبيعة إلى الشعر الدينى والشعر الاجتماعى وشعر المناسبات مما يدل على قدرة الشاعر الكبير».

وكلام محمود فوزى يحتاج إلى كلام..

فالشعراوى ليس شاعراً كبيراً ولا حاجة.. فنحن لم نرَ له شعراً غير شعر المناسبات هذا، وهو شعر عادة يخلو من الصدق الفنى فهو ليس نابعاً عن انفعال أو عن تجربة معاشة ولكنه يملى على صاحبه، ويدلنا قول الشعراوى نفسه عندما طلب منه أعضاء الوفد أن يكتب قصيدة حتى يهاجم بها مكرم عبيد وهذه الأبيات ذكرناها سابقاً لكن الشعراوى يعلق على ذلك بقوله:

«أيام فصل مكرم باشا عبيد أحب الأقباط أن يأخذوها غضبة وبتاع، فمصطفى باشا قال احنا عايزين نتكى على الحتة دى».

الشعراوى إذن لم يكن يكتب الشعر ولكنه كان يملى عليه..

ماتقدم يجعلنا نخرج بحكم نضعه فوق أشعار الشعراوى، فما يكتبه الشعراوى ليس شعراً ولكنه مجرد نظم لأبيات شعرية..

وليكن حديثنا من البداية..

بعد دخول الشعراوى الأزهر واحتكاكه باللغة العربية وعلومها تفجرت فى داخله الموهبة الشعرية التى لابد أنها تفجرت أيضاً عند جميع أصدقائه وزملائه الذين يدرسون معه فى الأزهر.. وسؤال بسيط للفصل الذى كان يدرس فيه الشعراوى:

من يكتب فيكم الشعر يامشايخ؟!

بلا مبالغة سنجد أن جميع المشايخ كانوا يكتبون الشعر..

لكن هذه الموهبة التى تفجرت عند الشعراوى وعند غيره لم تجد أرضاً خصبة

تنمو فيها، فليس أمامهم سوى الشعر القديم من معلقات وغيرها ودراسة هذا الشعر بلا شك تضفى ظلالاً كثيفة على مايكتبه هؤلاء المشايخ. .

بمعنى أن الألفاظ ستظل محتفظة بجزالتها وصلابتها فهى ألفاظ مستمدة من البيئة الصحراوية. . كذلك لن تخلو القصيدة من تعدد الأغراض. . الصور والأخيلة لن تخرج من بين قضبان سجن القصيدة العربية. . إذن أشعارهم كانت تخلو من الحياة والحيوية. . فهم قرأوا فقط الشعر القديم ولم يطلعوا على أشعار الغرب مثلاً أو أدبه. .

ومن خلال سؤالين للشعراوى. . سؤال عن الأدب العربى وآخر عن الأدب الغربى نجد المفارقة. . فقد قال الشعراوى عن المتنبى:

«المتنبى هو سيد شعراء العربية فى مجموعه وإن فاقه بعض الشعراء فى بعض الجوانب ولكن فى مجموعه خير من مجموع أى شاعر آخر».

وحكى الشيخ عن أستاذ له يدعى يوسف نجاتى كان يقول لهم: «العربية ليس فيها إلا الأحمدان: أحمد شوقى وأحمد أبو الطيب المتنبى».

لكن عند سؤال الشيخ عن الأدب الغربى قال:

«والله فيه أشياء مستميلة وأشياء كويسة، إنما لو أنك جبت قمة الأدباء فى الغرب مثلاً ألا وهو اسمه إيه المعجبين به شكسبير.. فعندما قلت للشيخ رياض الخطيب وكان ملماً وضليعاً بالإنجليزية فى فترة وجودنا بالسعودية، أنا عايز تقول لى عن أدب شكسبير وأدب مش عارف إيه، قعد يقول لى ده كذا وكذا على أنه قارىء جيد وأعانته لغته وأعانه فراغه فقط.. قلت له طيب أنا حاقول لك بقى أنت تقول لى شكسبير قال إيه، وأنا أقول لك الأدب العربى قال إيه والشطارة بقى إننا نعمل مقارنة بين شكسبير وبين دول نشوفه التقى بيهم، خد

ترجمة عنهم لأن المسألة كلها واضحة، كذا المتنبى قال كذا وكذا، البحترى قال كذا وكذا وقال كذا، فجهلنا بآدابنا هو اللى جعلنا نمجد هذا..».

ويعطينا عدم قراءة الشيخ للأدب الغربى إلا مترجماً إشارة لرأيه الذى كونه.. خلاصة القول أن الشعراوى فى تأثره بالشعراء القدامى ووقوفه عند حد التقليد لم يعطه الفرصة ليكون شاعراً مقروءاً..

فنحن لم نعرف الشعراوى الشاعر إلا من خلال أحاديثه التليفزيونية ومن خلال المقالات التى تكتب عنه.. فلم تكن هناك دواوين تحمل اسم الشيخ ولم يمتعنا الشعراوى بشاعريته ولم نعش مع كشاعر..

ليس معنى ذلك أننا نرفض الشعراوى بشعره، فليسعد به جمهوره كشاعر، لكن الحقيقة تنفى ذلك..

فليست له أشعار ـ كما قال محمود فوزى ـ سياسية أو اجتماعية أو وصف للطبيعة.. ماوصلنا فقط هو شعر المناسبات وذلك مايجرنا للحديث مع الشيخ..

فمع أن القضية الوطنية كانت مشتعلة والوفد كان يقود الأمة والموقف حرج عندما بدأت الانشقاقات تتوالى عليه، بدءاً من الأحرار الدستوريين وحتى الانشقاق الكبير بخروج مكرم عبيد، لكن هذا ليس ذريعة لأن يضع نفسه تحت أمر السياسة ويخضع لها بل ويوظف أشعاره من أجل خدمتها وإن تغاضينا عن إقحام الشعراوى الشاعر نفسه فى السياسة ومساعدة الوفد..

فما هو المبرر الذى من أجله يكتب الشعراوى شعراً يمتدح فيه الملك فاروق والملك فؤاد..

ومع أن الشيخ قال عن تحيته للملك فؤاد:

«رأيت الملك فؤاد لأول مرة وأنا طالب بالمعهد الأزهرى بالزقازيق

وأذكر أنهم أخذونا فى ذلك اليوم، أخذوا كل طلبة المعهد وكنا وقتها نرتدى جميعاً الزى الأزهرى العمامة والجبة والقفطان، وأوقفونا على رصيف محطة القطار فى بنها لكى نحيى الملك فؤاد وهو قادم من الإسكندرية ورأيناه وهو يسلم على شيخ المعهد.. وقد اتفق معى يومها شيخ المعهد على أن يغمز لى بعد أن يسلم على الملك فأقول القصيدة التى أعددتها لهذه المناسبة، وفعلاً غمز لى الشيخ فأخذت فى إلقاء القصيدة وبعد أن انتهيت كاد الملك أن يصفق لكنه تذكر أنه الملك» !!

والموقف نفسه يقوله فى مدحه للملك فاروق. . قال الشيخ:

«كنت أول مرة أراه فيها عندما أخذونا من المعهد، كل طلبة المعهد وبالعمائم وذهبوا بنا إلى الإسكندرية لنكون فى وداع الأمير فاروق وهو مسافر بالباخرة إلى الخارج، وكان شاباً صغيراً رقيقاً وحلواً.. وقد انضم طلبة معهدنا إلى طلبة معهد رأس التين ووقفنا على الرصيف لتحيته وكنت قد أعددت قصيدة بالاتفاق مع شيخ المعهد».

وبقراءة بسيطة لما يقوله الشيخ. . نجده يقول:

ـ أخذونا. . أخذوا كل طلبة المعهد. . أوقفونا على رصيف محطة القطار. . اتفق معى الشيخ. . أخذونا من المعهد. . ذهبوا بنا إلى الإسكندرية. .

معنى ذلك أن الشيخ كان مقاداً فى ذلك، فلم يقل ذلك حباً فى الملك ولا هياماً به، ولذا ليس من الصحيح أن نأخذ على الشيخ أنه مدح الملك، ونعتبر ذلك نقيصة فيه. . فالرجل كان طالباً أزهرياً ينتظم بين طلبة يخضعون لرغبة شيخ المعهد. .

وعليه فقصائد الشعراوى فى مدح الملك لايُعاب عليه فيها فهو كان طالباً وكان يُطلب منه ذلك. .

لكن الغريب فعلاً هو الكلام الذى قاله الشعراوى عن شعره فى فاروق، فقد قال فى فاروق أثناء الترحيب به فى محطة القطار كلاماً معقولاً:

سر إلى الغرب رافقتك السلامة يا أمير الصعيد وانعم بالإقامة
واصحب العزم فى ركابك حتى يقضى الله مانويت اعتزامه

فهذا كلام ليس فيه شىء..

لكن شعره عن الطلعة السنية للفاروق قال عنها:

«يعنى الفاروق رحمه الله كان شاب واستطاع الشيخ المراغى رحمة الله عليه ورضوانه أنه يجتذبه إلى المساجد، ويسمع دروس الدين وابتدأ يعنى أنه يبقى متفائل فلما جه يتزوج عملوا فى الأزهر مسابقة له عشان يبقى مهرجان الزفاف ومبسوطين وفرحانين إنه بأه اتجوز، ليه؟ لأننا قلنا ياجماعة عايزين ينسد باب الفساد ولما حيتجوز يبقى يعنى فرحنا قوى. بقينا نقول حيتجوز، وبعدين لما اجتمعنا بعد المسابقات طبعاً قلنا كلام كتير فيها وخدنا الجائزة، لكن أروع مافيها فى تحكيم الشيخ سليمان رحمة الله عليه وكان عضو الشيخ عبدالجواد رمضان أروع مافيها، بلاش المدح فى الملك والبتاع والكلام ده، زى بعضه إنما أروع مافيها اللى عجبهم فيها تصويره الحفاوة الشعبية بفاروق لما يطلع لأن ده كانت ظاهرة يعنى كلهم ناس بتحبه وبتاع..».

وأسأل الشعراوى: بصدق يامولانا هل أنت هنا تتحدث عن الملك فاروق الفاسد؟! هذا أيضاً مجرد سؤال!!

وقبل أن نمضى بعيداً عن الشعراوى الشاعر..!! نسجل للشيخ هنا رأياً نشكره عليه.. يقول الشيخ:

«هناك فرق بين الجمال لذاته والجمال لغاياته من ناحية التصوير

الجمالى لا أنظر إليها من خلال القيم الدينية، بدليل أن الشاعر أو الأديب عندما يحسن شيئاً وقد يكون كفراً ولكن كصنعة أدبية تقيم من خلال المقاييس النقدية لا الدينية.. إذن هناك مايسمى الجمال فى ذاته ولكن الجمال بما يؤدى إليه فهذا موضوع آخر، ولذلك فالشعر كفن انطلاق للأخيلة والتعبير عن تلك الأخيلة عندما يدخل فى الخير يضعف بعض الشيء ويقوى فى الشر، وذلك لأنه ليس فيه خنق للمعانى ومادام ليس هناك خنق للمعانى فهى تنطلق. وحسان بن ثابت عندما أسلم قالوا له لقد لان شعرك يا أبا الحسام.. فرد قائلاً: الشعر نكد يقوى فى الشر فإذا دخل فى الخير ضعف ولان وطبعاً هذا لاينطبق على من يملك العبقرية المركبة فيأتى معنى يروق من خلال الخير معنى تنبهر به مثل القائل:

حسب نفسى عزاً بأنى عبد

يحتفى به بلا مواعيد رب

هو فى قدسه الأعز ولكن

أنا ألقى متى وأين أحب

وقديماً قالوا من لم يزلزله الجمال فناقص تكوينه لأن التكوين الأساسى هو فى الإحساس بالجمال».

فالشيخ هنا يتحدث بمنطق رائع وكلام يحسب لرجل دين.. وإن كان البعض يختلف عليه فيه.. فيجب أن نلاحظ أنه كلام خرج عن رجل دين تحكمه القيم الدينية فى الأساس.

هامش على شاعرية الشيخ..

الذى يفهم الـدين الإسلامى فهـماً جيـداً يصل إلى درجة عـالية من الانسـجام الداخلى، ففى الإسـلام آية عامـة وشاملة هى ﴿**لكـم دينكم ولى دين**﴾، هذه الآية نزلت فى حق الكافرين.. وليس معنى ﴿**لكم دينكم ولى دين**﴾ أن الأمر ينتهى على ذلك، لكن واجب كل دين أن يوسع رقعته ويعـمل على زيادة أهله بمختلف الوسائل وإن كـانت الآية نزلت فى كفـار قـريش فإنهـا يمكن أن تنصـرف إلى أهل الديانات الأخرى..

لكن ماهى الديانات الأخرى؟!

هل المسيـحية أو اليهـودية تعتبـر من الديانات الأخرى.. آية ﴿**لكـم دينكـم ولى دين**﴾ تجيب، فكل ماليس من السـماء يقف فى خندق ونطلق عليه ديناً مستـقلاً، أما ماجاء من السماء فكله يقف فى خندق واحد.

لكن هل الأمر ينصرف إلى المسيحيين واليهود أيضاً؟

كيف نظم الإسلام العلاقة بين المسلمين وغيرهم؟

تُرى كتب الفقه الإسلامى لم تترك الأمر على عواهنه، بل قالت:

علاقة المسلمـين بغيرهـم علاقة تـعارف وتعاون وبر وعدل.. يقول الله سـبحانه وتعالى فى التعارف المـفضى إلى التعاون: ﴿**يا أيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثى**

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾، ويقول فى الوصاة بالبر والعدل: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾، ومن مقتضيات هذه العلاقة تبادل المصالح واطراد المنافع وتقوية الصلات الإنسانية، وهذا المعنى لايدخل فى نطاق النهى عن موالاة الكافرين إذ أن النهى عن موالاة الكافرين يقصد به النهى عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين،كما يقصد به النهى عن الرضى بما هم فيه من كفر، إذ أن مناصرة الكافرين على المسلمين فيه ضرر بالغ بالكيان الإسلامى وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، كما أن الرضى بالكفر كفر يحظره الإسلام ويمنعه، أما الموالاة بمعنى المسالمة والمعاشرة الجميلة والمعاملة بالحسنى وتبادل المصالح والتعاون على البر والتقوى فهذا مما دعا إليه الإسلام.

ولهذا قرر الإسلام المساواة بين الذميين والمسلمين، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكفل لهم حريتهم الدينية فيما يأتى:

* **أولاً:** عدم إكراه أحد منهم على ترك دينه أو إكراهه على عقيدة معينة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾.

* **ثانياً:** من حق أهل الكتاب أن يمارسوا شعائر دينهم، فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب، يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: **«اتركوهم ومايدينون به»**، بل من حق زوجة المسلم «اليهودية أو النصرانية» أن تذهب إلى الكنيسة أو إلى المعبد ولا حق لزوجها فى منعها من ذلك.

* **ثالثاً:** أباح لهم الإسلام ما أباحه لهم دينهم من الطعام وغيره فلا يُقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر مادام ذلك جائزاً عندهم وهو بهذا وسع عليهم أكثر من توسعته على المسلمين الذين حرم عليهم الخمر والخنزير.

* **رابعاً:** لهم الحرية فى قضايا الزواج والطلاق والنفقة ولهم أن يتصرفوا كما يشاءون فيها دون أن توضع لهم قيود أو حدود.

* **خامساً:** حمى الإسلام كرامتهم وصان حقوقهم وجعل لهم الحرية فى الجدل والمناقشة فى حدود العقل والمنطق مع التزام الأدب والبعد عن الخشونة والعنف.. يقول الله تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**.

* **سادساً:** سوى بينهم وبين المسلمين فى العقوبات فى رأى بعض المذاهب وفى الميراث، وسوى فى الحرمان بين الذمى والمسلم فلا يرث الذمى قريبه المسلم ولايرث المسلم قريبه الذمى.

* **سابعاً:** أحل الإسلام طعامهم والأكل من ذبائحهم والتزوج بنسائهم، يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**.

* **ثامناً:** أباح الإسلام زيارتهم وعيادة مرضاهم وتقديم الهدايا لهم ومبادلتهم البيع والشراء ونحو ذلك من المعاملات، فمن الثابت أن الرسول مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى دين له عليه، وكان بعض الصحابة إذا ذبح شاة يقول لخادمه ابدأ بجارنا اليهودى.

هذا فقه الإسلام مع اليهود والنصارى، وعلى ذلك فلا يجب مجاهدتهم بالقوة من أجل الدخول فى الإسلام.. إلا إذا حدث وبدأ أحدهم الهجوم المسلح على المسلمين، فيجب أن يقف لهم المسلمون بكل قوة.. وهذا غير حال أهل الشرك والكفر فيجب غزوهم ومقاتلتهم ودعوتهم إلى دين الله.

من المؤكد أن الشعراوى يعرف ذلك.. فهذا هو ماجاء به الإسلام فى شأن التعامل مع اليهود والنصارى، لكن الشعراوى لايتصرف على هذا الأساس مع الأقباط.. بل هو يعتبرهم كفرة، ويكفى تفسيره للآيات التى تقترب منهم ومايكون

فى أسلوبه من غمز ولمز.. لكن ماعلاقة ذلك بشاعرية الشعراوى؟ فقد بدا موقفه صريحاً من مكرم عبيد عندما انفصل عن مصطفى النحاس لدرجة أنه قال:

قل للخوارج فى طهارة مصطفى سر فمن يخرج عليه يعدم
مهما جمعتم أمركم وفلولكم سيظل أمنع من حمل الأعصم

إلى آخر الأبيات التى ذكرت سابقاً.. فالرجل يعتبر أن الأقباط الذين خرجوا مع مكرم من الوفد بمثابة الخوارج، وهو إسقاط معروف، والشعراوى نفسه يقول أن الأقباط أحبوا أن يعملوها حكاية..

إذن سوء العلاقة بين الشعراوى والأقباط كان أساسه السياسة، فهى التى أوغرت صدر الشعراوى عليهم ولايخفى على أحد قوله عن ثورة ٥٢ حين قال:

«وعندما جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ فهمنا أول الأمر أن الثورة قامت لتأتى بالنحاس باشا إلى الحكم، لكن الأيام سرعان ما أثبتت عكس ذلك كل الشعارات التى ترددت»..

إذن النحاس كان يمثل منطقة محرمة عند الشعراوى وأى إنسان يقترب منها كان ينال من غضب الشعراوى.. والأمر كما حدث مع ثورة يوليو.. حدث كذلك مع الأقباط..

إذن البداية كانت بين الشعراوى والأقباط بداية جاءت فى بيت من الشعر، لكن امتدت العلاقة تنمو بين سطور تفسير الشعراوى حتى وصلت إلى درجة أن الأقباط كفرة..

الأمر إذن خطير ويحتاج لإجابة ليس لموقف الشعراوى وحده ولكن لموقف غيره، فإذا كان الإسلام قد رسم وحدد تماماً علاقة المسلمين بالنصارى واليهود، فماذا يعنى قول أحد علماء المسلمين(*):

«هناك سؤال يقول: جيراننا وزمايلنا فى الشغل مسيحيين ونصارى تجيلهم أعياد نروح نهنيهم كل سنة وأنت طيب يابطرس يا إسحاق

(*) عمر عبدالكافى.

ياوليم، ينفع الكلام ده؟
الإسلام يقولكماينفعش، ليه؟ عندهم عيد اسمه عيد القيامة اللى قام فيه المسيح، المسيح نام ثلاثة أيام وقام ولما قام بأه عشان يحكم العالم تانى، أمال العالم كان ماشى إزاى فى الثلاثة أيام اللى فاتوا؟ ماعلينا، مش عايزين نخش فى نقاش مش وقته، لما تروح تقول له فى عيد القيامة كل سنة وانت طيب يبقى إنت أقريت من نفسك إن فيه حاجة اسمها قيامة المسيح، صح ولا لأ؟ هذا إقرار ضمنى من جوالك إن فيه للمسيح قيامة وإنه قام وإنه مات وصحى وإنه بعث ليحكم العالم لأنه الرب أو ابن الله وهذا الكلام كله حرام مينفعش إنك تروح للمسيحى وتقول له كل سنة وانت طيب، لكن لو شفته فى السكة قل له إزيك يقولك كده أنا زعلان منك، ليه.. خير يابطرس زعلان منى ليه؟ مجتشى تعيد عليّ.. هو انتو كان عندكم عيد؟ يعنى توهه متقولوش كل سنة وانت طيب، العب معاه، المهم متقرش إنه عنده عيد».

أنا معك ياشيخ لاتقر أنه عندهم عيد..

لكن نقر أنك مجنون وربما معتوه.. أو قل أنك تتحدث عن دين غير دين الإسلام.. كيف وصلنا إلى هذه الحال؟.. لست أدرى!!

وحتى زيارة الشيخ الشعراوى التى حدثت عام ١٩٩٤ وجاءت بعد عودة الشيخ من رحلة علاج فى أوروبا.. فقد أرسل له البابا شنودة برقية يطمئن فيها على صحته وزاره فى أوروبا بعض الأقباط.. ولما عاد الشيخ ذهب إلى البابا ليزوره.. وهى الزيارة التى نرجو أن تكون قد عملت على تغيير رأى الشعراوى فى الأقباط.. وهو الشيء الذى يجعله يعيد النظر مرة أخرى فيما قاله عنهم، فإن هذه النظرة من بعض علماء المسلمين تورث بعض المسلمين أو لنقل معظمهم كرهاً شديداً لهؤلاء وبغضاً أشد لمجرد رؤيتهم..

فمع أنى على يقين أن هناك بعض الأقباط يكرهون المسلمين ويتمنون لهم الهلاك.. لكن كراهية المسلم للمسيحى شيء يجانبه الصواب لأنه يجانب صحيح الدين.. بل يمثل مخالفة صريحة لما جاءنا به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

عالم من الرؤيا..

الرؤيا الصادقة أول درجة من درجات النبوة..

وكثير من أهل الله أكثر مايرونه فى منامهم يتحقق فى الواقع.. فهم أهل الله.. والشعراوى رغم كل شىء لانستطيع أن نقول أنه بعيد عن الله.. فملامح الرجل تغوص فى التقوى والإيمان وتشى بتفاصيل عابد ورع، ويكفى أن الرجل خصص فى بيته مكاناً لمسجد يتعبد لله فيه..

ورغم أن الرؤيا لم تمثل كثرة عددية فى حياة الشيخ من حيث حدوثها.. لكن كل رؤيا حلقت فى حياة الشيخ لعبت دوراً هاماً فى حياته.. ليس شرطاً أن يكون صاحب الرؤيا ولكن قد تكون الرؤيا متعلقة به أو بشىء من حياته..

* **الرؤيا الأولى..** والتى عانقت ميلاد الشعراوى هى الرؤيا التى حكاها خال والده، حيث رأى كتكوتاً يخطب على المنبر فى ليلة مولد الشعراوى وهى الرؤيا التى كانت سبباً مباشراً فى أن يهب الرجل ولده للأزهر حتى يصبح من العلماء ويقف على هذا المنبر فتتحقق الرؤيا، وقد وقف متولى الشعراوى وقفة أعطاها كل جهده من أجل تحقيق هذا النذر ووفر للشعراوى ـ على فقره ـ كل مايرغبه ويطلبه من أجل إكمال الدراسة فى الأزهر.. وربما يعود ذلك للبيئة التى عاش فيها متولى الشعراوى، فهو رجل فلاح يرتبط ارتباطاً كبيراً بالصلاة والدين، وعليه فهو على يقين من أمر الرؤيا.. وحتى لو لم يكن يصدق من أمر الرؤيا شيئاً، فإنه طمع أن يصبح ولده

عـالماً من علماء الأزهر، فـقد كـان الزمان مـازال يحـتفظ لهم بشيء من كـرامتـهـم وهيبتهم، وهذه الرؤيا على مافيها . . لكن نحن هنا نفصل ماحكاه الشيخ فقط . .

* **الرؤيا الثانية . .** يحكى عنها الشعراوى نفسه:

«بمرور الأيام اشـتـدت مـعـاناتي وازداد قلقى، وحـدث ذات ليلة أن جافاني النوم وجلست مهموماً أفكر، ولاحظت أمى أننى سهران على غيـر العـادة وأن قلقى وهمـومى انعكسا على وجـهى فـاقـتربت منى وربتت على كـتـفى وقـالت فى حنو بالغ: مـالك ياابنى؟ لماذا أنت سهران؟ لماذا لاتذهب وتنام؟ فقلت لها وأنا حزين: الهموم كثيرة ياأمه وقلقان والمعيشة صعبة والعيال عايزة مصروف والديون زادت علىّ، وصعبت عليها فطبطبت علىّ وقالت فى حنان: يا ابنى انت لك رب اسمـه الكريم، قـوم نام وأنا حـادعي لك، وقـمت نمت وفى الصبـاح جاءت أمي لتوقظنى وهى تنادينى بصوت مفعم بالفرحة قـوم ياابنى قوم، فقلت لها: خير يا أمه؟ قالت: أنا رأيت لك فى المنام رؤيا حلوة. قلت: خير إن شاء الله؟ قالت: رأيتك وانت شايل قفة مليانة فلوس. قلت لها وأنا أضحك: إيه التخريف ده، هى الفلوس تنشال فى قفة؟ قـالت فى استنكار من ردى عليها: هى الرؤيا فـيهـا كدب؟ أيوه قفـة مليانة فلوس. وضحكت وقلت لها: طيب يا أمه كتر خيرك».

وهذه الرؤيا على طرافتـها نجد الشـعراوى يحدثنا أنهـا تحققت بالفـعل بعد ذلك عندما سـافر إلى السعودية حـيث دخل على أمه بقفـة فلوس ليقول لها: «آدى القـفة وآدى الفلوس».

كل ماسبق كان مقدمة فقط للحادثة الكبرى فى حياة الشيخ . .

والرؤيا الثالثة: طالعتنا جريدة «الأهرام» يوم الاثنين ٦ نوفـمبر ١٩٩٥م على صفحتهـا الأخيرة بخبر مضمونه أن الشيخ الشـعراوى رأى الرئيس الراحل عبدالناصر

فى منامه ومعه شيخان معممان أحدهما يمسك فى يده سماعة الطبيب والآخر يمسك «بَرْجل» المهندس، ففهم الشيخ من هذه الرؤيا أنه ظلم عبدالناصر عندما هاجم التطوير الذى أحدثه عبدالناصر فى الأزهر، وكان ذلك مدعاة لأن يذهب الشعراوى إلى ضريح عبدالناصر حتى يقرأ له الفاتحة ويستغفر له.

وقبل أن نتحدث عن الرؤيا تعالوا نلقى نظرة سريعة على الأزهر..

من وجهة نظرى الخاصة.. أنه لايوجد أزهر الآن.. لكن ماذا يقول الشيخ عن الأزهر؟

«الأزهر الشريف فيه سر وإعجاز، فهو أنشىء قبل ألف عام ليروج لمذهب خاص هو المذهب الشيعى الفاطمى، لكن شاء الله أن يخلصه لمذهب أهل السُنّة المذهب النقى الصافى.. هذا شىء.. والشىء الآخر أن إنشاء الأزهر فى مصر تم وكأن الله اختاره واختار مصر الكنانة له، لأنه قبل أن ينشأ الأزهر جاء فى الكتاب المُنزّه المُنزَل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايجعل لمصر مكانة لم يظفر بها بلد آخر من بلاد العالم، وأقولها على العموم هات أى بلد فى العالم ذكرها الله باسمها الصريح الخفيف الظريف مثل مصر.. لايوجد..

لكن الأزهر الآن دوره ليس طبيعياً كما نريد لأننى أجد طالب الأزهر الآن يشترك مع طالب التعليم المدنى فى علوم ويمتحن معه فيها ثم يأخذ فترة أخرى لامتحان فى علوم الأزهر وهذا إجهاد له، فالتربويون عندما يضعون منهجاً للتعليم الدينى فهم يضعونه لطور العقل والذين وضعوا منهجاً للتعليم المدنى وضعوه مناسباً لطور العقل، وعندما يكلف طالب الأزهر بأن يتعلم وفقاً لمنهج التعليم المدنى ثم يتعلم وفقاً لمنهج التعليم الدينى فى نفس الوقت فهذا فيه إجهاد وإرهاق له..

والنتيجة أنه لاينفع لا فى هذه ولا فى تلك إلا إذا كان حيموت نفسه

علشان ينجح وبس، وهذا الوضع ينشىء في رجال الأزهر شيئاً من العطف على الطلاب قد يتجاوز العدل، يعنى في الامتحان يقول بلاش نسقطه خلينا نساعده.. وإذا كانوا قد عملوا لكل حرفة من الحرف مدارس ومعاهد وكليات فلماذا لايتركون الأزهر للدين. وإذا كانوا يريدون أن يشيع الدين كما يقولون فلماذا لايشيعون الدين في التعليم المدنى بدلاً من إشاعة المدنية في الأزهر، فبدلاً من أن تمدينوا الأزهر دينوا الجامعة.. ولذلك لاتعجب إذا وجدت خطيباً يلحن في كتاب الله لايقيم آية وليس عنده ثقافة ومع أنه تعلم وأخذ العلوم المدنية إلا أنه عندما يصعد المنبر ويخطب في الناس فهو لايجد عنده سوى الكلمتين اللتين يقولهما في الجنة والنار».

كانت هذه شهادة الشيخ على الأزهر وطلابه، وكانت كلمات الشيخ تلك في عام ١٩٩٤م، أى قبل رؤياه لعبدالناصر بعام واحد..

والغريب في الأمر أن الشعراوى عندما دخل الأزهر كان الوضع كذلك فهو أيضاً قد درس العلوم المدنية من كيمياء وفيزياء ورياضيات وغيرها.. لذا فالرجل لمس عن قرب مايتحدث عنه..

ولذا عارض الشعراوى القانون الذى صدر عام ١٩٦١، وكان حسب مواده يهدف إلى:

أولاً: إصلاح حال الأزهر وتطويره والمحافظة عليه كحصن للدين والعروبة.

ثانياً: تدعيم الأزهر حتى يحافظ على مكانته كأكبر جامعة إسلامية وأقدمها على الإطلاق.

ثالثاً: أن يكون خريجو الأزهر علماء درسوا مختلف العلوم وتهيأوا لمواجهة مشاكل الحاضر بالعلم والخبرة.

رابعاً: إزالة الحواجز بين الأزهر وبين الجامعات ومعاهد التعليم الأخرى وتزول الفوارق بين خريجى الأزهر وخريجى الجامعات والمعاهد.

خامساً: إيجاد قدر من المشاركة فى نوعية المعرفة والخبرة بين متعلمى الجامعة ومتعلمى الأزهر.

سادساً: تحقيق وحدة فكرية ونفسية مع سائر أفراد الوطن الذين تعلموا فى المدارس المدنية.

عندما صدر القانون أثار ردود فعل متباينة، فالبعض وافق عليه والبعض رفضه رفضاً قاطعاً واعتبر ذلك تدخلاً من رجال الثورة فى شئون الأزهر وهو ما لايليق.

وكانت للشيخ الشعراوى كلمة شهيرة فى ذلك الموقف حيث كان يقول:

«أزهروا المدارس ولا تمدرسوا الأزهر».

فهو يرى أن مناهج الدين فى المدارس المدنية لاتكفى، وخصوصاً أنها تصير مادة إضافية لا نجاح ولا رسوب فيها.. وللشعراوى رأى هام للغاية يتعلق بمصادرة الأزهر لكتب المثقفين والكُتّاب.. حيث يقول الشعراوى:

«والله أنتم رضيتم بالأزهر قيّماً على تحقيق الدين فإذا وجد شيئاً مخالفاً لتحقيق الدين فماذا ترونه يفعل وإلا ألغوا الأزهر أفضل.. فدور الأزهر هو التحقيق فى أمور الدين، افرض أنك أنشأت كلية طب وخرجت منها أطباء وأخطأ أحد الأطباء فى الطب، من شأن الأطباء أن يتحدثوا فى ذلك أم لا.. طبعاً سوف يتحدثون، وقياساً على ذلك إذا أخطأ أحد فى الدين هل يحاسبه رجال الأزهر أم لايحاسبونه؟ أنتم رضيتم هذا الوضع أنتم أنشأتم كلية للزراعة وكلية للطب البيطرى وكلية للطب البشرى والذى يدّعى الطب تحاكمونه والذى يدّعى أنه رجل دين لاتريدون القائمين على الدين أن يتحدثوا.. كيف؟!».

وكلام الشعراوى هنا غاية فى الغرابة..

فإذا كان الشيخ يقدس الأزهر فله مايريد ويرغب وهذا حقه.. لكن ليس له أن يخطىء فى القياس.. فالدين شىء والطب شىء آخر.. وإذا أراد الشيخ أن يطبق

محاكمة أدعياء الطب مثلاً على أدعياء الدين. . فإنه بذلك سيصنع كهنوتاً ولا كهنوت فى الإسلام. ثم إن الشيخ قال أن رجال الأزهر يجب أن يتحدثوا، وهذا حقهم لكن ليس من حقهم على الإطلاق مصادرة كتاب أو حجبه عن الناس. . فالأزهر عندما يجد شيئاً مخالفاً للدين فليسعَ إلى إيضاحه وتفنيده وتبيان وجوه الخطأ فيه، وهذا دور عظيم، فالأمر يجب أن يتم عن طريق المواجهة.

وليس للأزهر كذلك أن يكفّر أحداً أو على الأقل لايجب أن يكون درجة فى سلم يصعد عليه البعض ليكفر رجلاً مهما كانت آراؤه. .

والغريب فى أمر الأزهر أنه يسحب شهادته من بعض الغاضب عليهم وهذا حدث مع الشيخ على عبدالرازق عندما وضع كتاب الإسلام وأصول الحكم، وحادثة هذا الشيخ وكتابه تهدى لكل من يتحدث عن دور الأزهر. . فهل الأزهر فى تلك الحادثة كان يخدم الدين أم يخدم السلطان. . وهذا ـ والله العظيم مرة ثانية ـ مجرد سؤال.

الشعراوى إذن يحمل للأزهر مكانة عالية فى قلبه وعقله بل إن من بين الأسباب التى جعلته يكره عبدالناصر، هذا القانون الذى ظل الشعراوى يردد أنه أفسد الأزهر.

الشعراوى بعد كل ذلك خرج على الناس بهذه الرؤيا. . وخطورة الأمر أنها أعادت الحديث مرة أخرى عن الشيخ والسياسة. . الشيخ والسلطة. . حيث كانت هذه الرؤيا أثناء انتخابات مجلس الشعب التى أجريت عام ١٩٩٥، وهو الذى دفع البعض لأن يقول أن الحزب الحاكم هو الذى دفع الشعراوى لاختلاق مثل هذه الرؤيا حتى يؤكد على إنجازات ثورة يوليو وهو مايجعل موقف الحزب الحاكم جيداً للغاية، وبعض البسطاء قالوا أن الشيخ يعمل من أجل تقوية جناح الناصريين فى الانتخابات. . لكن ماهو الدافع والناصريون أنفسهم رفضوا مثل هذه الرؤيا؟!

ونسجل هنا بعض الآراء التى تحدثت عن هذا الموقف(*):

(*) صباح الخير ـ عدد ٩ نوفمبر ١٩٩٥، ص ١٦، تحقيق: رضا حماد.

يقول أمين هويدى وزير الحربية وأحد الذين تولوا وزارة شئون الأزهر فى عهد عبدالناصر:

«ليس من المعقول أن يغير الرجل مواقفه بسبب رؤيا يراها، فهذا ليس له أساس من العلم، وفى حالة الشيخ الشعراوى نفسه فإن اتخاذ البعض له كقدوة يلقى عليه مسئولية كبيرة فى التصرف مع الآخرين، خصوصاً إذا كانوا فى وزن الرئيس جمال عبدالناصر، وهذه المسئولية تحتم عليه أولاً عدم التسرع فى تقييم عمالقة هذا البلد مثل جمال عبدالناصر، أو حسم الموقف منهم برؤيا.. لقد عاصرت أنا شخصياً ما أثير من خلاف حول قانون تطوير الأزهر بإدخال الكليات الجديدة إلى جانب الكليات القديمة: اللغة العربية والشريعة وأصول الدين، وكان صاحب القرار هو المرحوم كمال العبد، وحينما عينت وزيراً لشئون الأزهر فى الوزارة التى كان يرأسها عبدالناصر تقدمت بمذكرة لإصلاح بعض الأمور فى الجامعة الأزهرية، وهى المذكرة التى لاقت هجوماً عنيفاً من بعض مشايخ الأزهر الذين اكتشفت أن جميعهم غير حريصين على تعليم أولادهم بالكليات الأزهرية القديمة وهو مايعنى أن هؤلاء المشايخ هاجموا القرار دون سند.. لكن بالعودة للشيخ الشعراوى فأستطيع أن أؤكد أنه هاجم عبدالناصر هو الآخر دون سند ودون دراسة، وأنا لا أعترض على رأيه فى عبدالناصر، لكن ما أعترض عليه هو الطريقة التى غير بها موقفه من الرجل والذى لا أظن أن أحداً دفعه لها، فالسبب الذى ساقه سبب واهٍ، لن يستطيع به حتى إن بدا منه إحاطة أفعاله وأقواله بهالة من القداسة، فإنه لن يميت كل ماقاله وأصاب الناس فيه بجهالة».

لكن حسام عيسى يقول:

«أعتقد أن الظروف التى دفعت بالشيخ ليغير من موقفه، فالأيام الحالية

أيام انتخابات والسلطة تحرص فيها على تأكيد ثورة يوليو حتى تستقطب العمال والفلاحين.

فهل يريد الشعراوى أن يقنعنا بأن الأموات يعلمون مايقال عنهم؟ وهل قرأ عبدالناصر ماكتبه الشيخ الشعراوى وحرص على أن يوضح له الصورة؟.. إن الرؤيا فى تفسيرها العلمى هى عبارة عن رغبة مكبوتة أو أنها شيء حدث فى الماضى أو شيء نريد حدوثه، فتختزنه الذاكرة وتخرجه فى الأحلام، وكل هذا لايمنح الشيخ حق إضفاء هالة القدسية على رؤياه، وحتى إذا ما أخذنا رؤيا الشعراوى مأخذ الجد فمعناها أن الشعراوى غير مقتنع بما قاله فى الماضى عن عبدالناصر، فكيف يغير الرجل من مواقفه من أجل رؤيا؟ فهذا الرجل هو الذى صلى لله شكراً على هزيمة أبناء الوطن المسلمين من اليهود وهو الذى تخلى عن أدنى الخصال الإسلامية وسمح لنفسه بتجريح عبدالناصر وهو ميت».

ويتعجب حسام عيسى من نشر أكبر الصحف اليومية لمثل هذه الخرافات وذهب إلى أن نشرها يؤكد تحليله بأن الشعراوى دُفع إلى نسج هذه الحكاية.

وقد استنكر لطفى الخولى نشر الأهرام لهذه الحادثة وقال أنها أوهام لايستطيع عقل إنسان أن يصدقها، لكنه قال أيضاً:

«يجب علينا أن نحترم الشيخ فى آرائه لكنه يجب عليه هو الآخر أن يكف عن إسباغ القدسية عليها، فهو بشر.. من ناحية أخرى فليس صحيحاً أن عبدالناصر هو أول من أدخل العلوم المدنية فى الأزهر وهو نفسه الذى أشار إليه الشعراوى فى تفسير رؤياه، إنما الذى أدخل هذه العلوم هو الشيخ حسن العطار أيام حكم محمد على».

وصحيح أن حسن العطار فعل ذلك، لكنه فعل فى أمنياته حيث كان يتمنى فقط أن يدرس طالب الأزهر العلوم المدنية بجانب العلوم الدينية حتى يواجه العصر ومافيه

من تقدم، لكن الأمر توقف عند الأمنيات. . لكن الصورة التى جعل عبدالناصر الأزهر عليها لم تكن مسبوقة.

على أية حال فالشيخ مخطىء، ولو أوقفناه أمام أية محكمة حتى لو كانت محكمة من جمهوره ومستمعيه وأحبابه فإنهم ولاشك سوف يعتبون عليه. . على الأقل سوف يسألونه: لماذا يامولانا؟!

فلو سلمنا أن ماحدث. . حدث بالفعل، ألا يجوز أن يكون هذا حلماً من الشيطان. . يجوز!!

ولو صدق وكانت رؤيا حق بالفعل فلِمَ دائماً الضجة الإعلامية التى تصاحبك. . مصورين وصحفيين وخبر فى الأهرام؟ أنت ذهبت لتقرأ الفاتحة على روحه لأنك أخطأت فى حقه. . فما ضرورة الإعلان؟ هل لو خرجت على الناس بدون رؤيا وقلت أنى راجعت نفسى فى موقفى من عبدالناصر والأسباب هى كذا، هل كان يلومك أحد؟. . بالطبع لا. .

لكن لِمَ اللجوء إلى الرؤيا ومثل هذا الكلام. . وعلى العموم فنحن نرجو أن يكون هذا الخطأ نتيجة لسوء تقدير الحسابات. . وليس خطأ نتيجة تقدم السن. . نرجو.

الرؤيا إذن لعبت فى تاريخ الشعراوى دوراً كبيراً، فهى التى جعلته عالماً عندما وهبه أبوه للأزهر بعد رؤيا رآها خال والده. . وكانت السبب فى انفراجة المال عليه، وللأسف الشديد أخذها الشيخ مبرراً فى نهاية حياته حتى يغير بها من مواقفه السابقة.

والله وحده أعلم ماذا كان يريد الشيخ من حديثه ذلك من رؤياه لعبدالناصر.

صانع التماثيل..

ليس هذا اسماً لفيلم أو مسرحية أو مسلسلاً أو حتى قصيدة شعر.. بل هو - ولاعجب - توصيف بسيط لجانب كبير للغاية من حياة الشعراوى.. والطريف فى الموضوع أن الشعراوى لايفوز بهذا اللقب طوال حياته.. بل إنه يتبادل الأماكن، فمرة يكون هو صانع تماثيل.. ومرة يكون هو تمثالاً يصنعه البعض..

وموقف الشيخ الشعراوى من النحاس يمثل استمراراً من الشيخ فى ممارسة هوايته وهى صناعة التماثيل.. وإن كان من حق الشيخ أن يحب أحداً، فإنه ليس من حقه أن يضفى عليه نوعاً من القداسة خاصة إذا كان من يحبه واحداً من السياسيين لأن لذلك خطره.

فالرجل أياً كان.. عندما يكون فى موقع السلطة تعطيه السلطة قوة ألا يُناقش، فما بالنا لو جاءه من يضفى عليه القداسة..

فالشيخ يبدأ مشواره مع تمثال النحاس بوصفه للنحاس بالرجل الطيب، فهو لايتحدث عنه مطلقاً إلا بهذه الكلمة «الرجل الطيب».. وهناك روايات يحكيها الشيخ عن النحاس تؤكد مانذهب إليه..

*** الرواية الأولى.. يقول الشيخ:**

«كنت وأنا طالب فى الأزهر أقوم بتقبيل يد النحاس عندما أقابله، وعندما تخرجت من الأزهر ولم تكن قد مضت أيام على هذا التخرج

ذهبت لزيارة النحاس باشا وكان يومها فى قصر الزعفران الذى تحول بعد ذلك إلى جامعة عين شمس وكان اليوم هو يوم الاحتفال بذكرى المولد، وكان معى حافظ شيحا الذى كان رئيساً لاتحاد طلاب الجامعة، وقررت بينى وبين نفسى ألا أقبّل يد النحاس عندما ألتقى به، فقد تخرجت من الأزهر منذ أيام وأصبحت أزهرياً يحمل شهادة الأزهر ولم يعد من اللائق أو المقبول أن أقبّل يده بعد ذلك...».

ويضيف الشعراوى.. أنه فوجىء...

«... فوجىء ـ عندما وضع يده فى يد النحاس باشا ـ بالنحاس يقلب يده ويرفعها إلى فمه ويقول له وكأنه يعرف ما أنتويه ولو بوس ياولد.. وفعلاً قبّلت يده»..

والغريب أن الشيخ يقول عن هذا الموقف كلاماً مختلفاً بعض الشىء حيث قال:

«أنا قلت له تعالى.. أنا كنت الأول واحد من الرعية أقبّل يدك لكن دلوقتى أنا المحسوب.. فقال لى: ولو».

ونحن لانكذب الشيخ ولن نسأله أى الروايتين حدث.. المهم أنه فى الحكاية الأولى قال: «وكأنه يعرف ما أنتويه».. وكأنه..

*** الرواية الثانية.. يقول الشيخ:**

«حدث ذات مرة أن كنت فى زيارة النحاس باشا وقابلت سكرتيره على قشاشه وقلت له إن النحاس باشا يضع فى يده خاتم كبير ومجعلص وشكله غير مقبول، وإننى قررت عندما أصافحه أن أقوم بسحب هذا الخاتم من يده، واندهش السكرتير من تفكيرى وحذرنى من فعل ذلك، وقال إن النحاس باشا عندما يغضب يضرب بعصاه ولكننى لم أسمع لهذا التحذير وجلست أنتظره، وجاء النحاس باشا وفوجئت وأنا أصافحه بأن الخاتم غير موجود فى يده».

هذه المرة أيضاً هل أحس النحاس بما كان ينتويه الشيخ.. ربما.. ورغم أن هذه القصة ليست لها أية دلالة، فربما يكون النحاس قد خلع الخاتم لأى سبب من الأسباب وحدث الموقف بالمصادفة البحتة.. لكن الشيخ يحكى هذا الموقف فى غمار حديثه عن الانبهار بالنحاس وكراماته وروحانياته.

*** الرواية الثالثة.. وهى الأهم والأخطر.. يقول الشيخ:**

«كانوا قد استدعوا زينب الوكيل «زوجة النحاس» للمثول أمام محكمة الثورة وأنا لا أنسى يوم نادانى أحمد الصاوى الذى كان يرد على تليفون النحاس باشا ويرتب له المكالمات التليفونية، لقد كلمنى فى التليفون قائلاً: تعال فوراً أحسن الجو مكهرب النهاردة، فسألته: حصل إيه، فقال: بلاش كلام فى التليفون تعال بسرعة، وذهبت إليه قال: النهاردة بعتوا شوية ضباط علشان ياخدوا «زينب هانم» زوجة النحاس باشا لكى تقف أمام المحكمة ولكنها عصلجت معهم وثارت وغضبت وشتمت وعملت اللى مايتعمل واتصل الضباط بجمال عبدالناصر وأبلغوه بما حصل فقال لهم: قولوا لها بكره الساعة ٨ صباحاً تلبس هدومها وتستعد وتنزل برضاها وتروح المحكمة.. وسمعت هى هذا الكلام فاشتد غضبها وأسرعت إلى النحاس باشا تقول له: ياباشا زينب الوكيل تتجرجر وتروح المحكمة؟» فأخذ النحاس باشا يهدىء من ثورتها ويقول لها: إن شاء الله مايحصلش يازينب إن شاء الله مايحصلش..

هذا الكلام كان الساعة ١١ صباحاً وكان من المنتظر أن يحضر الضباط ليجرجروا زينب الوكيل فى صباح اليوم التالى إلى المحكمة حسب أوامر عبدالناصر.. ولكن حدث شىء فى الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر، أى بعد ثلاث ساعات من أوامر عبدالناصر بأن يجرجروا زينب الوكيل، حدثت مقدمات العدوان الثلاثى على

بورسعيد وقامت الدنيا هنا وهناك ولم يحضر الضباط في اليوم التالى لجرجرة زينب الوكيل تنفيذاً لأوامر جمال عبدالناصر، ليس هذا فقط، فقد اتصل عبدالناصر بالنحاس باشا لا ليكلمه في جرجرة زوجته للمحاكمة وإنما ليسأله الرأى والمشورة في الموقف الصعب الذى يواجهه، وأشار عليه النحاس باشا بأن يتحمل الموقف وأن يتيح الفرصة للبعض من الوطنيين أن يتحركوا لحل الموقف، ودعا له وقال له: «الله يعينك» ..»

الله . . الله ياشيخ على كلامك وكلام النحاس باشا . .

والحمد لله أن الشعراوى لم يقل أن الله عاقب عبدالناصر بالعدوان الثلاثى بسبب هجومه على النحاس وزوجته . .

كل هذه الروايات يمكن أن تكون عن غير قصد من الشعراوى، فهو لايرغب ـ مثلاً ـ أن يضفى نوعاً من القداسة على أحد . . لكن منطق الروايات يقول غير ذلك، فهو مفتون بالنحاس باشا إلى أبعد حد.

فقد انفصل عن الإخوان بسبب النحاس، فبعد القصيدة التى قالها فى مدح مصطفى النحاس عاتبه الشيخ حسن البنا . . فقال له الشعراوى:

«ياشيخ حسن إذا استعرضنا زعماء البلد اليوم لنرى أقربهم إلى الله حتى نكون بأرواحنا معه فلن تجد إلا النحاس، فهو رجل طيب لايدخن سيجارة ولا غيره. فإن كان لابد أن نوالى أحد السياسيين فلابد أن يكون النحاس هو السياسى الذى نواليه.. وحينئذ قال الشيخ حسن البنا قوله الشهير: هو أعدى أعدائنا لأن له ركيزة فى الشعب، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يضايقنا، أما الباقون فنقدر أن نبصق عليهم جميعاً..» .

كان هذا عام ١٩٣٨م العام الذى انفصل فيه الشعراوى عن الإخوان المسلمين،

لكن فى عـام ١٩٤٢ وهو العـام الذى جـاء فـيـه النحـاس إلى الوزارة على دبابات الاحـتلال بما يعـرف بحادث ٢٢ فـبرايـر عام ٤٢.. هذا العـام كيف شكّل مـوقف الشعراوى من النحاس.. لندع الشعراوى يقول:

«برضه فى سنة من المواقف اللى ماتتنساش اللى كنا نحب أن تستمر لما النحاس جاء فى الحكم فى حادثة فبراير اللى قالوا عليها مش عارف إيه وقعدوا يلبسوا لها أسود، كنا نقول لهم ياناس انتوا يعنى ماتخدوهاش، طب هو لو كان بيكره الملك زى مابتقولوا ماكان مرضيش عشان الملك ينشال وخلاص، إذن هو حمى رمز البلد من أن يبعد يعنى وكتار عليه الغرض لحاجة إخواننا المخالفين الدستوريين ومش عارف إيه. مسكونا فى الجامعة الأزهر والجامعة وقالوا كنتم ياوفديين على رأسكم الوفد تطالبون بإلغاء الأحكام العرفية فاليوم أنتم حكمتم نطالبكم الآن بتحقيق ماطالبتم به الحكومة السابقة، فلما اجتمعنا علشان نشوف إيه المخرج من هذه المسألة الله هدانى إلى عبارة حلت المسألة قلت لهم نعم طلب الوفد إنهاء الأحكام العرفية من يد الحكومة السابقة فلما جاء تمسّك بالعرفية لاتعجبوا من هذا، فإن المشرط فى يد الجراح غيره فى يد السفاح ولما بلغت المرحوم نجيب الهلالى خلع طربوشه ورماه علىّ ونهينا الخلاف».

ياسلام ياشيخ.. أنهيت الخلاف.. أنا قرأت القرآن كله فلم أجد فيه هذه «الآية» التى قلتها وأن المشرط فى يد الجراح غيره فى يد السفاح.. فهل صحيح أن الخلاف حول حادث كبير كهذا انتهى بجملة واحدة.. والغريب أن الشيخ يحكى هذه القصة بمضمونها لكن مع اختلاف بعض الأحداث، فيقول:

«عندما جاء النحاس باشا إلى الحكم تجمع الطلبة غير الوفديين فى الجامعة وتظاهروا وهتفوا ضده وطالبوه بإلغاء الأحكام العرفية فوراً التى كان يطالب بإلغائها وهو خارج الحكم وتهجموا عليه بعبارات قاسية

وقالوا «يانحاس ياخناس ياللى أعلنت الإفلاس» يعنى عملوا شوية تهريج وأساءوا للوفد وللنحاس باشا وخشينا نحن الطلبة الوفديين أن يستمر هذا التهريج وأن ينتقل إلى بقية الجامعات، وقررنا أن نذهب إلى الجامعة وأن نرد عليهم وفعلاً ذهبنا إلى الجامعة ووقفت أنا على الشرفة وتركتهم يهتفون ضد النحاس ثم تكلمت وقلت لهم: «بارك الله هتافكم وبارك الله قبل ذلك نيتكم وأسأل الله أن يجنبنا هوى النفس وهو الشيطان وهوى الاستئجار، وأن تكون صرخة نابعة من الأمة ولعل الله يجعل فى عهد النحاس ألا يرى مبرراً بعد ذلك لبقاء الأحكام العرفية وافترضوا أن هناك ظروفاً يعلمها الحاكم ولا يعلمها المحكوم وأن هذه الظروف تجعله يختار الوقت المناسب لقراره، ولذلك أناشدكم أن تخرجوا أقلامكم وأن تكتبوا ما أقول «إن المشرط فى يد الجراح غيره فى يد السفاح».. وكان لكلمتى هذه أثرها.. وسمع النحاس باشا بما قلت فى الجامعة فقال لنجيب الهلالى وكان وقتها وزيراً للأوقاف شوفوا الشعراوى قال إيه.. وقام نجيب الهلالى وعمل اجتماع فى بيت الأمة وطلبنى وذهبت إليه وقال إن النحاس باشا عرف بكلمتك فى الجامعة وأنه سرّ بها كثيراً».

واختلاف الروايتين لايدلنا أن القصة لم تحدث.. بل هذا الاختلاف وحده هو الذى يدلنا على حدوث القصة.. لكن يبدو أن الشيخ يحكى أحداث حياته تبعاً للمواقف، فهو هنا لم يظهر زعامته وقيادته وريادته كما فى الرواية الأولى حيث إن كلمته فى الرواية الثانية كان لها أثرها، لكنها فى الرواية الأولى عملت على حسم الخلاف نهائياً..

الشعراوى كذلك استغفر الله أنه مدح ثورة يوليو لأنها لم تأت بالنحاس إلى الحكم وكان يظن ذلك فى البداية..

فى حياة الشعراوى تماثيل كثيرة منذ أن كان يصنعها فى قريته إلى يومنا هذا، كان أوضح وأبرز هذه التماثيل هو تمثال النحاس حيث وصل تعلق الشعراوى بالنحاس إلى درجة الافتتان ومحاولة إسباغ القداسة على أقواله وأفعاله..

تمثال الشعراوى الكبير..

لحظات نقضيها مع فرض..

لنفرض مثلاً.. أن البعض اقترح أن يقوم الشعب بالتبرع لصنع تمثال كبير للشيخ الشعراوى ووضع هذا التمثال فى أحد ميادين القاهرة.. وأخذت هذه الفكرة سبيل الجد واستجاب الناس لذلك.. هل سيقبل الشعراوى ذلك..؟!

الشعراوى رجل الدين سيرفض ذلك وسيكون رفضه مكللاً بمجموعة من الآيات والأحاديث وبرأى خاص للشعراوى فى مسألة التماثيل التى تُصنع للزعماء والقادة والعلماء حيث يرى الشعراوى أن هذه التماثيل تعتبر جزءاً من الجزاء الذى يأخذه هذا الزعيم أو القائد أو العالم.. وبهذا لايكون له ثواب فى الآخرة.. فمادام قد أخذ الثواب فى الدنيا.. فلا حق له إذن فى الآخرة.

هذا هو الشعراوى رجل الدين.. وهذا أمر منطقى للغاية، ولو قبل الشيخ لفتح على نفسه النار خاصة من أولئك الذين يتصيدون له الهفوات..

هذا الفرض إذن غير مقبول بالمرة..

لكن هناك كارثة كبرى أوقع الشيخ فيها نفسه وأوقعنا معه فى معتركها، فالشعراوى الذى من المؤكد يرفض أن يُصنع له تمثال مادى كبير يحرص وبقوة على أن يصنع له تمثال معنوى كبير.. ولتكن البداية من تلك الكلمة التى قالها لنفسه عندما

طلب منه طارق حبيب فى برنامج «من الألف إلى الياء» أن يوجه كلمة إلى الشيخ الشعراوى - أى إلى نفسه - قال الشيخ:

«اشكر من هيأ لك لقاء الآذان والأذهان واطلب منه ألا يكون آخر لقاء فإني أحب أن أستمع منك وأن أجيب عليك»..

فالشيخ يرغب فى الحديث.. يرغب فى الاستحواذ على الآذان.. ولذا لايمانع الشيخ مطلقاً فى أن يتحدث لأى شخص، وعليه فنحن نرى قصة حياة الشيخ فى عشرات الكتب وذكرياته فى مختلف المجلات..

وينضم كل من يكتب عن الشيخ إلى فرقة العاملين فى صنع تمثال الشعراوى المعنوى، والأمثلة كثيرة..

فمحمود فوزى يختتم كتابه «الشيخ الشعراوى من القرية إلى القمة» بقوله:

«وصافحت الشيخ الشعراوى، وبعد أن خرجت من صومعة الإيمان كانت لاتزال هناك عبارة ماثلة فى ذهنى، قالها مجيباً على الحكمة التى يؤمن بها هذا الشيخ الجليل بعد كل هذه الحياة الحافلة بالتجارب الثرية قال لى:

ألا يخلو بالك من ربك فهذا ينهى لك كل مشكلة ويخرج بك من أية أزمة أو أية كارثة مهما كان حجمها فى القلب حزيناً، إنه سميع مجيب الدعوات».

كلام جميل، لكن لنسمع ما قاله نفس المؤلف فى ختام كتابه «الشيخ الشعراوى.. العلاج بالقرآن وأمور الدنيا».. حيث يقول:

«وانتهى الحوار وتركت الداعية الإسلامى الكبير الشيخ الشعراوى فى صومعة الإيمان يقرأ القرآن فى خشوع وتبتل وكأن لسان حاله يقول قصدت الكافى بقلب صافى، كفانى الكافى ونعم الكافى».

وكلمـات الرجل على سذاجـتهـا وبعدها عن المنطق حـيث إنها تنزع إلى اللـغة الروائية أكـثر منها إلى اللغة الواقـعية التى يجب أن ترصـد الأحداث وتسجلها كـما حدثت، فالكاتب قام بتسجيل حوار طويل مع الشيخ ثم قام بتفريغه وصياغته، وعليه فهذه الجمل من قـبيل الديباجة لا أكثر، لكنها فى نفـس الوقت تلعب دوراً كبيراً فى رسم الصورة التى يرغب الشيخ فى رسمها لنفسه..

لايتوقف الأمر علـى ذلك بل إن الشعراوى فى كتابات البـعض يصل إلى درجة المسيطر والمهيمن علـى كل الأمور التى يكون طرفاً فيها، يظهر هذا واضـحاً فى كتاب سعيد أبو العينين «الشعراوى.. حكايتى مع هؤلاء»، ورغم أن هؤلاء الذين يقصدهم الرجل هم ملوك ورؤساء ووزراء لكنه يقول:

«بعض هذه الشخصيات كان لها مواقف حادة مع الشيخ وبعضهم دخل معه فى صدام، وبعضهم أصر على أن يحول الحوار الهادىء إلى مبارزة بالكلمات تستهدف ماهو أكثر من إسالة الدماء وهى الإساءة والتجريح الشخصى، وبعضهم التقى مع الشيخ على الود والمحبة فى مواقف مشتركة».

وإذا كان بعض الذين يكتبون عن الشيخ يجعلونه دائماً بؤرة الأحداث فإنه يشارك فى ذلك بقسط وافر حـيث لاتخلو كلمات الشيخ عن نفسه مطلقـاً من عبارات مثل: «قلت لهم كذا.. أشرت عليهم بكذا.. رفضت التصرف الفلانى.. رفضت أن أقابل عـبدالناصـر.. قلت للسادات كـذا.. أنا الوحـيد الذى رفض قـرارات حكوميـة.. استـقبلـنى الملك حسـين.. كنت لسان المصـريين فى السعـودية».. وغيـر ذلك من العبارات والكلمات التى تعطيك الإيحاء أن الشـيخ بالفعل يضع نفسه فى خانة صانع التاريخ، ولذا معظم الذين يكتبون قصة حياة الشيخ دائماً مايصدرون كلامهم بأن هذه شهـادة الشعراوى للحـقيقـة وللتاريخ.. لهم مطلق الحرية فى قـولهم.. ولنا مطلق الحرية فى أن نستكمل حديثنا..

يحرص أيضـاً الشيخ الشعـراوى على تدعيم الجـانب الإنسانى فى حيـاته، فمن أغرب ماقاله الشيخ أثناء أحد الحوارات الصحفية معه:

«لغاية النهاردة أطبخ حاجتي بنفسي.. ونادى الشيخ على صبى صغير..

ـ ياواد يا أحمد.. ياوله... (وجاء الصبى)..

ـ نعم يامولانا.

وسأله الشيخ: مين اللى عمل الأكل إمبارح؟

ـ أنت يامولانا.

قال الشيخ: وصالحة جابت إيه معاها من السعودية؟ (وصالحة هى بنت الشيخ).

ـ جابت ملابس.

قال الشيخ: وإيه تانى؟

ـ جابت سكاكين وحاجات للمطبخ.

قال الشيخ: ومين اللى أكل معانا؟

ـ الحرس اللى قاعدين بره.. (وانصرف الصبى)..».

ماهذا السخف.. فهذا المشهد لايتعدى مشهداً فى أحد المسلسلات التليفزيونية الفاشلة.. فالشيخ طيب القلب ولاتحتاج طيبة قلبه أن ندلل على ذلك بأن نجعل حرسه يأكلون معه..

وتضافراً لإتمام جزء الإنسانية فى تمثال الشيخ لنقرأ سوياً هذه الكلمات التى جاءت فى مقدمة أحد الحوارات معه:

«كان الشيخ يحدثنا وهو جالس على الأرض فى الفراندة الصغيرة المؤدية إلى غرفة نومه فى بيته بالهرم وإلى جواره الجهاز الذى يستخدمه كلما أحس بالضيق فى صدره وأمامه طبق من الفول المدمس وقطعة صغيرة من الجبنة القديمة وطبق به قطع من البصل والطماطم، ونادى الشيخ على الذين يخدمونه وقال مفيش عندكم حتة جبنة كبيرة شوية غير الفتفوتة دى؟».

ليس الشيخ وحده هو الذى يتحدث عن فيض إنسانيته وجوانبها المتعددة والمتفرقة، بل هناك عدد من دراويش الشيخ يبالغون فى محاسن الرجل.. ولهم العذر فمادام الشيخ يحرص على الحديث عن هذه الناحية من حياته.. وبهذا المنطق لو قال الشعراوى لهؤلاء أنا شطرت القمر نصفين لقالوا له يامولانا بل ثلاثة أجزاء..

قد يكون كل ماسبق مقبولاً.. لكن غير المقبول أن يحرص صانعو تمثال الشيخ على أن يكون الشيخ مكتملاً فى كل النواحى فهو عالم الدين والطبيب والمهندس والكيميائى والفيزيائى.. ولو استطاعوا لقالوا أنه لاعب الكرة الأول والسباح الأول..

فمن أسخف ماكُتب فى هذا الشأن ماجاء فى كتاب «الفتاوى» الذى كما جاء على غلافه أعده وعلق عليه د. السيد الجميلى.. يقول الدكتور الفاضل فى صفحة (١١) تحت عنوان «الشعراوى طبيباً» مانصه:

«أخذ الحديث بيننا مداه.. بين فضيلة الإمام الجليل الشيخ محمد متولى الشعراوى وبينى، وتطرق الكلام إلى مسألة طبية غاية فى الدقة، فوجئت بالعالم الجليل يشرحها شرح الطبيب الممارس الذى تدرب على أصول الطب العلمية فى المعامل والمختبرات يشرح باستفاضة ويتكلم بثقة ويبين بدقة وقد كنا ونحن طلبة فى كلية الطب نسمع المحاضرة ثم نطبق الجزء العملى عليها فى المختبر بتجارب عملية، وكان الأساتذة يشرحون رؤوس المواضيع وكانوا بشرحهم فى الغالب تتعقد المسائل وتعوزنا جهداً جهيداً فى مراجعتها والتحقق من تفاصيلها حتى تثبت فى الذهن لترسخ فى العقل وبعد فينة وحقبة من الدهر وقد مارسنا الحياة العملية بكل متاعبها ومشاقها والتزاماتها، لكن وأنا طبيب باحث أعود مرة أخرى تلميذاً فى الطب للدكتور محمد متولى الشعراوى».

شكراً يادكتور.. لكن من أجلنا رفقاً بعقولنا..

وإن لم تكن تخاف على عقولنا فرفقاً بعقلك أنت.. فلو كان للمجتمع حق

لكان من حقه أن يرفع عن هذا الدكتور شهادته، والمبرر هو السفه.. فالمنطق الذى يتحدث به الدكتور به قدر لايطاق من السفاهة.

أخشى من كل مايحدث أن نتحول نحن بدورنا إلى سفهاء فنتصور أن الشيخ يسحر هؤلاء فيجعلهم يتحدثون بهذه الطريقة..

كل هذا الكلام يمكن أن نغفله إذا كان منعدم التأثير..

لكن أثره كما يقولون ينتشر.. وينتشر.. ويتوغل.. ويدمر.. الخطورة بالفعل أنه يدمر.. لن يضيرنا بالطبع أن يكون للشعراوى ألف تمثال تنتشر فى أرجاء مصر.. فالرجل به جوانب كثيرة نحبه ونحترمه من أجلها..

لكن أن يكون هناك تمثال معنوى للشعراوى تخضع له العقول فلا تعترض عليه ولا تناقشه.. هنا تسكن الكارثة التى أورثت مجتمعنا مجتمعاً تسكنه الخفافيش والغربان والبوم..

من العقل أن نقول أن الوقت حان لأن نناقش ونسأل ونعترض ونتبادل الحوار فى كل شىء وعن أى شىء..

الوقت حان حتى نفك عقدة لساننا التى تمنعنا من الكلام حتى عن ديننا..

خطورة مثل هذه التماثيل ليست فى سيطرة أصحابها بقدر ماهو خوف من أنه عندما يخطىء هؤلاء نصمت ونتبع أقوالهم.. فهم العلماء.. وهم رجال الدين..

لاتحرقنا رغبة فى الهجوم على أحد.. فنحن لانريد أن نهدم الشعراوى الإنسان.. بل نرغب فى هدم الشعراوى التمثال.. والفارق كبير..

الشيخ يكذب أحيانا..

لم تصل قامة السادات إلى نفس مستوى قامة النحاس عند الشعراوى.. فلم يلقب الشعراوى السادات بالرجل الطيب مثلاً.. ولا حتى غير الطيب.. لكن الشعراوى أعطى السادات فقط المرحوم..

وعليه فالشعراوى لم يمارس هوايته مع السادات فلم يصنع تمثالاً له.. فقط نجد نوعاً من الانبهار بشخصية السادات فى أفعاله وأقواله..

وكان السادات على الضفة الأخرى يتبادل الاحترام والتقدير مع الشعراوى فوجه الشبه بينهما كان كبيراً..

ومن كلام الشعراوى عن السادات لانجد هناك اختلافاً فى وجهات النظر أو فى المواقف، وذلك بخلاف ذلك الموظف الذى طرده الشعراوى من الوزارة فى أول يوم له فيها..

كان هذا الموظف قد استبد به الطغيان وأصبح له نفوذ ليس من السهل القضاء عليه..

المفاجأة كانت أن الرئيس السادات أصدر قراراً بخط يده يوصى فيه بإعادة هذا الموظف إلى وزارة الأوقاف وضرورة رد اعتباره، وكان هذا الموقف هو الذى اختلف فيه السادات مع الشعراوى أو العكس.. لايهم..

وصل الأمر بالشعراوى إلى أنه ما من مرة يقارن فيها بين عبدالناصر والسادات إلا انتصر فيها للسادات على عبدالناصر.

وأوجه الشبه بين الرجلين كثيرة، من أهمها..

فالشعراوى تشعر فيه بالرجل الفلاح الذى يحرص على مظهر القرية ومضمونها ويردد ألفاظ أهلها.. السادات أيضاً كان كذلك.. ولم يكن الشبه مصادفة، لكنه كان تأثراً.. يقول الشعراوى:

«أنا التقيت بالسادات فى ميت أبو الكوم مرة أو مرتين وأنا وزير والسادات كان رئيس دولة وكان رجلاً ثورياً، كل هذا صحيح ولكنه كان يعطينى الانطباع وهو فى ميت أبو الكوم بأنه كان يتمنى فى نفسه أن يكون من أعيان الريف الكبار، فهو يرتدى ملابس الريف ويتكلم لغة الريف وله طبيعة أهل الريف عندما يتحدث مع الأهالى، وكل هذه الأمور تعطى له شخصية أخرى».

شىء آخر.. وهو التاريخ النضالى لكل من السادات والشعراوى..

فالسادات في مرحلة هامة من حياته قال أنه سجن وبعد هربه كان يتنكر فى أشكال مختلفة، فتنكر فى ملابس العرب مرة وتنكر فى زى العمال مرة أخرى، وذلك كله حتى يتخفى ممن يترصدون له..

الشعراوى أيضاً قال ذلك حيث حكم عليه بالسجن، لكن قبل أن يُسجن كان يتخفى من قوات البوليس، فكان يتخفى فى صورة بائع عيش ويحمل على كتفه طاولة مملوءة بالخبز ويركب عجلة ويدخل إلى القسم الداخلى فى الأزهر حتى يتقابل مع زملائه..

العلاقة بين الرجلين - إذن - كانت قوية للغاية.

وعندما وقعت أحداث ١٨ و١٩ يناير لم يترك الشعراوى صديقه السادات، فقد ذهب إلى التليفزيون وألقى بياناً نارياً، وفى الجمعة التالية للأحداث ألقى خطبة حماسية فى الجامع الأزهر..

لكن يبدو أن الشعراوى لم يكتف بالبيان والخطبة ووقف في مجلس الشعب ليقول كلمته المشهورة التى يحتج بها الجميع عليه، حيث قالوا أن الشعراوى وقف فى مجلس الشعب ليقول:

«لو كان الأمر بيدى لرفعت الذى انتشلنا مما كنا فيه إلى قمة ألا يُسأل عما يفعل».

هذه هى العبارة.. البعض يؤكدها.. والشعراوى ينفيها.. وتعالوا نقرأ ماقالوه.. ففي مجلة «التوحيد» العدد ٦ صفحة ٣٦ مقال بإمضاء المجلة.. قالت فيه:

«ثم زاد الشيخ الطين بلة حين وقف فى مجلس الشعب وأثبت فى مضبطة المجلس قسمه بالله عز وجل قائلاً مانصه:

والذى نفسى بيده لو كان الأمر بيدى لرفعت الرجل الذى انتشلنا مما كنا فيه (يعنى الرئيس أنور السادات) إلى قمة ألا يسأل عما يفعل.. وهنا اعترضه الشيخ عاشور عضو مجلس الشعب وقتئذ لأنه ليس هناك أحد فوق المساءلة مستنداً إلى قول الله عزل وجل: ﴿لايُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾، فأسكته الشيخ الشعراوى وهو فى قمة حماسه وتمجيده لصاحبه الذى لايُسأل عما يفعل بقوله للشيخ عاشور مكرراً القول: (أنا أعرف بالله منك أنا أعرف بالله منك)، وليس خافياً أن الشيخ بهذه الجملة المكررة قد أثبت لنفسه معرفة الحقيقة التى تجب الحجة الشرعية التى نادى بها الشيخ عاشور فى مجلس الشعب، وهذا منهج صوفي واضح، هنيئاً للشيخ به.. وكانت ثالثة الأثافى حين خرج علينا الشيخ الوزير وقتئذ بحديث صحفي فى جريدة الأهرام استغرق صفحة كاملة هاجم فيها الذين اعترضوا على عباراته المقدسة فى مجلس الشعب واصفاً إياهم بأنهم جُهّال لأن (لو) التى سبقت عبارته القدسية حرف امتناع وظن أنه بذلك قد خرج من

مأزق رفع الرجل إلى قمة المساءلة عما يفعل، ولكن الشيخ لم يفطن إلى أن الذين سماهم جُهّالاً لايعرفون أن قوله (لو) كان للتمني وليس للامتناع فحسب، فهو قد أقسم بالله عز وجل أنه لو كان الأمر بيده لرفع الرجل، أي تمنى مقسماً بالله عز وجل أن يكون قادراً على مجازاة ولي نعمته الجزاء الأوفى، ولكن امتنع عليه الجزاء لأنه ليس في مقدوره إصدار صكوك الغفران، ولو ملكها لفعل، والذين سماهم الشيخ الشعراوى جُهّالاً لايقرأون فى كتاب الله عز وجل قوله ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾، وقوله: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾، حيث (لو) للتمني، ولكن حال دون وقوع أمانيهم حفظ الله ورعايته للرسول والمؤمنين».

فى موضع آخر ذكر المستشار سعيد العشماوى فى مقاله المنشور فى عدد «روز اليوسف» الصادر فى ١/ ٥/ ١٩٩٥، مانصه:

«هذه الآيات التى استعملت خطأ مدى التاريخ لتثبيت سلطان الحكام وإضفاء عصمة عليهم مازالت حتى اليوم تستعمل بذات الخطأ ولنفس الأهداف بل إن واعظاً لغوياً قال عن الحاكم إثر أحداث ١٨، ١٩ يناير عام ١٩٧٧م «لايُسأل» أى الحاكم «عما يفعل وهم..» أى خصومه «يُسألون»، مع أن سياق التنزيل وواقع الآية يفيد أن المقصود بها ذات الله سبحانه».

وإن كان الرجل يتحدث فى منحى آخر لكنه أثبت هنا ماحدث وكان يقصد الشعراوى بالطبع.. ومع اختلاف الصياغة لكن الجوهر يدلنا أن الموقف حدث وأن الشعراوى قال هذا الكلام.. أو أشار إلى هذا المعنى على الأقل..

لكن ماذا قال الشعراوى عن هذا الموقف؟..

قال الشعراوى:

«هذا الكلام كذب!! مين اللى قال كده؟! أنا ماقلتش كده.. أنا باقول لو أملك من أمرى ما أسألهوش عن شىء لأنه هو راجل رئيس دولة يعلم ما لا أعلم، يقوم لما يحب واحد يكون له مصلحة عنده لكن مش عندى أنا باتكلم بالذى عندى، هو عنده شىء يريد أن يكرم واحداً عنده هذه هى مسألته وما أسألهوش عن فعله لأن عنده أشياء ليست عندى».

قبل أن نمضى.. . مامعنى هذا الكلام؟! فأنا فعلاً لا أفهمه.

مرة أخرى تحدث الشيخ عن هذه الحادثة.. قال:

«الذى يردد هذه العبارة فى غير السياق الذى قيلت فيه والمعنى المقصود منها هم الخصوم وأى إنسان ينجح فى أداء عمله لابد أن يكون له خصوم وهؤلاء الخصوم إن علموا الخير أخفوه وإن علموا الشر أذاعوه وإن لم يعلموا بشىء كذبوا».

نكتفى بذلك من كلام الشيخ الذى قال مرة أن هذا الكلام كذب ثم تحدث بكلام غير مفهوم، ثم يقول فى موضع آخر: «الذى يردد هذه العبارة فى غير السياق الذى قيلت فيه..».. معنى ذلك أنك قلتها يامولانا.. لايهمنا إذن مبرراتك.. لكننا نحزن على عالم كبير مثلك أن يكذب أو تكون فى حياته مثل هذه الهفوات.. فقط نطمع أنك أحياناً وأقول أحياناً تكذب!!

والجــن أيضــا..

هجوم شرس ذلك الذى يواجه الناس الآن..

والجيش هو جيش الجن.. عفواً أقصد كتب الجن..

فنظرة بسيطة على كتب الأرصفة بل وفى معظم المكتبات تجد مثل هذه العناوين:

- «عالم الجن.. أسراره وخفاياه».
- «المس الشيطانى وعلاجه».
- «حوار صحفى مع الجنى المسلم كنجور».
- «تجربتى فى إخراج الجان وإبطال السحر».

وغيرها الكثير.. سيل من هذه الكتب التى تختلط فيها الخرافات ولها الجانب الأكبر بالحقائق التى تكاد تنعدم..

والسؤال: ماهو موقف علماء الإسلام من هذه الظاهرة؟

فهى بالفعل أصبحت ظاهرة، حيث الأمر لم يعد يقتصر على مجموعة من الكتب تشتريها فئة معينة بل إن صفحات الحوادث تطالعنا بين فترة وأخرى أن شخصاً لقى حتفه على أيدى بعض الذين كانوا يعالجون لإخراج جن من جسده.. المسألة إذن

وحتى الآن تحتاج لتدخل من قِبل العلمـاء.. ولا أقصد بالعلماء رجال الدين فقط.. بل العلماء فى جميع المجالات.

الشىء الغريب الذى نصادفه أن هناك انقساماً بين علماء الدين، فالبعض يؤكد أن الجن يمكن أن يمس الإنسان بل ويسكنه ويستندون غالباً إلى حديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق»**.

فى ناحية أخـرى يقف مجموعة من العلماء يؤكـدون أن هذا لايحدث مطلقاً.. لكن أين الشعراوى من كل ذلك؟..

نرجع إلى عام ٨١ حـيث أفتى الشـيخ فى هذا الشأن بفـتوى نُشرت فى كـتاب «الفـتـاوى»، ثم نُشـرت بعـد ذلك عـام ٨٥ فى العـدد ٧٨ من مـجلة «التـصـوف الإسلامى».

كان السؤال: هل يـتشكل الجن بسرعة خاطـفة فى صور مختلفـة؟ وهل له تأثير على حركة الإنسان فى الحياة؟

وكانت الفتوى:

«أجل يتشكل الجان بسرعة خاطفة لأنه إذا تشكل بشكل حكَمه ذلك الشكل، فإذا أخذ صـورة مادية خـضع لقانون الماديات، فمن الممكن قـتله برصـاصـة أو ذبحـه بسكين، قال ـ صلى الله عليـه وسلم ـ لما تمثل له الشيطان: «لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ليتفرج عليه صبـيـان المدينة».. وحين يُربط الشـيطان لايستطيع فكاكاً لأن قـانون المادة يحكمه»!!

والفتـوى قاصـرة للغاية ولم تقـدم جواباً لسـؤال يبحث عن التـشكل والتـأثير، فالشـيخ أفاد أن الجن يتـشكل لكنه لم يتطرق إلى مـسألة التـأثير مطلقـاً.. وإن كان الشعراوى لم يتـعرض هنا لمسألة: هل يسكن الجن إنساناً أم لا؟ فإنه فـجر نقطة هامة جداً تسود فى بعض الأوساط حيث إن الجن مادام يـتشكل فى صورة مادية فيمكن أن

يتشكل فى صورة إنسان. . وإن تشكل فى صورة إنسان تحكمة القوانين نفسها التى تحكم الإنسان وعليه نسأل الشيخ:

- هل يمكن لرجل أن يتزوج من جن أنثى؟

- وهل يمكن لأنثى أن تتزوج من جن رجل؟

الإجابة قالها الشيخ دون أن يدرى. . حيث إن القوانين التى تحكم الجن عندما يتحول إلى إنسان تمكنه مثلاً من ممارسة الجنس مع الإنسان. . وعليه يمكن أن يحدث الزواج. .

والمصيبة أنه بالبحث فى تراثنا نجد أن الإمام مالك يقر بمسألة زواج الجن من الإنسان، فهذا طبيعى لكن يمنع الوالى أو القائم بأمور المسلمين مثل هذه الزيجات ولايعترف بها الناس، حيث إنها يمكن أن تساعد على الفساد، فكلما حملت امرأة سفاحاً يمكن لها أن تقول أن لها زوجاً من الجن.

ربما أن الشيخ لم يكن يقصد ذلك. . لكن مضمون فتواه يفضح ما لم يكن ينتويه الشيخ. . هذه مرحلة. .

المرحلة الثانية، عندما نشرت بعض الصحف أن الشيخ الشعراوى أخرج جنياً من جسد مريض، وقد دار بينهما حوار، كان فى نهايته إخراج الجنى من جسد هذا المريض بسلام، وذكرت هذه الصحف تعليقاً على ذلك أن الشيخ شعراوى قال بعد إخراج الجنى من جسد المريض:

«لقد خرج الجان بلا رجعة ولأننا مؤدبون سنقول له مع السلامة وندعوه إلى الاستماع إلى القرآن من مسلم جلس خاشعاً مؤدباً وإلا فليعلم أن الله سيفضح إيذاءه ويكشف سره».

ونحمد الله، فالشيخ أجاب هنا على الشق الثانى من السؤال الذى طُرح عليه فى البداية، فالجن بجانب أنه يتشكل فى صور مادية فله قدرة على إيذاء الناس. .

كان هذا الموقف من الشعراوى سبباً فى الانقسام حول الشعراوى مرة أخرى، فالبعض أعجب بالشيخ وبتقواه وإيمانه، حيث إنه راسخ فى الفكر البدائى لبعض المسلمين أن إخراج الجن يحتاج إلى رجل صاحب تقوى وإيمان ويستندون فى ذلك إلى رواية تحكى عن الإمام أحمد بن حنبل إذ أنه اشتهر بإخراج الجن من هؤلاء المرضى بلبس أو سكن شيطان فيهم، وكان يقول للجنى: «أنا أحمد بن حنبل فاخرج» فيخرج الجن مسرعاً!! وإذا كان الإمام مشغولاً يرسل أحد تلاميذه فيقول للجنى: «أنا تلميذ الإمام أحمد بن حنبل والإمام يقول لك اخرج» فيخرج الجنى مسرعاً!! وبعد موت الإمام ملئت المدينة بالجن والعفاريت.

كانت هناك فئة أخرى وقفت للشيخ بالمرصاد..

ففى عدد مجلة «روز اليوسف» ٣٤٤٩ فى ١٨/٧/١٩٩٤م.. صدرت المجلة وعليها إناء يخرج منه دخان كثيف وفى وسط هذا الدخان تطاير رأس الشيخ الشعراوى وامتلأت نظرة عينيه شرراً.. وفى الصفحات الداخلية تجد نفس الصورة وعنوان التقرير الذى كتبه أسامة سلامة يقول:

«التجارة بالدين فى سوق الشعوذة والجن.. الشعراوى يناقض نفسه، يستخرج الجن من شاب ويؤكد أن مستخرجى الجن لاينفعون أنفسهم!!».

ومع أننا لسنا مع الشيخ على طول الخط.. لكننا أيضا لانحمل سكيناً طول الوقت حتى نمزق جسد هذا الرجل..

فهناك كثيرون من العلماء الذين يؤيدون هذا الموقف، لم يتعرض أحد منهم إلى الهجوم الضارى الذى تعرض له الشيخ.. قد يقول البعض أنه الشعراوى بما له من مكانة عالية وقيمة كبرى وتأثير متسع على كثير من الناس والمفروض أن يحاسب فى كلامه وفى تصريحاته وفى أفعاله..

والغريب أن الشعراوى لم يرد مطلقاً على هذا الهجوم ولم يبن أنه فعل ذلك أو

لم يفعل.. حتى جاءت الحوارات التى أجرها مع الشيخ سعيد أبو العينين فى مجلة «آخر ساعة».. بدأ الحوار هكذا:

«دون مقدمات سألت الشيخ الشعراوى عن حكايته مع الجن.. قلت: قل لنا يافضيلة الشيخ، كيف ضربت الجن؟ وهل ضربته بالعصا أم بالزخمة؟ وماذا قال لك الجن وأنت تضربه؟ وهل صحيح أن هذا الجن رفض الخروج من جسد الإنسان الذى لبسه إلا على يديك أنت، على يد الشيخ الشعراوى؟ وهل صحيح أنك قلت لهذا الجن اخرج طائعاً أو أخرجك مكرهاً فخرج بعد مداولات معك؟ وهل صحيح أنك قلت أن الجن خرج من جسم الرجل بلا رجعة وأننا نقول له مع السلامة لأننا مؤدبون وندعوه إلى الاستماع إلى القرآن من مسلم جلس خاشعاً مؤدباً لآيات الكتاب المبين؟

كانت تساؤلاتى متلاحقة وكان الشيخ يصغى باهتمام...».

والكارثة أن الأسئلة كانت متلاحقة والشيخ صامت يصغى باهتمام، فهذه المقدمة الطريفة تؤكد لنا أن كل هذا حدث.. فمادام هو صحفياً ويسأل، فالمفروض أنه يعرف بعض المعلومات عن الذى يسأل عنه.. ولو كان يريد أن يخبره الشعراوى هل هذا حدث أم لا.. فليس من الصحيح إذن أن يقول له: قل لنا يافضيلة الشيخ كيف ضربت الجن؟ وهل ضربته بالعصا أم بالزخمة؟ وماذا قال لك الجن وأنت تضربه؟ إلى آخر مقدمته.. معنى السؤال أن هذا حدث بالفعل وهو يريد أن يسترجع الحدث مع الشيخ..

نستكمل الكلام المكتوب..

«... وقلت موضحاً لما طرحته من تساؤلات: ألم يقرأ فضيلة الشيخ هذا الكلام منشوراً فى إحدى المجلات؟ لقد قرأناه نحن فى سياق موضوع تصدر غلاف هذه المجلة وكانت عناوين الموضوع تقول بالخط العريض:

ـ الشعراوى يستخرج الجن.

ـ ٥٨ قتيلاً على يد شيوخ الدجل..

ـ التجارة بالدين فى سوق الشعوذة والجن.

ـ الشعراوى يناقض نفسه، فهو يستخرج الجن من شاب ويؤكد فى الوقت نفسه أن مستخرجى الجن لاينفعون أنفسهم.

وقلت: نريد أن نعرف الحقيقة.. حقيقة كل هذا الكلام.

وأول مانريد معرفته هو.. كيف ضربت الجن؟!...».

والتعليق الوحيد على هذا الكلام هو: لك الله ياشيخ شعراوى مع أولئك الذين يحاولون تسجيل حياتك أو تقديم مواقفك للناس..

فبعد أن قال الصحفى بعد الجزء الأول من مقدمته أن الشيخ كان يصغى باهتمام، قال بعد الجزء الثانى من مقدمته: قال الشيخ مستغرباً مندهشاً من تلك التساؤلات:

«لا أنا ضربت الجن.. ولا أنا تكلمت معه»!!

لم تكن هذه الكلمات تكفى حتى نقول للشيخ صدقنا كلامك.. لكن هناك كلمات أخرى.. يقول الشيخ:

«الحكاية هي أن بعض الناس يأتون هنا ويدعون أن عندهم جن، فأقول لهم أن طبيعة الجن تختلف عن طبيعة الإنسان، فالجن مخلوق من نار والإنسان مخلوق من طين وبالتالى لايمكن أن يدخل الجن جسد الإنسان وأن الجن لاسيطرة له على الإنسان ولا يعلم الغيب ولا يتلبس بالإنسان وكل مايفعله هو أنه ينزغ فى الإنسان بالوسوسة، ولكن ربنا أعطانا المناعة فى قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾..

لكن أحدهم يصرّ أن عنده جن، فقلت له نعمل تجربة، سنضربك

بالزخمة فإذا أحسست بالضرب يبقى مفيش جن وإذا لم تحس بالضرب يبقى فيه جن، قلت له هذا وأنا أغمز للحاضرين، وفعلاً أمسكت بالزخمة وهى قطعة من الجلد وأخذت أضربه، فلما أوجعه الضرب صرخ قائلاً: خلاص ياعمى الشيخ.. الجن خرج.. كفاية كده.. وضحكنا وقلت للشاب ياابنى لاتتوهم أن عندك جن لو كان هناك جن لبسك وأنا ضربته وآذيته فالمفروض أن ينتقم من الذى ضربه فيخرج من عندك ويأتى عندى ولكن هذا لم يحدث.. وانصرف الشاب راضياً».

والحكاية على سذاجتها لكن الشيخ يريد أن يؤكد من خلالها أن كل ماأذيع عن ضربه للجن وإخراجه له ليس له أساس من الصحة.. وإن كان يكفينا كلام الشيخ فهو بمثابة الكلام العقلانى المنطقى حيث بالفعل الجن نار والإنسان طين، ولايمكن أن تلتقى الذوات المختلفة.

وإن كنا نصدق عن الشيخ أنه لم يضرب الجن أو يتحدث معه..

لكن الشيخ هنا عليه تحفظات عديدة..

- فالرجل لايتذكر ما قاله قبل ذلك فى أمور بعينها، حتى أنه يمكن أن يفتى بشىء فى موضوع وبعد فترة يفتى فى نفس القضية بشكل آخر.. وفى هذه المسألة بالذات حيث تحدث عن تشكل الجن فى أى صورة مادية ومادام الشيخ يعلم ذلك فإن الجن قد تكون له سيطرة أو سلطان إذ يمكن عن طريق هذا التشكيل أن يخدع الإنسان أو يتسبب فى إيذائه بأى شكل من الأشكال..

- شىء آخر، حيث إن هناك بعض الكتب التى استفاضت فى ذكر مواقف الشيخ الشعراوى من الجن، من هذه الكتب كتاب أسامة الكرم، وهو صحفى كتب «حوار مع الجن»، حيث كتب أن أحد الجان رفض الخروج من جسد الإنسان الذى لبسه إلا على يد الشيخ الشعراوى، وبالفعل استقبلهم فى أحد فنادق الهرم... إلى آخر الرواية.

ولكن الشعراوى رجل دين، والإساءة ليست إساءة شخصية له بل إساءة للدين الذى يتحدث فيه، فكان من المفروض أن يرد على هذه الأكاذيب التى يُزج باسمه فيها. .

الشىء الأخير والأهم هو أن الشيخ إذا كان علِى حق فلماذا لايرد على أولئك الذين يهاجمونه ويؤكدون بالدليل تناقضه فى المواقف والأقوال؟ فموقف الشيخ سلبى للغاية، وسلبيته تلك لاتليق مطلقاً بعالم دين، فالشيخ يقول:

«أنا لا أهتم بمثل هذا الكلام، فأنا عندما أرى توقيع الكاتب أعرف ماذا يقول عنى، فالكاتب وهويته وإلى أى شىء ينتسب هو المهم عندى، فإذا تحامل أو تهجم أحدهم علىّ فإن توقيعه يكون كافياً للرد عليه..» .

بالطبع ليس كافياً يامولانا. . فنحن لن نقبل أن تتحدث فقط ونسمع، ولكن عالم الدين الذى لايرد ولا يتناقش ولا يدخل معاركه بحجج مقنعة لايستحق أن نشير إليه ولا حتى بكلمة طيبة. . أليس كذلك؟!

الذين يكتبون للشيخ.. والذين يكتبون عنه..

عندما تجد كتاباً يحمل اسم الشعراوى أو صورته لاتتسرع وتشتريه. . وإن كنت مصمماً على شرائه، فقط نريد أن نقول لك: هذا الكتاب لم يكتب الشيخ الشعراوى فيه كلمة واحدة. . وليست له أية علاقة به. . لسبب بسيط هو أن الشعراوى لايكتب مطلقاً. .

لست أدعى أو أكذب على الرجل. . فقط اسمع هذا المقطع من حوار دار مع الشيخ الشعراوى:

«ـ رأى حضرتك فى الرقابة الآن.. دورها الحالى؟

ـ أنا أولاً لم يحدث لى اصطدام معها فى أى شيء لأننى لم أؤلف شيئاً.. الناس عمالة تأخذ منى وتكتب هى، هم اللى يصطدموا..

ـ إذن الكتب اللى فى السوق مش كتبك؟

ـ والله، الله يعلم إحنا بنشتريها زى الناس».

الشعراوى إذن لايكتب مع أن كتبه هى أكثر الكتب التى تنتشر فى الأسواق ويشتريها الناس ولايزين اسم الشعراوى الكتب التى تتناول تفسير القرآن فقط، بل إن الشعراوى الآن أصبحت له كتب فى السيرة النبوية وقصص الأنبياء والفقه والحديث وكل فروع الدين. .

والسؤال هو: ما أثـر ذلك على قيمة الشعـراوى العلمية؟ هل يؤثر جيـش الكتبة على مايقوله الشيخ وتنتجه قريحته؟ هل يقع هناك شىء من التناقض بين هذه الكتب؟

نسمع الشيخ يقول عن ذلك:

«والله إلى الآن لم يحدث».

وكلمة الشـيخ يجب أن يكون لها مـايسندها، كأن يكون قـائماً هو بنفـسه على مايصدر باسمه من كتب أو على الأقل يكون هناك من يتـابع ماينشر باسمه، وإذا كان الشخص يجزم أنه لاتناقض بين مايُكتب فنحن نهدى له هاتين الواقعتين..

فقد جاء فى كتاب «الفتـاوى» صفحة ٣٥١، وهو الكتاب الذى أعده وعلق عليه دكتور السيد الجميلى.. جاء سؤال يقول:

«مـاهو ثواب التبـرع بالدم؟ وهل من حق المتبـرع أن ينال جـزاء على ذلك؟ وهل الحصول على جزاء يلغى ثواب التبرع؟ نرجو الإفادة من فضيلة الإمام».

وقال فضيلة الإمام:

«إن مـجرد التبرع بالدم ولو أخذ عليـه أجراً يوجب الثواب، لأن هذا العمل قد يساعد فى إنقاذ حياة إنسان خصوصاً بعد أن أمكن الطب الحديث الاستفادة بالدم الموجود ولو بعد فترة، مادام القدر الذى يتبرع منه عند التبرع لايضعفه ولايؤذى صحته ودليل ذلك أنه من الممكن أن يجـرح إنسـان عـفواً وينزف كـمـيـة كـبيـرة من الدم قد تزيد عن الكميـة التى تؤخذ منه عند التبرع، وعندما يتوقف الجرح فلا يؤثر الدم المفقود على حياته ولو على عموم صحته إذا كان أصلاً ذا صحة وعافيـة، بل وأكثر من ذلك فإن الدم يتجـدد ويستعيض الجسم الدم المفقـود وبذلك فمادامت كمية الدم الذى يتبرع به الإنسان من دمه لايؤثر على صحتـه وكان ذلك تحت إشراف ورعاية طبية فإن مـجرد

القيام بهذا العمل ولو بأجر يكون عليه الثواب وإن أراد المتبرع التنازل عن أجره فيكون له بذلك ثوابان ثواب التبرع بالدم وثواب التبرع بالأجر».

هذه واحدة..

وفي كتاب «١٠٠ سؤال وجواب مع الشيخ محمد متولى الشعراوى»، الذى صدر عن سلسلة «اقرأ» صفحة ٨٢، سؤال يقول:

«ما الحكم بالنسبة لجراحات التجميل وزرع الأعضاء؟

الإمام الشعراوى: مثل ماذا؟

- مثل إزالة إصبع سادس، حسنة، حرق.. أى شىء زائد؟

الإمام الشعراوى: فى هذه الحالات يجوز مادام ليس فيه خلق جديد ولكنه استشراف إلى الأحسن والأجمل».

وهذه واحدة ثانية..

لكن فى برنامج طارق حبيب «من الألف إلى الياء»، ماذا قال الشيخ عن نقل الأعضاء؟.. قال:

«الخالق الذى خلق، خلق لنا ماينفعنا، ولكن لانملكه، بمعنى لانستطيع أن نخضعه لإرادتنا: شمس، قمر، وخلق لنا أشياء وملكنا إياها ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾ إذن خلق خلقاً ينفعنا ولم يدخله تحت ملكيتنا لماذا؟ لأن ذلك فلك عال، لأن هذا لو دخل تحت ملكيتك وأنت رجل مختار تطيع أم تعصى، تبهدل الدنيا، فالأشياء الضرورية فى الحياة ليس لك دخل بها، وهناك أشياء خلقها الله وملكها لك ذللها وملكها وهناك أشياء خلقها لى وملكنى نفعها ولكنه احتفظ بها لملكية ذاته، نحن

نفرق بين الخلق والجعل والملك، الخلق إيجاد معدوم، الجعل يأخذ من المخلوق ذلك شيء يوجهه يتقى شيء، فالإنسان تكون ثم أخذت منه شيء أصبحت عين وشيء أصبح أذن، فهذا جعل والمجعول شيء من المخلوق وجهت لغاية، وبعد ذلك يتركه لك ملك أم يتركه لك لتنتفع به ولكنه ملكه إذ السمع والأبصار قال: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾، أنت ملكته تتصرف وتشترى وتبيع وما إلى ذلك أنت حر ولكن قال: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ شيء خاص به، ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ إذا خلقها وانتفعت أنت بها ولكنها ظلت لمن فى ملكيته، ومادام فى ملكه إذن أنا لست بمالك لكى لا أبيع ولا أهب ولا أتصرف، والتبرع بشيء أو البيع فرع ملكيته لو أن الإنسان يملك ذاته أو أعضاءه لما عاقب الله المنتحر بالخلود فى النار.. في ذاته أنها ليست له، إذن فى الأعضاء.. والفلسفة الإنسانية الكذابة تقول له أنت تقول تنفع تباع ومرة أخرى تقول لاتبيع ولكن يهبها، ومرة لا بعد أن يموت تستطيع أن تأخذها، إذ استملكها لورثته، إذا كان هو لايملكها وهو حى فكيف تملكها لورثته، إذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة» مع أن الشعر مخلوق عندما يحلق يطول، فقال: «من أخذت من شعر أختها لشعرها فهى ملعونة التى وصلت والتى استوصلت»، إذن مامعناها؟ معناها أن تلك ملكية انتفاع مثل البيت الأجرة أنت تأخذ منفعة لاتأخذ عين لاتأخذ ذات.. يقال إذا لم نوضب له الكلى يموت، فليمت، أنتم تمنعون الموت، إذن لماذا تبعدون لقاءه بربه مادامت الغاية أن نلقى الله؟ ماحكايتكم؟ إن الذين تبقونهم فى غرف الإنعاش ويقوموا بعمل غسيل كلوى كم مرة يغسل فى الأسبوع مرتين بكام مائة وخمسون جنيهاً فى أربعة أسابيع ستمائة جنيه وهل يزاول الحياة؟ هل من يأتون له بالمال ليست حياتهم ضائعة

من أجله؟ إذن مـاذا تصنعـون به وتعـذبونه هذا العـذاب؟ فلنتـركـه يموت.. هل تريد أن تمنع الموت؟ امنعه إذن».

بعد هذا الكلام الثابت فى كتب تحمل اسم الشعراوى.. من نصدق؟!

الشعراوى الذى أباح التبرع بالدم وقال أن الإنسان يثاب على ذلك، أم الشعراوى الذى حرم ذلك؟ ولا فارق بين التبرع بالدم والتبرع بالأعضاء فكل منهما كما فى رأى الشعراوى يملكها الإنسان ملكية انتفاع.

الواقعة الثانية والتى تحمل شيئاً من التناقض.. ففى كتاب «خواطرى حول القرآن الكريم» الجزء الأول، صفحة ٤٧، يقول الشعراوى:

«وبعد ذلك يخبرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء رسالته بأن هناك ثلاثة أنواع من الكلام، الأول هو القـرآن الكريم والثانى هو الحديث القدسى والثالث هو الحديث النبوى، وكل نوع يتميز بأداء خاص وكل نوع له طابع مميز وكل نوع له مهمة فى المنهج الإنسانى، ولنا أن نتساءل: هل هناك عبقرى من عباقرة الأداء فى هذه الدنيا منذ أن خلقهـا الله له ثلاثة أسـاليب وكل أسلوب يتـمـايز عن الآخـر ولايتشابه معه؟ الوقائع تؤكد أنه لايوجد إنسان له ثلاث شخصيات فى الأسلوب أو البيان، إن كل عبقرى له شخصية أسلوبية واحدة وإن حاول أن يمنعها أو يبدل فيها فإن هذه الشخصية الأسلوبية تغلب صاحبها.. إذن كيف استطاع محمد بن عبدالله أن يفصل بين هذه الأساليب الثلاثة؟».

وفى كتاب «أنت تسأل والإسلام يجيب» الجـزء الأول يقول الشيخ فى إجابته عن سؤال حول علاقة المستشرقين بالإسلام.. والكلام للشيخ بالنص:

«وقصة ثالثة عن رجل مستشرق أشهر إسلامه وقال إن الناس الذين يكذبون محمداً فى أنه رسول، يقولون أنه أتى بالقرآن من عنده وأنا

أتحدى أن توجد عبقرية تصنع لنفسها ثلاثة أساليب من الكلام، أسلوب يقال عنه القرآن وأسلوب يقال عنه حديث قدسي وأسلوب يقال عنه حديث نبوى شريف، لا أحد من البشر يستطيع أن يصنع لنفسه ثلاثة أساليب متميزة ومختلفة وبهذه القوة والقدرة».

وعليه، هل هذا الكلام هو كلام الشيخ الشعراوى يمكن أن نعتبره اجتهاداً شخصياً له.. أم أنه كلام أحد المستشرقين؟ وإذا كان، فلماذا ينسبه الشيخ لنفسه فى موضع ثم ينسبه لأحد المستشرقين فى موضع آخر؟

والسؤال هو: لماذا لايكتب الشيخ الشعراوى بنفسه؟!

لابد أن هناك سبباً يمنع الشيخ ومع أنه تحدث عن ذلك حيث قال:

«حكاية الكتابة دى صعب عليّ شوية، ليه؟ لأن الكتابة أكتب لمن يقرأ ولكنى حين أتكلم أتكلم لمن يسمع والسماع أعم وسيلة فى الخطاب، لأن الطفل اللى ماعرفش يقرأ والأم ومش عارف إيه وإيه لكن إذا حاولت أكتب فأكتب..».

وكلام الشيخ حتى عن هذه النقطة مثل الماء حيث لا لون ولا طعم ولا رائحة.. وحتى يدفع عن نفسه العجز عن الكتابة، يقول لكن إذا حاولت أكتب فأكتب.. السؤال لايزال قائماً يامولانا: لماذا لاتكتب؟

فى اعتقادى أن الشيخ لايكتب لسبب واحد هو أنه يفتقد لعقلية منهجية منظمة والدليل أنه عندما يتحدث تجده لايتبع منهجاً فى حديثه، فهو يتحدث عن كل شيء وأى شيء حسب مايتراءى له. وتجده يأتى بقصة من المشرق ومَثَل من المغرب وموقف من الشمال، ولذا يكثر فى كلامه مثلاً كلمات مثل «ومش عارف إيه وإيه»، ومثل «لأن ده كان ظاهرة يعنى كلهم ناس بتحبه وبتاع».. إذن كلمات الرجل هائمة وافتقاد الشيخ لعقلية منهجية مرتبة تجعله عاجزاً عن الكتابة، فهو لايستطيع أن يحدد موضوعاً بعينه ثم يكتب فيه، فهو تعود الحديث بطريقة «المصاطب» فقط..

ومع أن الشيخ يقول أنه لا أثر لمثل هذه الطريقة . . فقد وجدنا مايقع فى كتبه من تناقض . .

والظاهرة الأخطر هى التكرار الذى يسود كتب الشعراوى كلها . . فليس هناك إنتاج فكرى للشعراوى غير خواطره حول الآيات . . لكن هذه الخواطر تمثل لحاشية الكتّاب مادة خام، تشكل على ألف لون وتكتب عليها ألف اسم، فتنشر كيوميات للأخبار كل يوم جمعة وتنشر فى سلسلة كتاب «خواطرى حول القرآن»، ثم سلسلة «تفسير الشعراوى» و«مكتبة الشعراوى الإسلامية»، ثم «معجزة القرآن» التى تخرج عن سلسلة كتاب اليوم، ثم عشرات العناوين من دور النشر الأخرى . . وخطورة الموضوع أن المادة التى يقدمها الشعراوى تترهل وتفقد قيمتها . . فكتب الشعراوى كلها إذا صفيت من التكرار يمكن أن تصل إلى عشرة كتب فقط. وبقراءة بسيطة لإحدى اليوميات التى تكتب فى أخبار الجمعة نجد أنه :

ـ فى عدد الأخبار الصادر فى ٩ فبراير ١٩٩٦ وكانت تحت عنوان «وهو العبادة»، هذه العبارات : «كان ذلك تقديماً طرحه إمام الدعاة إلى الله فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، وعاد بنا شيخنا الإمام الشعراوى إلى نهاية الحديث السابق، ويلاحظ شيخنا الشعراوى ونلاحظ معه، الشيخ الإمام الشعراوى يلحظ فى الآية الكريمة، لكن نحن الآن كما يقول شيخنا الشعراوى، وقفة أخرى فى هذه الآية الكريمة يقفها بنا الإمام الشعراوى، يضيف شيخنا الشعراوى قوله، ترتيباً على ذلك يتحدث الإمام الشعراوى، الدرس المستفاد من ذلك يوضحه لنا الإمام الشعراوى».

وليقل لى القارىء عندما تكون هذه العبارات هى الرابط بين الكلام، ألا يعنى ذلك نوعاً من السخف والاستخفاف بعقول الناس والتجارة بهم؟

الشعراوى إذن يعانى ونعانى معه من هؤلاء الذين يكتبون مايقوله . .

لكن المصيبة الكبرى فى هؤلاء . .

الذين يكتبون عنه . .

حيث إنهم كثيرون. . وعلى كثرتهم تلك لانجد من بينهم من يكتب حياة الشيخ بصورة صادقة، ولو جمعنا كل ماكتب عن حياته لوجدناها مملوءة بالمتناقضات، فالكل يحكى حياة الرجل من وجهة نظره الشخصية وكأنها قصة من قصص ألف ليلة وليلة. .

وإن كانت بينهم مثل هذه الاختلافات، فالشيء الذى يجمعهم هو تمجيد الشيخ ووضعه فى إطار صورة الرجل الذى لايخطىء أبداً. . حتى الأخطاء التى يمكن أن نتفق عليها كأخطاء نجد لها مبررات. . وإن كانت واهية، فهى مبررات تسعى وراء إبراء ساحة الشيخ من التهم التى تُلحق به. .

وإن كنا لانستطيع أن نقول أن هؤلاء يسعون وراء الربح من خلال كتاباتهم عن الشيخ وعن حياته، لكن المؤكد أن الشعراوى يشكل مشروعاً استثمارياً شارك فيه جميع الذين كتبوا عنه. . فالمهم هو البيع. . وما غير ذلك يأتى فى مرتبة أخرى. . حتى ولو كان الدين.

الخواطر والتفسير..

«إنى لا أستبيح لنفسى أن أدخل على كتاب الله مفسراً فليس عندى ما أرجح به أننى بالغ فيه مايرضى نفسى عن نفسى ولذلك آثرت أن أسمى كل ذلك خواطرى حول القرآن الكريم..».

كانت هذه هى كلمات الشعراوى قالها منذ خمسة عشر عاماً . .

وبعد هذه الخمسة عشر عاماً يخرج علينا كتاب «تفسير الشعراوى»، فهل مايحمله هذا الكتاب غير مايقوله الشعراوى فى خواطره؟

بالطبع لايوجد أدنى اختلاف بين مايقوله الشعراوى فى خواطره التليفزيونية عن تفسيره المطبوع . .

المسألة إذن تحتاج إلى تحديد هل مايفعله الشعراوى تفسير للقرآن أم أنه شىء آخر فضل أن يسميه خواطر؟ . . ويقول الشعراوى عن خواطره تلك:

«إن خواطرى هى محاولة الصفاء مع كتاب الرحمن، ومن هذه المحاولة تهب خواطر على القلب المؤمن الذى يرجو الله أن يتقبل منه، ويحدث هذا الصفاء وتأتى تلك الخواطر عندما يتأمل القلب والعقل ضفاف آيات القرآن، فكل آية هى أكثر من نهر يخوضها القلب والعقل ليرتوى منها الصفاء والنقاء والفهم والإيمان، أقول ذلك لأن

الله تعالى لو شاء أن يتم تفسيراً للقرآن الكريم بواسطة أحد البشر لكان أولى البشر بذلك هو نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أن القرآن نزل عليه وانفعل به كمعجزة متجددة لايخبو منها ضوء ولا تنتهى لها آفاق».

الرجل يؤكد مرة ثانية أنه يجول بخواطره حول آيات القرآن، وربما اختار هذا الاسم «خواطر» على أساس أن القرآن دائم العطاء وأنه يعطى عطاءه فى كل العصور وأنه لا أحد يمكنه أن يفسر القرآن وإلا لفسره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن الرسول لم يفسر القرآن لأنه لو فسره ماجرؤ عالم من العلماء أن يفسره بما يخالف مافسره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هنا فقد ترك الرسول لكل عصر من العصور أن يقرأ القرآن ويفهم مايمكنه فهمه..

مايفعله الشعراوى إذن ليس تفسيراً للقرآن بأى وجه من الوجوه، والسبب أن الرجل ليس له منهج يمكن أن نشير إليه فى تناوله لآيات القرآن.. ولنقف لحظة حتى نرى ماهو المنهج؟

المنهج من المفروض أن يكون عبارة عن خطوات معروفة ومرتبة يسير عليها الذى يقوم بالتفسير للقرآن.. وهذا المنهج نراه واضحاً فى معظم التفاسير مثل ابن كثير والقرطبى والطبرى والجلالين وغيرها.. لكن هذا المنهج لم نجده مطلقاً عند الشعراوى فى خواطره، وعند سيد قطب فى كتابه «فى ظلال القرآن»، فما كتبه سيد قطب فى كتابه إنما يعبر عن فهمه للقرآن على ضوء خبراته وتجاربه وقراءاته.

ولنضرب مثلاً بما نقصده من المنهج، فمن كتاب «صفوة التفاسير» اتبع واضعه محمد على الصابونى خطوات ثابتة لم تتغير على طول تفسيره..

فالرجل يبدأ بذكر المناسبة التى نزلت فيها الآيات وهو يعبر فيها عن جو الآيات.. أو مايمكن أن نسميه بالموقف الدرامى الذى تتحدث عنه الآيات التى سوف يتناول تفسيرها.

ينتقل بعد ذلك إلى تفصيل اللغـة، فالرجل يقف عند معظم الكلمات فى الآيات التى قد تكون من وجهة نظره صعبة أو غامضة بعض الشىء بحيث لايستوعبها العامة من الناس.

الخطوة الثالثة: يتحـدث المفسر عن سبب نزول الآيات، وهو بذلك يضع الآيات فى إطارها التاريخى الذى نزلت فيه، حيث لايعزلهـا عن الأحداث التى توافقت معها وحدثت أثناء نزول القرآن.

ثم يأتى إلى التفـسير وهو يتناول الآيات بطريقـة تفصيليـة حيث بين مافيـها من أحكام، وفى النهاية يختم المفسر حديثه عن الآيات التى يتـناولها بإظهار البلاغة فيها، حيث يتناول الآيات التى فسرها من الناحية البلاغية وأثر هذه البلاغة فى إيصال المعنى الذى تحمله الآيات.

وهذه الخطوات السابقـة ليست قاعدة من المفـروض أن يسير عليها كـل من يفسر القرآن، فقد يستغنى البعض عن إحدى هذه الخطوات مثلاً.. حيث يرى المفسرون أن تفسيرهـم للقرآن يجب أن يتكامل بحيث يظهر كل منهم زاوية معـينة لـم يتطرق إليها أحد من قبل.. وهذا هو إعجاز القرآن..

إذن ليس المقصود من المنهج أن يكون قـيداً.. لكن اتباع منهج معين فى التـفسير يسـاعد على تركـيز المضـمون الذى يسـعى المفسـر إلى إيصاله للناس، حـيث تكون المعلومات مرتبة وفقاً لنظام ونسق معين.. لكـن افتقاد المنهج يعمل على تشتيت عقل القارىء أو المستـمع للتفسير، فيخـرج بعد قراءته أو استماعـه وهو خالى الوفاض.. ولاتعدو المسألة بالـنسبة له سوى ساعـة جلس يستمع فيهـا أو يقرأ فيهـا، والحصيلة ماذا.. لاشىء.

والتجربة العملية أثبتت أن هذا يحدث مع الشعـراوى فى جميع كتبه، فهى كتب غير ثرية فى مادتها، وبعد أن تفرغ من قراءتـها لاتستطيع أن تحدد مدى استفادتك من هذه الكتب أو حتى يمكن أن تتـحدث عن موضوع مـا بترتيب معين، فـهى كلمات تتصارع حتى تصل إلى نهاية صفحات الكتاب.. وفقط.

وإن كان ليس للشعراوى منهج، فإننا يمكن أن نلمس فى أسلوبه وطريقته فى تناول الآيات بعض الملامح والسمات والخصائص.

- فالشعراوى يتناول آيات القرآن الكريم بالترتيب المصحفى، بمعنى أنه بدأ من سورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، وهكذا.. حتى يصل إلى نهاية التفسير، وهو بذلك يتبع معظم أو كل التفاسير التى تقوم على تناول القرآن بترتيبه المصحفى، يفعل الشعراوى ذلك فى برنامج التليفزيونى وجريدة «اللواء الإسلامى»، وتفسيره الذى تصدره «أخبار اليوم» تحت عنوان «تفسير الشعراوى».

- كثيراً مانجد الشعراوى يهتم ببيان معانى المفردات وشرح اللغويات وتوضيح المقصود من الجمل والتراكيب اللغوية، وذلك لأن الشعراوى قد درس اللغة العربية، وهى تمثل عموداً هاماً من أعمدة التفسير، ومن مميزات أسلوب الشعراوى أنه يتناول هذه المفردات والتراكيب اللغوية بطريقة سهلة وبسيطة للغاية تقرب القرآن من عقول العامة والبسطاء.

- أسباب التنزيل لايغفل الشعراوى عنها، حيث إنه يهتم فى إطار حديثه عن آيات القرآن أن يتحدث عن أسباب نزولها، وبذلك يضع الآيات فى إطارها التاريخى ولذلك أهميته، حيث إن معرفة سبب نزول الآيات أو الحدث التاريخى الذى نزلت بشأنه الآية شىء مهم.

- يحرص الشعراوى أكثر من أى مفسر تناول آيات القرآن على تبيان أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم، ولايتوقف ذلك على الآيات التى تتناول الحقائق العلمية بل يتناول الشعراوى الآيات التى تبين وتوضح الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم.

- من أهم سمات الشعراوى أيضاً فى تناول آيات القرآن هو الربط بين المتشابه من سور القرآن الكريم، فنحن نجده يتحدث فى سورة معينة وإذا به يخرج إليها فى سورة أخرى.. ولايتردد الشعراوى فى ذكر أى شىء يتعلق بموضوع الآية سواء تعلق هذا الذى يرد باللغة أو الدين أو مختلف العلوم، وهو الشىء الذى يجعل الاستطراد يغلب على أسلوب الشعراوى فى التفسير، حيث يقع الشيخ فى مأزق، فهو لو ربط بين آية

فى سورة البقرة التى فى أول المصحف وبين سورة الأعراف مثلاً، فإنه عندما يأتى لآية الأعراف يعود مرة أخرى لآية البقرة، مع أن المنطق يقول أنه يجب أن يمر على آية الأعراف سريعاً، لكنه يقول ويزيد ويعيد، وهو الذى يعرّض الشعراوى إلى انصراف بعض الناس عنه، فالناس لاتمل القرآن نعم، لكنهم يملون التكرار فى تناول آياته وسوره، وقد ذكر الشيخ نفسه فى إحدى حلقات برنامجه أن أحد المستمعين أبرق إليه أن لايكرر فى تفسير الآيات المتشابهة حتى لايمل المستمعون، لكن فى الحلقة التالية قال لقد اتصل بى أحد المستمعين تليفونياً رداً على البرقية التى تقول لاتكرر بأن البعض ربما لايكون قد استمع إلى الآيات الأولى، فمن الفائدة أن يكرر الشيخ ماقاله عند كل موضع يجد التكرار فيه مفيداً، ثم عندما يأتى الشيخ ليطبع هذه الخواطر يعمل على حذف المكرر حيث لافائدة من التكرار فى الكتب.. وأخذ الشعراوى ساعتها بالرأى الثانى.. واستمر فى تكراره، وعندما جاءت أخبار اليوم لطبع خواطر الشيخ لم تقم بحذف أى مكرر فى أحاديث الشيخ..

وهو الشىء الذى يحدث فى كتب الشيخ والمجلات التى تنشر مقالاته، حيث كررت فتوى واحدة بنفس السؤال ونفس الإجابة فى أربعة مواضع بلا أى اختلاف، ولا ندرى إن كان المقصود أن تنشر وتزيد كتب الشيخ أم الإفادة؟!

- لايخلو تناول الشعراوى للآيات كذلك من الاعتماد على الأمثال الشعبية والمواقف التى حدثت له هو شخصياً فى حياته، سواء أكانت حدثت له فى الريف أو السعودية أو حتى فى الفترة التى قضاها فى مصر.. والشعراوى أيضاً يكرر الأمثال التى ضربها والقصص التى رواها.. ولذا نراه يكرر دائماً: «كنا ضربنا زمان مثل ولله المثل الأعلى».

إذن الشعراوى يقحم كل هذه الأشياء فى تفسيره للقرآن أو لنقل خواطره حول آياته.. ولو قام الشعراوى بنوع من التنظيم والترتيب المنهجى العلمى لها لصار له منهج يستطيع الناس أن يلتفوا حوله.. لكن الشعراوى عندما يتحدث نجده يتحدث كما يتراءى له وكأنه يرتجل.

ومع أن الجميع يتفق على أن الشعراوى قيمة كبيرة فى حياتنا إلا أن الجميع لايستطيع أن يتفق على تفسيره وقيمته، فإلى الآن لم نسمع أحداً يقول: «قال الشيخ الشعراوى فى تفسير هذه الآية كذا. .» وذلك لا يرجع إلى ضعف الشعراوى، فالرجل متمكن. . ولكن الاختلاف على ناحية تمكنه، فالشعراوى يفسر الآية، وفى نفس الوقت لايفسرها، فهو يتحدث عن مجموعة آراء وأفكار ولايضع يدك على الموضع الذى من المفروض أن تدخل منه إلى فهم الآية وتطبيقها.

ومع أن الشعراوى يخوض فى تفسيره كل هذه المجالات لكن الظاهر والغالب على تفسيره هو التفسير اللغوى للقرآن. . إلى درجة أن تم تصنيف الشيخ الشعراوى كمفسر لغوى. . وهو أسلوب خطير للغاية، وقبل أن نلتفت إلى خطورة هذا الأسلوب عند الشعراوى خاصة نسجل هنا ماقاله المستشار سعيد العشماوى فى شأن هذا التفسير اللغوى حيث قال:

«هذا الأسلوب الخاطىء فى تفسير آيات القرآن الكريم وافق هوى فقهاء السلطة وفقهاء المعارضة على حد سواء، فاستعمله هؤلاء وهؤلاء فيما يريدون من تأييد للسلطان أو خروج على الحكام ثم صاغه الفقهاء فى عبارة تقول: «العبرة (فى تفسير آيات القرآن الكريم) بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أى أنهم قلبوا القاعدة الأصلية وصارت قاعدتهم هى التى تدرس فى علم أصول الفقه على أنها القاعدة الأصولية فى تفسير القرآن الكريم مع مافى هذه القاعدة من خطأ واضح وخطر داهم.

أولاً: فهى تبرر اتهام الحكومات وتقويض المجتمعات على أساس شرعى بدعوى أن هذه وتلك لاتحكم بما أنزل الله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، ومن ثم فإن هذه القاعدة هى التى سوغت على أساس دينى أكثر الاضطرابات والثورات والفورات والعصيان الذى حدث ومازال يحدث فى المجتمعات الإسلامية.

ثانياً: وهى تؤدى إلى تعصيم (أى إضفاء العصمة) على الحكام مهما

كان ظلمهم وفجورهم، وقد كانت هي الأساس في فساد نظم الحكم الإسلامية منذ أن بدأ العمل بها وحتى الآن، فما دامت بيعة الحاكم بيعة لله ومادام الحاكم يحكم (أي يسوس أمور الناس على مايرون) بنور الله ومادام الحاكم لايُسأل عما يفعل ويُسأل خصومه (بواسطة الحاكم نفسه أو عمّاله) مادام الأمر كذلك فإن الطغيان يتوسد أسساً شرعية والظلم يتحصن بقواعد دينية.

ثالثاً: وهي تؤدى إلى تأييد دعاوى إسرائيل العنصرية والإقليمية، ففي القرآن الكريم ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ (البقرة ـ ١٢٢)، ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ (الدخان ـ ٢)، ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ (المائدة ـ ٢١)، ﴿وواعدناكم (أي بني إسرائيل) جانب الطور الأيمن﴾ (طه ـ ٨٠)، فتفسير هذه الآيات على عموم ألفاظها يعني أن بني إسرائيل مفضلون على العالمين بإطلاق وأنهم شعب الله المختار وأن أرض فلسطين هي الأرض الموعودة والمقدسة التي كتبها الله لهم، أما تفسير الآيات وفقاً لأسباب التنزيل وتبعاً لسياق الآيات وأخذاً بالظروف التاريخية فهو يفيد أن المعنى ببني إسرائيل قوم موسى وحدهم ولا تعني الإسرائيليين في كل مكان وكل زمان على الإطلاق وأن فلسطين كانت الأرض الموعودة زمن موسى فحسب.

رابعاً: وهي تؤدى إلى ظهور تناقضات (غير حقيقية) بين آيات القرآن الكريم، فثم آية، على ما سلف تقول: ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾، وفيه آية تقول عن بني إسرائيل ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ (المائدة ـ ١٣)، والتفسير على عموم الألفاظ يثبت تناقضاً بين اعتبار بني إسرائيل مفضلين على الإطلاق وبين لعنهم وجعل قلوبهم قاسية،

لكن التفسير على أسباب التنزيل ووفقاً لتاريخية النص يرفع هذا التناقض، إذ يكون المفضلون من بني إسرائيل قوم موسى، ويكون الملعونون منهم يهود المدينة على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. كذلك ففي القرآن الكريم ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ (المائدة ـ ٥١)، وفيه: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين﴾ (المائدة ـ ٥)، وتفسير الآيتين على عموم اللفظ يوجد تناقضاً، فكيف يؤمر المؤمن ألا يوالى أحداً من أهل الكتاب ثم يؤذن له فى نفس الوقت بالزواج منهم (والزواج ولاية بين الزوجين وبين الأسرتين) وأن يؤاكلهم ويشاربهم والمؤاكلة والمشاربة ربما كانتا على أعلى درجة من الولاية أو هى صميم الولاية وصميم الصداقة، لكن التفسير وفقاً للظروف التاريخية وأسباب تنزيل الآيات يفيد أن الآية الأولى الخاصة بعدم موالاة أهل الكتاب مقصورة على حادثة معينة والى فيها مسلم منافق قبيلة يهودية كانت تحارب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين، أما القاعدة العامة فهى موالاة أهل الكتاب والزواج منهم ومؤاكلتهم كما ورد فى الآية الثانية.

خامساً: وأسلوب تفسير القرآن على عموم اللفظ لا على خصوص أسباب التنزيل ووفقاً للظروف التاريخية للآيات ينتهى إلى تفسير القرآن وتأويل الآيات على غير ما أراد التنزيل، وربما عكس ما أراد فيؤدى إلى إيجاد إسلام غير الإسلام وشريعة خلاف الشريعة ويعمل على اضطراب المجتمعات الإسلامية وعلى استبداد الحكام وعلى زرع الفتن بين المسلمين وعلى نشر الحروب بين المسلمين وغير المسلمين على مدى التاريخ وبغير نهاية، حتى ينتبه المسلمون إلى المنهج الصحيح لتفسير آيات القرآن فيأخذون به ويعرضون عما سواه..

ورغم خطورة هذا الأسلوب فى التفسير إلا أننا لانستطيع أن نقول أن الشعراوى مفسر لغوى على الإطلاق، فهو أيضاً يهتم بأسباب النزول.. لكن الذين ينادون بالتفسير على قاعدة من أسباب النزول يريدون أن تخضع جميع آيات القرآن لهذا الأسلوب.

والذى أظهر خطورة هذا الأسلوب أن الشعراوى أخضع بعض الآيات لخدمة الحاكم مثل قوله للسادات: ﴿لايُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (الأنبياء ـ ٢٣)..

ونهاية الكلام أنه من خلال التحليل البسيط لما يفعله الشعراوى فى تناوله لآيات القرآن لم يصل بعد إلى المرتبة التى نستطيع أن نقول أنه أصبح مفسراً للقرآن الكريم، يصل تفسيره إلى قامة المشايخ الكبار فى هذا المجال».

والآن.. ماذا يتبقى لنا من الشيخ؟!

يتبقى لنا بعض فتوى الشيخ فى قضايا لانستطيع أن نغفلها أو نصرف النظر عن خطورتها على ساحة المجتمع.. وهذه القضايا لاتستمد خطورتها من كونها أحدثت أثراً كبيراً ولكن لأنها قضايا ممتدة على مدار الممارسة اليومية للمسلمين.

القضية الأولى:
الشعراوى وأولاد حارتنا..

عندمـا قال النبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ: **«علماء أمتى أنبـياء بنى إسرائيل»**، كان يقصد بالتأكيد توصيفه النهائى للمهمة التى يجب أن يقوم بها علماء الأمة..

والبداية فى سؤال:

ـ ماهى مهمة الأنبياء؟

أو بمعنى آخر: ماهى الضرورة التى تحتم إرسال نبى لقوم من الناس؟

الموضوع بدون مقدمات أو تطويل أو فلسفة.. لايأتى نبى إلا إذا حدث اعوجاج عن الطريق المستقيم.. حيث هناك هدف وطريق رسـمه الله للناس، فإذا انحرفوا عن مثل هذا الطريق لزم أن يكون هناك مندوب من الله حتى يعود الناس إلى طريقه..

ومهمة النبى والمجهـود الذى يبذله يتناسب طرداً مع كم الانحراف الذى يخوض فيه الناس.. فكلما زاد الانحراف زاد المجهود الذى يجب أن يبذله النبى المبعوث..

وكان المسئول عن إعادة الناس إلى جادة الطـريق هم الأنبياء.. والأنبيـاء فقط، وذلك حتى بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ولأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو خاتم النبـيين، كان من الضرورى أن

يأتى من بعده من يقوم بمهمة الأنبياء لكن ليسوا أنبياء.. هؤلاء هم العلماء حيث يهاب بهم أن يقوموا بمحاولة إعادة الناس إلى الطريق المستقيم..

والفارق بين أداء النبى والعالم.. أن النبى يمارس الدين فى غير اكتمال، فهو كل يوم يتلقى جديداً من السماء يعدل على أساسه من سلوك الناس.. فالنبى يقوم فى رسالته بمرحلتين، مرحلة التلقى عن السماء، ثم مرحلة مطابقة ماتلقاه على سلوك الناس.. ويوم أن يصل الدين إلى اكتماله يموت النبى أو الرسول.

أما العالم فإنه يمارس الدين وقد وصل إلى اكتماله، فهو لايتلقى من السماء بل عنده أصول الدين..

وفارق آخر بين العلماء والأنبياء.. فالنبى يطابق بين ماتلقاه وبين سلوك الناس، وفى حالة ما إذا استجد شىء فإن السماء تمده بالحكم أو التصرف الذى ينبغى أن يكون..

لكن العالم ولانقطاع السماء عن التشريع، فإنه إذا ما استجد شىء فإنه يجتهد رأيه.. وهذا الاجتهاد ليس بالطبع خاضعاً للأهواء والأمزجة المتقلبة، ولكنه يتبع قواعد وأسساً وشروطاً يجب أن تتوافر فى ذلك الذى يقوم بالاجتهاد.. إذن تمام الدين لايعنى أن يتوقف الدين عند حدوده التى كانت يوم أن مات النبى.. لكن من حق من يستطيع الاجتهاد أن يجتهد.

هذا اختصار بسيط لما يجب أن يكون عليه عالم الدين أو الداعية، فهو يجب أن يقوم بتصحيح الخطأ الذى يحدث ويرى أنه يسبب انحرافاً عن الطريق المستقيم.

لكن هل معنى ذلك أن عالم الدين يجب أن يتدخل فى كل القضايا والشئون؟!

نتفق أولاً أن الإسلام منهج حياة.. وعليه يجب أن يتدخل فى كل الشئون.. لكن نعود ونختلف فى مدى تدخل الدين فى كل الشئون والقضايا..

فالقضايا المتعلقة بالدين والعبادة والعقيدة.. هذا مجال رجل الدين بنسبة

١٠٠٪، لكن الحكم مثلاً فمدى تدخله يجب أن يقف عند إعادة الحاكم إلى الصواب، وذلك إذا ما انحرف ويكون بالموعظة الحسنة..

فى المسائل العلمية مثلاً يجب أن يتدخل الدين فى تقويم سلوك القائمين بأمر العلم.. بمعنى أن الدين لايجب أن يدخل المعمل نهائياً، لكنه يتدخل فى كيفية استخدام ماينتج عما يحدث فى المعامل من نتائج.. فلا يجب أن تكون نتائج التجارب العلمية سبباً لضرر البشر.. وعلى ذلك يمكن أن نتعرف على كيفية مباشرة الدين ورجل الدين لمهمته..

وقياساً على ذلك نأتى للأدب..

والأدب أيضاً يبدأ بسؤال: هل من حق عالم الدين أن يحكم على أديب بالكفر أياً كان الذى كتبه؟!

بلا مبالغة عندما يكفّر عالم الدين أحد الأدباء بالطريقة التى نراها الآن، فهو يخرج عن إطار مهمته ويشكل هو نفسه خطراً على الدين الإسلامى.. وذلك لأن عالم الدين يجب أن تكون وسيلته فى المعالجة هى المناقشة والتحليل والتفنيد وليس إصدار الحكم بطريقة عشوائية، وذلك بكل تأكيد يعطى صورة خاطئة وخادعة عن الإسلام؛ الدين الراقى.. فالإسلام الذى نزل من السماء بالفعل هو دين الرقى، لكن الإسلام الذى خرج من بين ثنايا ممارسة العلماء له يعتبر وبلا تردد إسلاماً يعانى من تراكم غبار الغباء عليه..

المطلوب إذن من عالم الدين ألا يكفّر أحداً، ولكن يشرح لنا لماذا يعتبر هذا العمل مخالفاً من وجهة نظر الدين وليس من وجهة نظره هو.. فلابد من الفصل بين الدين وبين الذى يقوم بالدعوة له.. حيث هناك لكل فرد ميول وأغراض وأهواء..

والشيء الثانى هو أن يعالج علماء الإسلام الأمور بتعمق أكثر مما هم عليه الآن.. فالسطحية والتفاهة هى مايعانى منه المسلمون الآن.. وذلك بفضل سطحية وتفاهة علمائهم.. والمثال واضح.. الشيخ تاج الدين الهلالى عالم من علماء

المسلمين يشغل منصب مفتى أستراليا. . هذا الرجل فى حوار له منشور فى جريدة «صوت الأمة» عدد ١٩٩٦/٦/٥، قال رداً على سؤال يقول:

«كيف ينظر المسلمون فى القارة الأسترالية إلى المعارك الفكرية التى تحدث بين الحين والآخر بين بعض العلمانيين والإسلاميين فى بعض الأقطار العربية حول بعض النصوص الدينية؟»

ومنطق السؤال يوضح توجه صاحبه وهو يعتبر من الأسئلة الإيحائية، فمادام الرجل قسّم الفرق إلى علمانيين وإسلاميين، فما هو المنتظر من المفتى؟ قال الرجل:

> **«فى أستراليا تحاول جميع الجاليات استثمار المناخ الديمقراطى البديع الذى تتيحه الحكومة الأسترالية، ونحن نحاول الاستفادة من ذلك لخدمة بعض القضايا الإسلامية والدفاع عن الإسلام هناك، ولما حاول أحد العلمانيين المصريين وهو المدعو (نصر أبو زيد) الدخول إلى أستراليا بدعوة من الجالية الصهيونية للمحاضرة عن الإسلام هناك، بعد أن تهجم وتطاول على النص الدينى الإسلامى فى مصر، تصدى المسلمون الأستراليون لهذه المؤامرة الصهيونية الدنيئة ومنعوا أبو زيد من دخول أستراليا بعد أن قام الصهاينة بتوزيع بطاقات الدعاوى على أعداد كبيرة من الأستراليين لحضور هذه المحاضرات، وبعد أن كان وزير الهجرة الأسترالى قد منح أبو زيد تأشيرة الدخول وكانت هذه الخطوة بمثابة الضربة القاصمة التى تلقاها أبو زيد ومعه أذناب الصهيونية العالمية التى دعته والتى أرادت أن تجعل محاضرته قضية يطفح فيها سمه وعداؤه للإسلام فيملكون حجة للطعن فى الدين الإسلامى الحنيف»**.

يا الله. . كل هذا الكلام ياشيخ تاج؟!! رحمة الله إن لم تدركنا هلكنا، وهذا هو حال علماء المسلمين. . فالرجل لم يقرأ أعمال نصر أبو زيد، وليس هذا تخميناً على الإطلاق بل حقيقة، فهو يقول: «بعد أن تهجم وتطاول على النص الدينى

الإسلامى». . كلام. . مجرد كلام يردده الرجل. . فمادام البعض قال. . فهو يقول أيضاً. . ثم أى صهيونية تلك التى هزمتها ياشيخ؟! فنحن لانهزم الصهيونية إلا فى كلامنا وأحلامنا. . وشعاراتنا. .

الخطر على الإسلام لايأتى من نصر أبو زيد وأمثاله، ولكن الخطر الداهم يأتى على الإسلام من أمثال تاج الدين ومن يشبهه.

ليس تعصباً لنصر أبو زيد نقول هذا الكلام، فهناك مواطن كثيرة أختلف معه فيها. . لكن خوفاً على الإسلام من هامشية علماء وسطحيتهم نتحدث. .

الواقع سيىء. .

والصورة أكثر من سوداء. .

والدليل مايحدث فى معاركنا الثقافية التى يكون علماء الإسلام طرفاً فيها، فعلماء الإسلام فى هذه المعارك لهم شأن. . أى شأن. .

فبعضهم يصدر حكمه بأن خصمه خطأ. . لايقدم أدلة على ذلك بل يصدر الحكم ويتمسك به ويرفض كل نقاش. .

والبعض يصدر حكمه بناء على أدلة وبراهين عندما تقرأها تقتنع بها، لكن إذا مادعى هذا البعض للمناقشة والحوار حول القضايا. . لاتجده مطلقاً يقبل الدعوة. . مع أنه يرفع شعار أن الإسلام دين الحوار والنقاش والإقناع. .

وهناك بعض أخير يقول لك لا شأن لى بشىء، مع أن المعركة تكون دائرة على أشدها. . تصل المعارك أحياناً إلى المحاكم ويحكم على المفكرين بالسجن ووصلت الأحكام إلى التفريق بين الرجل وزوجته. . لكن بعض العلماء صامتون.

وللأسف الشديد. . من أمثلة هؤلاء شيخنا الفاضل محمد متولى الشعراوى، وقبل أن يتهمنى أحد بالتجنى عليه اقرأ هذا الحوار الذى دار مع الشيخ(*):

(*) سعيد أبو العينين، حكايتى مع هؤلاء، ص ٩٨.

«ـ هل قرأت (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ.. هذه الرواية التى أثارت ضجة وجدلاً واسعاً لم ينته بعد؟

الشيخ: لم أقرأ هذه الرواية ولم أهتم بهذا الموضوع وليس لى دعوة بها وبما يثار حولها.

ـ لكن بداية الشيخ كانت أدبية وكنت رئيساً لجمعية أدبية كان سكرتيرها الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي، وكان من أعضائها طاهر أبو فاشا، فكيف لم تهتم بقراءة هذه الرواية التى أثارت كل تلك الضجة ولاتزال؟!

الشيخ: كان عندى هواية أدبية هذا صحيح، لكن عندى أزهرية قطعية فى نفسى.. أزهرية أكبر.

ـ الحديث عن (أولاد حارتنا) موضوع جدل يخوض فيه المثقفون والمفكرون ورجال الدين؟

الشيخ: لست طرفاً فيه. ولا أعرف عنها شيئاً.

ـ والأزهر له موقف منها؟

الشيخ: وأنا مالى.. الأزهر جهة رسمية.

ـ هل نفهم من ذلك أن الشيخ لايتابع الأعمال الأدبية أو بمعنى آخر ليس عنده وقت لها؟

الشيخ: قل لى من الذى يكتب جديداً؟.. كله كلام مجتر، حتى الذين يكتبون رسائل دكتوراه يجترون.. ثم إن الإنسان الذى تربى على مائدة الله وعلى منهج الله لايغيره رأى بشر فى بشر.. ولا الكلام ده يدخل مخى».

وبعد يامولانا..

قال الرومان قديماً: «من حق كل إنسان أن يجن مرة».. وأنا كنت أدخر تلك

المرة التى أستعمل فيها حقى فى الجنون لموقف كبير. . لكن ماقاله الشيخ هنا لم يكن لى وأنا أقرأه إلا أن أكون مجنوناً فقط. . فالجنون فقط هو الذى يجعلك يمكن أن تصدق أن هناك واحداً من علماء الدين يمكن أن يتحدث بهذا المنطق أو يقول هذا الكلام. . لابد أن أكون محدداً فهذا ليس كلاماً. . بل هو مجرد حروف متراصة بجانب بعضها لاتعنى شيئاً على الإطلاق. . لاتضيف شيئاً إلى أى شىء. .

وعلى من يريد أن يعرف. . فعليه فقط أن يقرأ هذا الجزء من الحوار مرة أخرى، فالشيخ أعطانا صدمة فى بداية حواره. . بالفعل صدمة.

فهو لم يقرأ الرواية. . هذه واحدة. . فربما يكون مشغولاً عنها، لكنه أيضاً لم يهتم بهذا الموضوع. . هذه واحدة ثانية، لكن ربما أن الشيخ يترفع عن هذه الصغائر. . لكنه أيضاً ليس له دعوة، وهذه الثالثة. . لايستطيع أن يسكت عليها أحد، فمثل هذا الموضوع الشائك إن لم يكن لمثل الشيخ «دعوة» ـ كما يقول ـ به، فلمن تكون تلك الدعوة؟ هل قالوا للشيخ أن (أولاد حارتنا) رواية خارجة عن الآداب تتحدث عن الجنس؟ هل قال له أحد أنها رواية جنسية، لذا فليس له شأن بها؟ إنها رواية يامولانا، اتهم البعض صاحبها بأنه ملحد وأن مافيها كفر وأن نجيب محفوظ يتعدى على الله، على الذات العليا وعلى مقام الأنبياء. . قالوا أنه يحرف تاريخ الأنبياء ويصفهم بما ليس فيهم. .

هل قال لك أحد غير ذلك؟ فدراويش الشيخ وأتباعه لن يقولوا له عن هذه الرواية غير ذلك. . فلِمَ ينسحب الشيخ من هذه المعركة التى مست الناس فى الشوارع، ولننس أن الرواية صدرت عام ١٩٥٩، أى عند وجود الشعراوى فى السعودية فى المرة الأولى. . فربما أن الشيخ لم يقرأها ولم يسمع عنها، فهى صدرت وصودرت دون أن يدرى الشيخ. .

لكن بعد محاولة اغتيال نجيب محفوظ بسبب هذه الرواية ألم يكن من المفروض والشعراوى يحتل منصب رجل الدين الأول أن يلتفت الشيخ إلى مثل هذه الرواية التى كانت سبباً فى محاولة البعض لقتل الرجل. . أم أن الشعراوى ليس له دعوة أيضاً بالقتل. . ونشر الفساد فى الأرض؟!

ومع أن الشعراوى يعلل ذلك بأن عنده أزهرية قطعية وهذه الأزهرية عنده أكبر.. والسؤال هذه الأزهرية أكبر من ماذا يامولانا؟ نريد تحديداً فقط، هذه الأزهرية التى عندك أكبر من الإسلام مثلاً؟ فهذه المعركة لم يخرج منها نجيب محفوظ بتهمة الكفر.. خرج منها علماء المسلمين أيضاً بالتخلف والجهل والهامشية ومعالجة الأمور بسطحية وأنهم لايؤدون دورهم المنوط بهم فى المجتمع.

إذن موقف علماء المسلمين دخلوا خانة الاتهام من قطاعات كثيرة من المجتمع.. هل اتهام الإسلام أقل عند الشعراوى من الأزهرية التى عنده.. والتى تخشى أن تسبب له هذه الأزهرية أضراراً جانبية أخرى؟

الأخطر من ذلك أن الشيخ عندما يقال له أن المثقفين والمفكرين ورجال الدين كانوا طرفاً فى هذه المعركة يقول الرجل: «لست طرفاً فيها».. ونحن بدورنا نريد أن نعرف.. لماذا لايعتبر الشيخ نفسه طرفاً فيها؟ هل الشيخ لايعتبر نفسه من المثقفين أو المفكرين؟ قد نقول له نعم، فهو يهتم بأزهريته التى عنده، لكن هل الشيخ ليس من رجال الدين؟ هذه هى القضية.. وهذه بالفعل هى المعاناة التى يعانى منها الشعراوى ونعانى منها حيث إن الرجل يتحدث وفقط بلا تحديد ولاضبط لمقاصده من كلماته.

الشيخ لايتوقف عند ذلك بل يقول: «ومن يكتب جديداً، كله يجتر، فمادام أنه تربى على مائدة الله وعلى منهجه فلا يغير أحد رأيه فى شىء.. فهذا الكلام لايدخل مخه».. وكلامك أيضاً يامولانا لايدخل مخنا.. فقط لأنك لاتتحدث بأى منطق يمكن أن نستند عليه.

«فأولاد حارتنا» الحدث تعتبر من أخطر المعارك الثقافية التى دارت فى ساحة الثقافة المصرية، وذلك لأنها ليست معركة قاصرة على الأدباء فقط، ولكن دخل رجال الدين طرفاً فى المعركة.. وكان هناك معارضون لها ومؤيدون.

فالمعارضون قالوا فى أسباب معارضتهم للرواية:

إن أول شىء هو شخصية الجبلاوى، فقد خلع عليها المؤلف صفات الذات

العلية، وهذا ظاهر جداً من حيث توليـة أدهم نظارة الوقف وأمر الآخرين بطاعـته، فأذعنوا وأطاعوا عـدا إدريس الذى يمثل موقف إبليس، فهذا مـاتقوله الآية الكريمة: ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾.

وهو ظاهر أيضاً فى احتجاب الجبلاوى فى قصره ولا يراه أحد ولا يكلم أحداً ثم نجد فى أثنـاء الرواية مايؤيد هذا التـشبيـه، كل مظلوم وكل ضائق من شـىء يصيح: «ياجبلاوى»، والمظلومون والضائقون عادة يصيحون: «يارب».. وتقول الرواية:

إن الجـبلاوى وهو فى حـجرته يعلم كـل شىء فى الحارة، ونحن نقـول لايعلم الغيب إلا الله، كذلك نجـده يخاطب جبل ورفاعة وهما لايريانه، أمـا قاسم فظهر له وكلمه قنديل، وهو يقـابل شخصية جـبريل، وهكذا كما أوحى الله إلى أنـبيائه ولم يروه.. سمع هؤلاء كلام الجبلاوى ولم يروه.

وحين جاء عـهد العلم الحديث عهد السـحر فى الرواية نجد عبارات كثـيرة ضد الجبلاوى كما نجد عند العلمانيين إنكار الله..

كذلك فالمصـلحون الذين ذكرتهم الرواية، خلعت على كل واحد مـنهم صفات وأعمـال النبى الذى يمـثله، ومن ناحيـة أخرى نجد صـفات وأحـداثاً لاتناسب هذه الشخصيات.

ويتسـاءل الذين عارضوا الرواية: هـل يجوز إذا غيـرنا أسماء بعض الأشـخاص والأماكن أن نعرض سيرهم وأعمالهم حسبما نرى؟ هل يجوز إذا سمينا الأنبياء الكبار بجبل ورفاعة وقاسم، وسمينا الله باسم الجـبلاوى أن نعرضهم هذا العرض وهو كما رأينا من قبل لايخلو من سخرية أو إهانة؟

وهم أيضاً يتساءلون: ماذا يحـدث لو سميت ملكة إنجلترا بغير اسمهـا ووصفتها ووصفت زواج ابنها ولى العهد أو أباها بصـفات لاتناسبهم؟ أيرضى الإنجليز عن هذا أم يغضبون؟ وهل تقبل الملكة إليزابيث الثانية أن أسميها موهانا أو باميلا أو مارجريت

أو غير ذلك من الأسماء؟ ثم أعرض صور تقلدها العرش بعد أبيها وزيارتها فرنسا حين كان بها عمها، وزيارتها له وشربهما وسكرهما أو عملهما عملاً لايناسب كرامة ملكة إنجلترا. . وماذا يحدث لو أننا فعلنا ذلك لأى ملك أو رئيس جمهورية أو حتى محافظ إقليم؟

كان من بين هؤلاء الذين طالبوا بمصادرة الرواية رجال الأزهر والإخوان المسلمون والجماعات الدينية، بل كان من بينهم بعض المثقفين والمفكرين، والغريب ليس فى المعارضة بل فى طريقة المعارضة.

فالشيخ كشك ألّف كتاباً أسماه «كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنا»، وهو كتاب من اسمه يبدو أنه كان مسلياً. . ماذا فعل كشك فى هذا الكتاب؟ قدم الشيخ تلخيصاً للرواية وهو أسلوب غريب ثم أخذ يثبت ويعطى دلائل بدهية على أن الله موجود والله قادر والله خالق والله حى، ثم يخرج بحكم أن كاتب الرواية كافر، وأفضل شيء مع كشك ألا نناقشه فى كتابه، فهو كتاب يمثل ظاهرة صوتية فقط. . لاقيمة لها ولم تلعب دوراً فى المعركة. .

ومن قبيل التسلية أيضاً قال عمر عبدالرحمن:

«إن المرتد إذا لم يستتب يُقتل، ولو كنا فعلنا ذلك فى نجيب محفوظ عندما كتب أولاد حارتنا لتأدب سلمان رشدى» !!

لكن ماذا قال الذين يؤيدون الرواية؟ الرواية كتبت فى ظروف سياسية متقلبة، ولذا:

«لم يكن هناك أفضل وأسلم وآمن من تاريخ الرسل نموذجاً جاهزاً يتخذ من إطاره البنيوى العام ومن قيمه المثالية الرفيعة مادة ينسج بهما نقده للواقع السائد ورؤيته الفكرية والفنية التى يتطلع إلى تحقيقها فى مصر ولمصر، وربما للإنسان المعاصر حينما كان.. لم يكن فى الأمر إعادة كتابة لتاريخ هذه الرسالات الدينية وإنما استلهمها رمزياً لنقد

الحاضر الملتبس والتبشير بعالم أفضل يمكن أن تتجدد فيه السلطة تجدداً لمصلحة الناس جميعاً..».

قالوا أيضاً:

«فالجبلاوى فى رواية أولاد حارتنا هذا الجد الأكبر لكل أولاد حارتنا الذى يطل دائماً على الحارة ويغمر أفقها بجسمه العملاق ووصاياه العشر منذ بداية نشأة الحارة حتى وفاته، هذا الجبلاوى ليس من الضرورى أن يُقرأ فى الرواية باعتبار أنه الله الخالق لكل شىء وإن كانت بعض فقرات الرواية قد توحى بذلك على أنه قد يرمز إلى مايعنيه الله فى الأديان جميعاً من تجسيد معنوى لأشرف قيم الحق والعدل والمساواة والمحبة والعلم المثمر، أى هو رمز لمرجعية مثالية تمثل فى الوصايا العشر إلا أن الله الخالق تحديداً وارد فى الرواية فى أكثر من موضع، مما يجعل الجبلاوى دلالة خاصة مختلفة وأن كانت مراوغة فتقرأ فى الرواية مثل قول همام لأخيه قدرى: «أنت مجنون وحق خالق الكون»(*).

بل يفسر هؤلاء «أولاد حارتنا» على منحى أنها:

«النقد القيمى الفكرى الرمزى للسلطة الناصرية للتناقض بين شعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياسية، إلا أن الرواية فى الوقت نفسه تسعى لتقديم رؤيا تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع بين السلطة والمجتمع، بين السياسى والأخلاقى، بين النظرى والعملى، بين الموضوعى والذاتى فى مصر بشكل عام».

وقال هؤلاء أن هذه الرواية من أروع أعمال نجيب محفوظ وأنها أفضل رواياته من حيث المعمار الفنى للرواية.

(*) حكاية أولاد حارتنا.

ونجيب محفوظ نفسه قال ذلك. . حيث قال:

«لم يقرأ أحد الرواية على أنها أدب، ولكنهم قرأوها على أنها نص ديني، وأصل المشكلة أن أحداً لم يكلف نفسه عناء قراءة هذه الرواية جيداً».

ومع ذلك فقد كان للرواية مدافعون أشداء وأيضاً من يهاجمونها. .

فالمعركة بالفعل كانت شديدة. . واشتدت أكثر عندما تعرّض نجيب محفوظ للاغتيال، حيث نشرت الرواية مسلسلة فى جريدة «المساء» ثم صدرت فى عدد من جريدة «الأهالى». . وهو مازاد الموضوع اشتعالاً حيث إن الرواية ممنوعة.

ثار الجدل واشتعل وطالب البعض برقبة نجيب محفوظ وأدخله البعض المحكمة حتى يفرقوا بينه وبين زوجته. .

كل هذا والشيخ يقول فى عاميته المفرطة: «ماليش دعوة»!!!

شكراً ياشيخ على خدمتك لقضايا الدين وحسمك للخلاف فيه. . وهذا بالكلام فقط.

القضية الثانية:
الإسلام والسيف..

«الإسلام لم ينتشر بالسيف»..

اكتسبت هذه العبارة قدسية تصل فى درجتها إلى قدسية آيات القرآن الكريم، حيث إن من يجرؤ ويقول أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف تجد الهجوم عليه ضارياً ويقذف باتهامات عديدة أقلها أنه يريد هدم الدين وأكثرها يمكن أن يصل إلى الكفر والخروج عن الدين مثلاً.

غير أن اللافت للانتباه بصورة كبيرة أن المبررات التى يسوقها هؤلاء لتأكيد أن الإسلام برىء حتى من شُبهة انتشاره بالسيف.. مجرد مبررات ضعيفة ساذجة يمكن أن تقول عليها أنها مبررات سطحية.

الشعراوى.. كتاب «أنت تسأل والإسلام يجيب».. صفحة ١٤:

«السؤال: نريد حجة قصيرة وقوية ترد الادعاء بأن الإسلام قد انتشر بالسيف؟

إجابة الشيخ: انتشر الإسلام بين الضعفاء ولم ينتشر بالأقوياء، لذلك عندما يقول أحدهم أن الإسلام انتشر بالسيف فمن الذى حمله؟ من الذى حمل السيف؟ كان يصح ذلك لو أن محمداً ـ صلى الله عليه

وسلم ـ جاء ومعه سيف وأجبر به الناس على أن يؤمنوا، ولكن الذين آمنوا به كانوا هم الضعفاء، فأنا لا أتكلم فى السيف الذى حمل ولكن عن الذى حمل السيف.. على فرض أن انتشار الإسلام كان بالسيف.. من الذى حمل السيف؟ هم الضعفاء..

فالمسألة ماالذى جعل الضعفاء يقوون على حمل السلاح؟ هذا هو موضوع المناقشة.. إن القضية أن المبدأ تحقق فى أن الإسلام إنما جاء ليعرض مبادىء لا ليحمل السيف».

كلام الشيخ بالطبع ليس جيدا..

لكن يمكن أن ندرج هذه الكلمات تحت اتجاه واحد وهو الانسياق خلف الذين يتبنون هذا الاتجاه.. فالشيخ أكثر فى حديثه عن «الضعفاء»، وهى كلمة جديرة بالاهتمام حيث اختلافنا هنا عن ماهية الضعف.. هل هو الضعف المادى أم الضعف الجسمانى؟

نستبعد تماماً أن يكون صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضعفاء من الناحية الجسمانية.. فهم كانوا أقوياً.. حيث إن معظم أصحابه فى بداية الدعوة كانوا من الشباب حيث وكان النبى الذى يبلغ من العمر أربعين عاماً أكبر صحابته.. والشباب لايمكن أن نقول عنهم وخاصة فى بيئة صحراوية كالتى كانوا يعيشون فيها أنهم ضعفاء مثلاً..

فوق ذلك فقد كان منهم عبيد.. والعبد معروف عنه القوة البدنية والجسمانية فهو يعمل لصالح سيده أعمالاً لابد أن يكون معها قوى البنية.. وليس ضعيفاً.. يمكن أن نقبل فقط أن نفسر مسألة الضعف أنها ضعف مادى، فهم لم تكن لديهم أموال كثيرة وإن كان منهم تجار وأصحاب مال.. لكن غلبة العبيد العددية بين أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعلت الصورة الذهنية التى تكونت عن المسلمين عامة أنهم قوم من الضعفاء.. خاصة أن نبيهم والذى يقوم بالدعوة نفسه يتيم وفقير حتى ولو كان متزوجاً من السيدة خديجة.

اعتمادنا إذن على هذه الحجة يعتبر من قبيل السطحية التى نعانى منها. . حيث إن الإسلام فى بدايته لم ينتشر بالسيف، وهذا شيء لايستطيع أحد أن يجادل فيه أو يرده. . إن أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضى ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة فى مكة، كان فيها بين شقى الرحى. . فلم يكن يستطيع فى ظل التسلط والجبروت الذى يظلل أرض مكة أن يبدأ الجهاد المسلح ضد قريش. . فقد كانت قوتها المادية كفيلة بإهلاكهم أو على الأقل تأخر تقدم الدعوة على طريقها. .

إذن البداية لم تكن بالسيف. . لأنه لامكان للسيف. . بل كانت هذه المدة فقط من أجل الإعداد العقائدى لأولئك الذين سوف يتحملون أعباء نشر هذه الرسالة. . فإن البداية لو كانت بالسيف والقوة والعنف لاعتبر الجميع أن الإسلام وهذه الدعوة الجديدة إنما هى مجرد حركة دنيوية تسعى وراء المال والسلطة وأن أصحابها فقط عبارة عن مجموعة من المجرمين والبلطجية الذين يرغبون فى السيطرة. .

الذى ينفى ذلك هو الفترة التى قضاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة، حيث رفض كل العروض التى قدمتها مكة، فرفض المال والسلطة والقوة. . وظل يشاهد عذاب أصحابه وإهانته وهو واثق أن الأيام القادمة له ولأصحابه ولهذا الدين.

المرحلة الثانية التى بدأت بالهجرة إلى المدينة هى التى يمكن أن نقول أنها مرحلة السيف. . فالإسلام اعتمد على السيف فى نشر الإسلام والذى يقول غير ذلك لن يكون إلا كالدابة التى قتلت صاحبها. .

والبداية من الحديث الذى قال فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. . فإن فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم»**.

الغاية إذن هى التوحيد وإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة وغيرهما. .

الوسيلة فى ذلك كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى أن يقاتل الناس، فالقتال شُرع لنشر الدين وليس هناك قتال إلا من خلال السيف.

ولو رد البعض هذا الكلام وقال أن الاعتماد على تفسيرنا لهذا الحديث يجب أن

يرتكز على المناسبة التى قيل فيها وليس على عموم اللفظ، فربما يكون هذا الحديث قيل فى مناسبة معينة.. وبدورنا نقول لا.. فهذا الحديث بالذات من حقنا أن نرتكز أيضاً على عموم اللفظ، حيث إن الغاية وهى التوحيد وإقامة شعائر الدين مازالت قائمة.. فحتى لو كان الحديث خاصا بمناسبة معينة، فإنه ينصرف إلى كل الأوقات مادام هناك أقوام لم يدخلوا فى الإسلام.. والشىء الذى لايعطيه البعض بالاً.. هو ذلك الجيش الذى كونه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان هناك جيش وهناك ألوية وقواد وأهداف من وراء تكوين هذا الجيش، والجديد هو أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُعتبر النبى الوحيد الذى كان عنده مثل هذا الجيش.. يعترض البعض سريعاً ويقول أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان عنده جيش كبير.. هذا صحيح، وإن كان هذا الجيش يعمل لحماية المُلك الذى لم يعط لأحد قبل سليمان أو بعده..

لكن جيش النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام وتأسس من أجل الدعوة.. فهو النبى الوحيد الذى عمل على تنظيم القوة المسلمة.. والسبب ببساطة شديدة هو أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان النهاية.. الإسلام كان هو الدين الخاتم وليس مثل باقى الرسالات التى جاءت منذ نوح وحتى عيسى، فالدين كى يبقى لابد أن تتوافر معه قوة مادية تحميه.. لابد أن يكون معه سيف.. وهذا ما لايرضاه أعداء الدين.

المسألة لم تتوقف على ذلك.. بل وصلت إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يمانع فى اتباع الاغتيال كأسلوب للقضاء على بعض الخصوم والأعداء الذين يشكلون خطورة على المسلمين.. ليس هذا افتراضاً ولا تخيلاً ولكن استناداً إلى رواية البخارى حيث قال:

«كان سلام بن أبى الحقيق ـ وكنيته أبو رافع ـ من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة، وكان يؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قتله، وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم، فلذلك أسرعوا إلى هذا

الاستئذان، وأذن رسول الله فى قتله ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بنى سلمة من الخزرج قائدهم عبدالله بن عتيك.. خرجت هذه المفرزة واتجهت نحو خيبر إذ كان هناك حصن أبى رافع، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم قال عبدالله بن عتيك لأصحابه اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل.. فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته وقد دخل الناس، فهتف به البواب: ياعبدالله إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب.. قال عبدالله بن عتيك فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على ود (المفاتيح على وتد)، قال فقمت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يُسمر عنده وكان فى علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت على من داخل، قلت إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلىّ حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت، قلت أبا رافع فإذا قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت وماهذا الصوت ياأبا رافع؟ فقال: لأمك الويل إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف.. قال فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ثم وضعت ضبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره فعرفت أنى قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلى وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صاح الناعى على السور فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع.. فانتهيت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحادثته فقال: ابسط رجلك.. فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم أشتكها».

الرواية تعنى الكثير، فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هنا لم يعارض أن يقوم أصحابه باغتيال أحد أعدائه وإنما بارك فيه بما يعد مشاركة منه فى ذلك.

الرسول على ذلك اتبع كل الوسائل حتى ينتشر دينه. . ولأنه النبى ولأنه معصوم ولأنه ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾، فإن ذلك يمنعنا مثلاً أن نقول أن الإسلام لم يلجأ إلى السيف أو القتل أو الحرب أو المواجهة.

وموقف نعيم بن مسعود ليس ببعيد عن العقول. . «فنعيم هذا رجل من غطفان جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له: يارسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى ماشئت. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة. فذهب من فوره إلى بنى قريظة وكان عشيراً لهم فى الجاهلية فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم. قالوا: صدقت. قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لاتقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بعيدة، فإن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم. قالوا: فما العمل يانعيم؟ قال: لاتقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأى. . ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودى لكم ونصحى لكم؟ قالوا: نعم. قال: إن يهود قد ندموا على ماكان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه وأنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم. . ثم ذهب إلى غطفان فقال مثل ذلك».

الخداع سلاح آخر دخل فى المعركة بين الإسلام وأعدائه. . كل ذلك يجعلنا على مستوى العقل نستحى أن نقول إن الإسلام لم ينتشر بالسيف. .

إذن فالشيخ الشعراوى انساق خلف هذه الأقوال وقال هذه الفتوى السطحية. . المفزع فى الأمر أن الشعراوى - فى كتاب «لبيك اللهم لبيك» الذى صدر عن المكتب المصرى الحديث عام ١٩٨٠ - قال كلاماً مختلفاً. . فتحت عنوان «هل انتشر الإسلام بالسيف؟». . صفحة ٨١، قال:

«قضية القوة فى الإسلام قضية موضوعة لمهمة، إلا أننا فى آخر عهدنا

قد وجهنا المهمة وجهة أخرى، هذه الوجهة هى ما أراد أعداؤنا أن يقنعونا بها، قالوا إن الإسلام انتشر بالسيف فأحب المسلمون أن يردوا على ذلك فقالوا: لا إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، والسيف لم يستعمل فى الإسلام إلا دفاعاً عن النفس، وبعد ذلك جاء المسلمون وأعجبتهم الفكرة من أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ولكنهم مافطنوا إلى خبث هذه الدعوة..

خبث هذه الدعوة نشأ من ماذا؟

نشأ من خوف خصوم الإسلام أن يحقق الإسلام المراد من وجوده فى الأرض ليظهر على الدين كله، ومعنى ليظهر على الدين كله أن مهمته إثبات الرشد للإنسانية كلها، هم يريدون للإسلام أن يكتفى بالبقعة التى هو فيها ولايفكر تفكيراً طموحاً فى أن ينساح ليجعل كلمة الله هى العليا، فيقولون جاء الإسلام للدفاع فقط، ومادام جاء للدفاع فقط فليس له أن يتعدى سائر حدوده.. تلك كلمة براقة تبرىء الإسلام من أنه انتشر بالسيف، ولكنها تعوق الإسلام عن مده الذى أراده الله له لأن الإسلام ماجاء لينشىء أمة واحدة فى الأرض وإنما جاء ليعمم عدالة السماء فى الأرض كلها، ولكنه لايفرضها فرضاً.. إذن فمادام لايفرضها فرضاً فماذا يكون الموقف؟ إنه إن فرضها فرضاً بقوته ـ إن كان يملك قوة الفرض للعقائد ـ فإنه قد استولى على القوالب، والإسلام لايريد أن يستولى على قوالب تحكم ظاهر الأشياء، ولكنه لايحكم خفيات الأشياء، فقصارى أن تملك القالب والشكل أن صاحب القالب والشكل يحاول ألا تراه منحرفاً عن منهج الحق، فإذا ما خلا له الجو أو إذا استطاع أن يستتر بجرمه فإنه يفعل.

لماذا..؟

لأنك لم تملك قلبه وإنما ملكت قالبه.. إذن فقالبه هو موضوع

الحساب والجزاء، لذلك وضع الحق مبدأ فى انسياح الإسلام، فقال: ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾، مادام لا إكراه فى الدين، فكيف تريد أن يمتد الإسلام إلى رقع أوسع؟

تقول إن الذى يمنع منطق عدالة الإسلام هو قوى الطغيان فى الأرض، فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد المسلم على قول دعوته وعن الدعوة إلى الله، فلنا أن نقف أمام هذه القوة وأن ندكها دكاً وبعد ذلك نترك الناس أحراراً ليروا الإسلام، حينها يكون رأيهم بحرية وبمحض اختيار فلا فرض لعقيدة، ولذلك نجد الإسلام حينما فتح بلداً من البلاد أحمل كل أهله على أن يسلموا أم ظل فيهم من ظل على دينهم؟

فلو أن الإسلام جاء لينشر بالسيف، فإن معنى ذلك أن كل بلد فتحه الإسلام كان لابد أن يسلم أهله ولكننا نجد كثيراً من البلاد المفتوحة ظل أهلها على دينهم ولا حرج عليهم، إذن فماذا فعل الإسلام؟.. أزاح قوى الطغيان التى تفرض على الناس ديناً، فإذا ما أزاحها ترك الناس أحراراً يختارون مايشاءون من الأديان وحينئذ يكون إقبالهم على الإسلام طواعية».

وكلام الشيخ هنا يحسب له. . فهو يتحدث بالمنطق والعقل. . فهذه الكلمة التى باتت تعشش فى عقول المسلمين كما يعشش العنكبوت أورثتنا نفوساً مريضة وهمماً غائرة. . وأصبحنا فى بلاهة شديدة نقول أن القوة المادية ليست كل شيء، هذا فى الوقت الذى لانمتلك فيه أساساً شيئاً من القوة المعنوية.

لكن المحير أن الشيخ يناقض نفسه، مرة يقول نعم ومرة يقول لا . .

وهذا مايوقعنا فى حيرة معه، إذ من نصدق الشعراوى السطحى الذى يبرر بمنطق ضعيف أم الشعراوى الذى يعالج الأمر بعقلانية وبواقعية شديدة؟

وهذا أخطر مافى الشعراوى. . إنك أحياناً تجد كلاماً مكتوباً باسمه يناقض بعضه بعضاً.

القضية الثالثة:
الفنون مجون..

قبل أن نعرف هل الفنون مجون عند الشعراوى أم لا . . نسمعه أولاً فى فتاواه المختلفة عن الغناء والتمثيل والفن عامة . .

١ ـ الشعراوى فى كتاب «١٠٠ سؤال وجواب مع الشيخ محمد متولى الشعراوى» سلسلة «اقرأ» صفحة ٧٥ :

«السؤال: ماحكم الغناء للرجل؟

الشيخ: إن تاب الله عليه!! نطلب له التوبة».

٢ ـ الشعراوى فى نفس الكتاب، صفحة ٧٨ :

«السؤال: ماحكم الاستماع للأغانى؟

الشعراوى: لم يبح إلا نشيد حداء الإبل وغناء المرأة للسيدات والرجل بشرط ألا يكون مهيجاً.. لا خير فى خير بعده النار، ولا شر فى شر بعده الجنة، ولابد من مقارنة المقدمات بالنتائج».

٣ ـ الشعراوى فى كتاب «الشيخ الشعراوى من القرية إلى القمة» لمحمود فوزى، صفحة ١٢٢ :

«فضيلة الشيخ.. كثير من فناناتنا عرفن طريق التوبة على يديك، منهن الفنانة الكبيرة شادية وهناء ثروت وهالة الصافى وغيرهن؟! ماذا قلن لك وماذا قلت لهن لكى تفتح لهن طريق التوبة؟

الشعراوى: كانت أولهم شادية، والله أنا دخلت عليهن من مدخل واحد، قلت لهن أنا عاوز تقولوا لى عن فنانات عاشوا فى الفن إلى أن رأيتوهم ماذا كانت حياتهم الدنيوية؟

قالوا: فى بؤس وشقاء ويعطف عليهم من لاينتفع بفنهم، اللى بيعطف عليهم الآن الناس اللى ماانتفعوش بجمالهم ولا فنهم، الناس الطيبين اللى بيعيشوهم دلوقتى.

فقلت لهن: إذن المسائل أمامكم واضحة الآن، والله سبحانه وتعالى أبهم أمر الموت لهذا، فلا أعرف متى سأموت.

ـ طيب واحدة مثل الفنانة شادية كانت فى المرحلة الأخيرة تكتفى بالغناء فقط وتركت حياة السينما بكل مافيها.. هل كان الغناء حراماً بالنسبة لها؟

الشعراوى: أيوه حرام.. أيوه حرام لأن كل مايورث فى الإنسان تكسر أعضائه وخروجاً عن وقاره حرام حرام، فأنت قد ترى أناساً قد أقاموا حفلة والناس تجلس فى وقار، ثم تأتى واحدة ترقص فيمسكون لها الواحدة ويصفقون لها وهم يتمايلون فى التصفيق، ألا ترى ذلك يبقى خرجوا عن وقارهم، مش كده والا إيه؟

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل غريزة الإنسان الجنسية هى وحدها التى تنفح عليه، إذن ماتهيجهاش أنت زيادة، على قدر مايمكن ماتهيجهاش لأنها معمولة بشكل تلح عليك هى، إذن أنت مطالب بألا تفعل مايهيج غريزتك الجنسية خصوصاً أن هناك ناس لسه لم يؤهلوا لأن يكون لهم أزواج.. لايزالون فى مرحلة الشباب.

- وهل يتوب الله عليهم؟

الشعراوى: الله يغفر الذنوب جميعاً، بل بالعكس كل مايفتكروا أنهم عملوا شيء ويزعلوا علشانه يبقي ياخدوا حسنة، يبدل الله سيئاتهم حسنات، فيه حاجة أكتر من ذلك، ليس يغفر السيئة فقط، ولكن يبدل الله سيئاتهم حسنات.. لماذا؟ لأن هؤلاء وهم مقبلون على الله مع أنهم جربوا اللذة فى الخروج عن الله ومع ذلك تركوها، يبقوا إذن أكثر من الذين لم يفعلوها».

٤ - الشعراوى فى مجلة «آخر ساعة» العدد ٣١٢٧ سنة ١٩٩٤ :

«- يلاحظ البعض أن الشيخ فى حديثه عن الفنانات المعتزلات يستخدم أحياناً تعبير التوبة، وهو مايوحى بأنهن قد ارتكبن من المعاصى مايستوجب التوبة وطلب الغفران.. لماذا لاتقول إنهن قد اعتزلن الفن وكفى؟

الشعراوى: التى أصرت على أن تخرج من هذا لكى تعبد ربها يبقى كانت بتعمل إيه؟!

- كانت تعمل بالفن ولم تعد ترغب فى الاستمرار فى هذا العمل لسبب أو لآخر فتركته.

الشعراوى: إذا كانت قد خرجت من هذا العمل إلى طريق آخر لايعرضها للفتنة ولا تفتن هى غيرها ثم ذهبت إلى الاستقامة وتركت الحتة اللى فيها شبهة حرام يبقى إيه؟».

٥ - الشعراوى فى برنامج «من الألف إلى الياء» عام ١٩٨٩ مع المذيع طارق حبيب :

«فضيلتك بتشاهد الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية؟

الشعراوى: بيقولولى عليها إخواننا، بيقولوا عليها كويسة مافيهاش

حاجة أشوفها، مافيهاش مخالفات، يعنى مافيهاش رقص مافيهاش امرأة خروجها مش عارف إيه وإيه وواحد متزوجها ونائم معها فى السرير و.. و...

ـ ما الذى يضحكك فى المسلسلات والأفلام؟

الشعراوى: النكتة المهذبة، نعم أنا أنبسط من عادل إمام فى مزاولته للأشياء.

ـ هل تستمع إلى الغناء والموسيقى؟

الشعراوى: لا، لأنى مامعنى الاستماع إلى الغناء، هو طلب انسجام ملكات النفس، فاللى عنده وسائل لانسجام ملكة نفسه غير الغناء يعوز الغناء يعمل به إيه، مش أنا عايز أنسجم طب أنا بانسجم أروح أقرأ جزء قرآن وأنبسط كده لما أقعد أصلى ركعتين، خلاص عايزين منى إيه؟ مش انتم عايزين انسجام ملكات النفس مايحب، ده كييف قهوة نص زيادة وده كييف بن وده كييف شاى، أعمل به إيه خاصة الغناء المدغدغ.

ـ لكن أم كلثوم وعبدالوهاب على سبيل المثال..

الشعراوى: عبدالوهاب لى جلسات معه كثيرة، لما كان يقول الحاجات الحلوة أقول له يا أخى أنت خلوك تغنى ليه؟ فالأمير سلمان قال أمال مايغنيش؟ قلت له: لا مايغنيش. قال: أمال أعمل إيه.. قلت له: تتكلم بس، كلامك نفسه حلو.

ـ وكوكب الشرق أم كلثوم؟

الشعراوى: كوكب الشرق كنت أسر بها عندما دخلت الهمزية والبردة، بس أنا ماتسمعش يعنى أسمع.. فرق بين أن أتسمع وأسمع، أن أسمع ييجى على ودنى كده، إنما أتسمع أتكلف أقول هات مش عارف إيه وإيه واللى يقع على الله يكون وخلاص نعم، ولذلك النبى

قيد هذه المسألة. مش تعالي من استمع إلى غانية فصب في أذنه الآنق من إيه تسمع إنما اللي ماشي وقاعد يغني طب أنا حسكت الناس دول».

٦ ـ الشعراوى فى حديث مع إذاعة لندن. . فبراير ١٩٩٦ :

«هل تحب أن تسمع أغاني في أوقات تخلو بها إلى نفسك؟

الشعراوى: ماترك لى القرآن وقتاً أستمع فيه إلى أغاني».

هذه باختصار كلمات أو معظم كلمات الشعراوى عن الفن والغناء. .

ويلاحظ على كلام الشعراوى. .

أنه قاطع أحياناً فيقول حرام هكذا بلا تردد، وتراه أحياناً يتحدث كلاماً غير محدد ولا صريح لا نفهم منه شيئاً. . فهو يقول مثلاً فرق بين أن أسمع وأتسمع، ومثل ماترك لى القرآن وقتاً أستمع فيه إلى أغاني. . فهذا كلام غير محدد.

من خلال قراءتنا لكلمات الشعراوى كذلك وجدنا أن هناك نسختين من الشعراوى، لاتحمل نسختاه تناقضاً، ولكن هناك نسخة متشددة ونسخة أخرى أقل تشدداً، فالشعراوى التليفزيونى والإذاعى نجده يتحدث بهوادة فهو يتحدث عن محمد عبدالوهاب وأم كلثوم وسماعه من محمد عبدالوهاب وكذلك إعجابه بالهمزية والبردة لأم كلثوم، نجده كذلك يدفع عن نفسه عدم الانسجام إلا من القرآن دون أن يقول وما حال الذى ينسجم من الغناء. . مابال الذى تقف ملكات نفسه مع الغناء على وفاق. . هذه النسخة التليفزيونية يدرك الشعراوى تماماً أنها تتحدث على كل الناس الذين يقرأون والذين لايجيدون القراءة. . الرجل لايريد أن يفقد أحداً، فهو يتحدث إلى الجميع فى ثوب الإمام اللين غير المتشدد الذى ييسر على الناس. . لكن النسخة الثانية، وهى النسخة الكتابية من الشعراوى وهى تنتشر فى كتبه بصورة كبيرة، وحيث إن قراءه هم الذين يقرأونها فقط، فليكن الرجل على طبيعته ويتحدث بصورة مكشوفة وعارية عن كل مايريد، فنجده يقول حرام ويكرر أن ذلك حرام. . فهنا نسخة وهناك نسخة أخرى تماماً.

الشيء الثالث فى كلام الشعراوى أن الشيخ لايدرح لماذا يُسأل عن رأيه فى الغناء أو التمثيل؟ لايعرف. . بالتأكيد لايعرف. . فالشعراوى يُسأل عن رأيه فى الموسيقى والغناء والفن لأنه الشعراوى رجل الدين، فالناس تريد حكم الدين، وحكم الدين هذا غير مرتبط بانطباعات أو عادات شخصية أو تعبيرات لغوية يعتز بها الشيخ. . فماذا أفهم وماذا يفهم الناس عندما يقول أن القرآن لم يترك له وقتاً يستمع فيه إلى أغانى؟. . فهل لو كان القرآن ترك لك وقتاً يامولانا كنت استمعت؟. . فالناس تريد من الشعراوى أن يتحدث عن رأى الدين. . ماذا قال الرسول وماذا قال القرآن؟ لا ماذا يرى الشعراوى. . فالملاحظ أن جميع كلمات الشعراوى السابقة عن الغناء وعن الفن خلت تماماً من أية نصوص دينية أحاديث أو آيات قرآنية، وهو مايؤخذ عليه.

لماذا. . ؟!

ببساطة شديدة لأن الواقع ليس كما يصوره الشعراوى. . وليس كما يراه أئمة الإسلام الكبار من أمثال الإمام مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل، فقد قالوا كلاماً كثيراً فى أمر الغناء والموسيقى يشيب له الوليد.

فالإمام مالك ـ مثلاً ـ قال عن الغناء: لايفعله عندنا إلا الفساق، والفاسق فى الإسلام لاتقبل شهادته ولا يصلى الأخيار عليه إذا مات، بل يصلى عليه الغوغاء والعامة. ومن أحكامه الفقهية أن الرجل إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب الذى هو كونها مغنية.

الإمام الشافعى سُئل عن الرجل تكون له القينة فيجمع أصحابه لتسمعهم الغناء. . فقال: هذه دياثة. . وصاحب هذه الجارية ديوث، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«لايدخل الجنة ديوث»**.

الإمام أبو حنيفة قال كلاماً غريباً عن ذلك، حيث قال: إذا سمع المؤمن صوت الملاهى والمعازف فى دار، دخل على أصحابها بدون إذنهم ليتمكن من تغيير المنكر، لأن تغيير المنكر فرض، وأن للإمام أن يحبس أو يضرب أو يرحل من لاينتهى عن هذه الفاحشة.

وأمر الإمام أحمد بن حنبل ألا تباع الجارية على أنها مغنية، لأن ثمنها حينئذ يكون حراماً. فدل هذا على أن الإمام أحمد كان يحرم الغناء ولا يبيحه، وقد قال عنه: إن الغناء يُنبت النفاق فى القلب فلا يعجبنى.

والمسألة فى غاية الغرابة حيث إن الواقع ليس بهذا السوء، والفن والغناء ليسا إلى هذه الدرجة من الفسق والمعصية.. ففى الفن بكل أنواعه نوع من الخروج الذى يرفضه الدين.. لكن الفن فى حد ذاته بالتأكيد ليس حراماً.

ونسجل هنا كلمة الأديب الكبير يحيى حقى.. ولا يحتج يحيى حقى على أحد.. لكنه قال: إن الفن ليست كلمة جوفاء ولكنه نزعة إلى الإجادة.. والفن سواء كان غناء أو تمثيلا أو رسما أو موسيقى أو نحتا.. فكل هذه الألوان من الفن تسعى إلى الإجادة وإلى تهذيب الروح.. والسمو بها.. وليس معنى ذلك أننا ننكر بعض الممارسات الدونية فى هذه الفنون.. لكن من المفروض على عالم الدين قبل أن يتحدث أن يلتفت إلى الجوانب الإيجابية فى هذه الفنون.. فالشعراوى مثلاً أكد على مسألة التهييج الجنسى الذى ينشأ عن الفنون التى تخاطب الغرائز، فقد ذكر ذلك وأعاده وكأنه هو مركز المسألة.. وإذا انساق الإنسان وراء هذه الغرائز فإنه أيضاً يتحمل المسئولية إلى جانب القضاء على مثل هذه الفنون.

إذن منطق الشعراوى فى الحديث عن الغناء والفن يفتقد الموضوعية.. هذا فى الوقت الذى تحدث فيه الشيخ الغزالى - رحمه الله - عن حبه لأغانى فيروز وأنه يلجأ إلى الموسيقى الهادئة إذا ماكانت أعصابه متوترة لتهدأ أعصابه.

وليس غريباً مثلاً أن يكون الدكتور سيد طنطاوى المفتى السابق وشيخ الأزهر الحالى.. ليس غريباً أن يكون الرجل يحب سماع الغناء وإن كان وقته لايسمح له إلا بالقليل ويحرص على سماع القصائد الدينية والأناشيد الوطنية كالنهر الخالد لعبدالوهاب وولد الهدى لأم كلثوم والأخيرة هى أحب الأغانى إلى قلبه.

وهنا نسجل شهادة للدكتورة ثريا المرغنى الأستاذة بجامعة الأزهر بالإسكندرية،

حيث قالت عن حكم الإسلام فى الغناء: «الرسول كان يأمر بضرب الدف والغناء فى الزواج للرجال وللنساء، وعندما عاد الرسول من إحدى غزواته قابلته امرأة بضرب الدف وخافت لما رأت عمر، ولكن الرسول طالبها بالاستمرار. إذا كان الغناء لايثير الشهوات أو الرغبات، فلماذا يكون حراماً وإذا كانت الموسيقى تهذب الروح وتعالج المرض فكيف تكون حراماً، الحرام هو إثارة الشهوات، والحرام هو ماينهى عن ذكر الله... وعن المسرح قالت: «المسرح الجاد الهادف وليس الهازل يمكن أن يكون وسيلة عظيمة لنشر الوعى الدينى»..

وبالطبع ليس أى من هؤلاء يمكن أن نشير إليه ونقول أنه حجة على الإسلام، بل الإسلام هو حجة على الجميع، ولكن المقصود من إثبات أقوالهم أن هناك اتجاها يقول أن الفن ليس حراماً وأن الغناء ليس حراماً.. لكن الكلام المضطرب الذى لانعرف منه هل الغناء حلال أم حرام.. فهذا هو الحرام بالفعل.

فماذا نفهم من كلام الشعراوى مثلاً عندما سُئل عن حكم غناء الرجل «إن تاب الله عليه نطلب له التوبة».. فهذا الكلام فوق أنه غير مفهوم فهو لايقطع بشىء فى الموضوع، فالذى نطلبه من الشيخ أن يتحدث بدقة وبتحديد.

لا أن يطلق كلماته وفقط، فمثل هذه الكلمات هى التى أثارت الكلام الصادق والكاذب حول الشيخ من أنه السبب فى توبة الفنانات وأنه يعطيهم أموالاً كى يتركوا الفن، وثارت الأقوال أنه يريد هدم الفن والقضاء عليه، والشيخ بكل سلبية لايرد أو حتى يتحدث كلاماً متناقضاً أيضاً.. لانعرف موقفه الحقيقى وإن كانت القراءة الأولى لأقواله وفتاواه عن الفنون أنها مجون.

* الشعراوى فى بيت شادية..

الكل يعرف شادية، تلك البنت الصغيرة الدلوعة التى كان من الممكن أن تقابلها فى كل بيت مصرى، تخترقك بخفة ظلها وملامحها البريئة وابتسامتها الرقيقة وتشعر أنها قريبة منك، أختك يمكن، حبيبتك يجوز.. مضت شادية فى طريق الفن إلى

آخره. . حتى جاء الوقت الذى أعلنت فيه أنها ستعتزل الفن وسترتدى الحجاب، وفى الوقت نفسه تؤكد أن الفن ليس حراماً وأنها تحترم تاريخها وعملها. .

لكن ما دخل الشعراوى فى كل ذلك؟

لنسمع إلى هذه الكلمات. . يقول الشيخ:

«لقد كنت فى دهشة بالغة للغاية وأنا أرى أمامى تلك المطربة التى أطربت الجماهير بصوتها، جاءت لتستمع إلى صوتى الذى لا رتم فيه ولا موسيقا، كنت أتحدث إليها فتهتز وتحلق فى سمو روحى وتطلب منى ألا أكف عن الكلام، لقد وجدت الطريق إلى الإيمان وطلبت منى أن أعينها لتسير فيه بخطوة ثابتة فأعنتها».

هذه كلمات الشيخ. . حتى أنه سُئل: هل حقيقة ـ كما تردد ـ تزوجت شادية؟

قال الرجل:

«أنا لا أقول أعوذ بالله منها، لأنها الآن صارت سيدة فاضلة، لكنه شرف لا أدعيه».

والغريب فى الأمر أن هناك من يؤكد أن شادية لم تكن على علاقة بالشيخ الشعراوى، وماحدث فقط أنها فى عام ١٩٨٧ اتصلت به مرتين قبل الحجاب ثم أقلعت عن الاتصال به نهائياً حتى أن المقربين منها كانوا يسمعونها تطلق عليه لقب «راسبوتين». . مامعنى ذلك؟. . لا أدرى!!!

إذن كلام الشيخ الكثير فوق أنه كلام مختلط وغير محدد فقد أدخله فى دوامة من الشائعات.

والمؤسف أننا بعد كل هذا الكلام للشيخ لانعرف هل الفن والغناء حلال أم حرام؟

صحيح يامولانا. . هل الغناء والفن حلال. . أم حرام؟!

القضية الرابعة:
ماذا تقول عن العلم يامولانا؟!

أعظم مافى الإسلام أنه دين يحرص على العلم ويدعو إلى البحث والابتكار، بل يتحمس لكل جديد بشرط أن يكون هذا الجديد درجة فى سلم تقدم البشرية وليس خطوة فى درك التدنى البشرى المقيت.

وإن لم نبدأ بهذا الموقف.. فعلى الأقل عندما نبحث نجد أن للإسلام موقفا واضحا وصريحا.. والبحث الذى يجرى بإخلاص فى هذه النقطة نخرج منه بنتيجة هامة وهى أن الإسلام يساند العلم والاكتشافات الجديدة.

الشعراوى لايفعل ذلك، فمع أنه يتحدث عن العلم وأهميته فى الحياة، لكن موقف الرجل من العلم غير واضح، غير محدد، ولنقف معه وقفة قصيرة نسجل فيها اعتراضه على الاكتشافات الحديثة لأنها تساعد فى زيادة المسافة بين الله وبين عبده بعداً.. يقول الشيخ:

«اكتشافات العقل ليست دليل قدرته، ولكنها دليل العجز، ولو لم تكن عاجزاً بالأمس ما اكتشفت اليوم، ولو أنك أيها العقل صالح لإدراك حقائق الأشياء لأدركتها دفعة واحدة بمجرد وجودك، فى الوقت الذى يصادق العقل فى نضوجه، أهل العقل كل مايكتشف يبتعد عن فطرة التدين، ولقد ضربنا زمان مثلاً، الناس حينما كانوا

لايجدون ماء لزرعهم ولا لحيواناتهم ولا لشربهم ماذا كانوا يصنعون؟ كانوا يفزعون إلى الاستسقاء، إن الحلقة موصولة، ليس هناك غيرها اليوم، وهكذا عندما لا أجد الماء يكون هناك ماسورة كسرت أكلم وابور المياه.. أصبحت هناك وسائط من نشاطات العقل أبعدتنى عنه، لكن متى تقول أن الآبار حفرناها فلم تخرج ماء أو النيل لم يأت فنبتدى أن نرجع إلى الله، فالوسائط بيننا وبين التضرع إلى الله طالت من عملية العقل، لأن العقل أحضر لى خزاناً ووضع لى فيه ماء يكفينى مدة، ولو لم يكن العقل هذا أحضر لى خزاناً وعمل لى قوانين مستطرقة.. مثلاً.. فكان بمجرد أن تنقطع المياه قلت يارب، يعنى أننا نبتعد عن الإيمان بقدر عطاء العقل، وهذه كارثة.. فقد كان من المفروض أننا كلما نكتشف سراً من أسرار كون الله فى الوجود أن نزداد بالله تعلقاً وإيماناً بالله تعالى، وتعلقاً إذا كان لابد أن تقوم الدعوة التى ستعاصر وثبات العقل فى الإنفاق ودعوة وسعة تقابل هذا فتكون دعوة الرسول عظيمة جاءت تواجه العقل المنظور».

مامعنى هذا الكلام؟ فهل الشيخ مع أم ضد العلم؟ مع أن يرتقى الناس وأن يتقدموا وأن يكتشفوا أم يظلوا على حالهم؟!

من الناحية العقائدية الشيخ يرفض نتاج العقل لسبب بسيط، أن كل نتاجات العقل البشرى لاتساهم إلا فى إبعادنا عن الله وإيجاد وسائط بيننا وبينه. . والكارثة أن هذه بالفعل مشكلة لكننا لم نجد أحداً يقف لها ليقدم الحل من الناحية العقائدية.

فإذا كان هذا يحدث بالفعل حيث إن الاكتشافات الجديدة تفصلنا عن الله. . فما هو الحل؟!

هل نهاجم العلم أو نهاجم المدنية؟ هل نعترض على التقدم؟ هل نرفض نتاج العقل؟

بالطبع هذه ليست حلولا . .

فالشعـراوى عندما يقول هذا الكلام عن العلم والاكـتشافات الحديـثة. . من أنها تجعل الناس تبتعد وتنفصل عن الله. . لن يجعل هذا الكلام الناس تكف عن التعامل مع منجزات العلم والحضارة الحديثة.

ومهمـا قدم الشعراوى من أدلة وبراهـين ووقائع استمدها مـن بيئته الريفـية مثل المقارنة بين الحمار والسيارة أو زيادة العمليات القيصرية فى الولادة بعد الآلات الحديثة التى تستخدمها المرأة. . وهى هى المرأة التى كانت تـلد بمنتهى السهولة قبل ظهور مثل هذه الآلات وكأن هذه الآلات كانت السـبب فى زيادة انتشار العمليات القـيصرية فى الولادة. . مهما قال الشعراوى من أمثـال ليؤكد بها كلامه لن ينصرف الناس عن هذه المنجزات.

ومهما قال الرجل عن الطب وعن التداوى وتحريمه لنقل الأعضاء، فإن الناس لن تكف عن التداوى وعن نقل الأعضاء والتبرع بها. . وذلك كله لسبب بسيط للغاية هو أن الشعراوى يـتحدث إلى الناس بكلام بعيـد عن المنطق وبعيد عن العقل وبـعيد عن الواقع.

فالناس تحتاج. . الواقع يفرض عليهم أشياء معينة. . ويفرض عليهم بقوة التعامل معها. . ولابد أن يندمج الناس فى شئون واقعهم. . وعندما يأتى علماء. . الدين هنا لايتحدثون مع الناس إلا من خارج الإطار الذى يعـيش فيه الناس. . فالرجل المريض مثلا الذى يسمع كلاما ينهاه عن التـداوى أو اللجوء إلى الطب أو غير ذلك سينصرف عن عالم الدين. . حتى ولو كان الشعراوى.

والشعـراوى نفسه الذى قـال ذات مرة أنه لابأس من إزالة إصبع سـادس إذا كان ظاهراً. يعـود فى كتابـه «الحكمة الإلهـية» ليقـول لا. . ليس من المفروض أن يـلجأ الإنسان إلى عمليـة جراحية. . فإن هذا الإصبع الزائد لهـو من طلاقة قدرة الله والله فعل ذلك حتى يكون موعظة للآخرين. . فلابد أن تترك آيات الله تمارس وظيفتها فى الكون.

هذا الكلام عندما يسمـعه أحد هؤلاء الذين تسبب له تشوهاتهم الخلقـية أضراراً

نفسية.. لابد أن يرفضه.. هو لن يرفض الدين بالطبع.. فقط لأن الإنسان يدرك أن الدين لايرضى له المهانة أو الضيق النفسى.. وإذا كان الشعراوى لم يتحدث بوضوح فى مسألة العلم فلم يقل عنه حراماً أو حلالاً.. لكن كلامه لايقودنا لشىء.. وإجابة السؤال الذى وُجه للشيخ عن رأيه فى الاختراعات الحديثة يدلنا على ذلك.. قال الشيخ:

«بالعكس،الاختراع.. ماهو الاختراع؟ هل اخترع أما اكتشف، اكتشف فقط، اكتشف بظاهرة فى كون الله فطرية الرجل الذى اخترع الآلة البخارية، ماذا فعل لقد جلس ووجد قدراً تحته نار وللقدر غطاء يرتفع.. لماذا وجد أن الدخان يرفع الغطاء فقط هذه هى الحكاية، إذاً القرآن يوحى لنا إياكم أن تمروا بظاهرة فى الكون ولاتتأملوا فيها لأنكم بتأملكم فيها تعرفون منها أشياء وتنفعكم ولذلك ﴿وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ بمعنى أننا لو لاحظنا التى هى مبدأ العلم التجريبى وهى الملاحظة عندما ألاحظ فأنا أبتكر.. نعمر».

كلام الرجل أيضاً غير محدد..

لكن النتيجة العامة أن الشعراوى علاقته غير سوية مع العلم.. ومن أغرب ماقاله فى الفترة الأخيرة فى حلقاته التليفزيونية:

«إن علماء الغرب بما قدموه من آلات واكتشافات واختراعات إنما هم يخدمون المسلمين.. فأنت تجلس للعبادة فى راحة واستقرار والله يسخر لك هؤلاء الذين يوفرون لك الآلات التى تساهم فى راحتك»..

رأى نشكر الشيخ عليه.. لكن فقط لانكرره.. فكفى سخرية من عقولنا وكفى انهزامية وسعياً وراء تبرير لتقصيرنا.

فإن كنت ضد العلم. فهذا يكفيك مادمت مؤمناً به.. لكن من العبث أن يأتى أحد ليسير ضد تيار التقدم الطبيعى والمنطقى للحياة.

الفصل الثالث

الهجوم على الشعراوى.. لماذا؟!

لا أبالغ إذا قلت أن الذين يهاجمون الشعراوى يهاجمونه من أجل الهجوم . .

ولن أبالغ أيضاً إذا قلت ـ على الرغم من ذلـك ـ أن الشعراوى يستحـق الهجوم الذى يتعرض له . .

فى كلامى بعض التناقض . .

أعترف بذلك، لكن لنبدأ بالنقطة الثانية . .

والسؤال هو:

لماذا يهاجم البعض الشعراوى؟!

فعلى الرغم من شعـبية الرجل الكاسحة، وعلى الـرغم من الإصغاء الرهيب من كل من يسمع للشـعراوى، لكن هناك من يخرج عـن مثل هذا الإجماع، والأسـباب كثيرة، بعضها يعود للشعراوى نفسه، وبعضها يعود لهؤلاء الذين يهاجمون الشيخ . .

* **أولاً:** الشعراوى جعل من نفسـه متحدثاً فى كل شىء، خرج الرجل من نطاق الكلام فى الدين والتفسير القرآنى إلى الحديث عن الكيمياء والفيزياء والفلسفة والطب والزراعة والهندسة، وحتى لو التـمسنا العذر للشيخ، حيث إن تفسـيره للقرآن يستلزم أن يتحدث الرجل فى مـثل هذه الأشياء، لكن لن نجد له أى مبـرر أو عذر فى طريقة الحديث والأسلوب الذى يتـبعه فى حـديثه عن هذه العلوم، فالرجل يضع نفـسه فى مكان الناقد لكل النظريـات العلمية ومعـترضاً عليهـا أحياناً، وهذا بالطبع يوقـعه فى الخطأ ولن ننساق وراء كلمات البعض أن الشيخ متمكن عندما يتحدث فى أى شىء.

المنطق يرفض هذا القول، فأى تمكن هذا الذى نتحدث عنه والشيخ تعليمه أزهرى وتدريس مثل هذه العلوم على الهامش والشيخ نفسه اعترف أنه تلقى ثقافته من والده الرجل الأمّى وحصل على قدر ضئيل للغاية يصل إلى ١٠٪ من هذه الثقافة من الكتب والمراجع العلمية.

إذن عندما يخوض الشعراوى فى مثل هذه الأمور نجد أن بعض المتخصصين فى هذه العلوم يقفون أمامه ويقولون: لا يامولانا..

* **ثانياً:** الشعراوى أيضاً، مع إدراكه الشديد لأهمية العلم إلا أنه لايعطيه قدره ولايضعه فى موضعه السليم، وأكبر دليل على ذلك هو تدخله فى مسيرة العلم بكلمات إذا استمعنا إليها لتوقف العلم وانقرض ولانتهى تطوره، فالشعراوى - مثلاً - يعتبر أن مسألة طفل الأنابيب مجرد «فنزحة علمية»، وبترجمة أفضل يعتبر الشعراوى أن جهود العلماء فى تعويض الرجل الذى حُرم من الأبناء والمرأة التى كُتب عليها ألا تعيش إحساس الأمومة.. يعتبر الشعراوى تعويض هؤلاء بالأبناء مجرد فذلكة علمية من هؤلاء العلماء، وليس لهم أن يسعوا فى تغيير قدر الله، وعلى هؤلاء الآباء أن يرضوا بحكم الله فيهم.

الشيخ إذن يحط من قدر العلم وماوصل إليه العلماء من اكتشافات واختراعات، وهذا مما يدفع البعض إلى الهجوم على عقلية الشيخ التى لم تستطع أن تستوعب منجزات العلم والحضارة الحديثة، وهذا ينعكس بالطبع على الإسلام والدين الذى يدعو له الشيخ.

* **ثالثاً:** موقف الشعراوى السلبى أيضاً من القضايا الفكرية يدفع البعض إلى أن يسأل: أين كان الشيخ؟ بل لايتوقف الأمر على ذلك، فالذين يهاجمونه يرتكزون على رأى الشيخ وتأييده للأزهر فى مصادرة الكتب وتكفير البعض، وهو موقف بالفعل يثير التساؤل، خاصة إذا كان هذا الكلام يخرج من شخصية فى حجم وثقل الشعراوى..

فغياب الرجل المستمر والدائم عن معاركنا الثقافية والتى عادة يكون علماء الدين

ورجاله طرفاً فيها يجعل البعض يظن ظن السوء بالرجل، ونذكر مثلاً ماقاله عن «أولاد حارتنا»، فالشعراوى يرفض الحديث ويقول ليس لى علاقة بهذا الموضوع، وهو يرفض كذلك أن يقول رأيه فى نظام الحكم. ورأيه هنا المقصود به رأى الدين وماجاء فيه من آيات وأحاديث وأحكام حول الموضوع، لكن الشيخ مرة ثانية يقول: «أنا ماليش دعوة»!!

فهروب الرجل المستمر يثير حوله الغبار ويضع على مواقفه آلافا من علامات الاستفهام.

* **رابعاً:** تصريح الشعراوى كذلك.. وهو من هو؟! بأنه لم يقرأ أى كتاب منذ عام ١٩٤٠، فهذا شأن خطير.. ويعلق البعض على ذلك بأن هذا يمثل كارثة، فمادام الرجل لايقرأ، فكيف نثق فى كلامه؟ والشيخ مخطىء فى مثل هذا الكلام، وأنا لا أصدقه فيه مطلقاً.

قد يكون الشعراوى رغب فى أن يرسم لنفسه صورة الرجل الخارق الذى لايقرأ منذ نصف قرن، ولكنه مع ذلك يملأ الدنيا كلاماً ويتحدث فى مختلف العلوم ويفتى فى معظم الشئون وتغزو كتبه الأسواق، والتليفزيون يذيع أحاديثه والراديو يعيد بثها.

هذا كله يدخل فى نطاق المنطق العبثى، فالرجل غير صادق فهو يهزل بالتأكيد والذين هاجموا الشعراوى عزفوا على هذا الوتر كثيراً ولهم حق فمادام الرجل نفسه صرح بذلك ومن الصعب أن نلتمس له أى عذر فى هذا الموقف.. ومشكلة الشعراوى أنه يصرح كثيرا، ففى الوقت الذى يقول أنه لايقرأ يقول:

«آفتنا الآن كثرة الموجود وإذا ما سلسلت المكتوبات تجدها كلها تكرار وكلها نقل وكلها مش عارف إيه وكل واحد أحب أن يكون مؤلفا هذه مسألة متعبة احنا شوف العمر الإطلاعى لى ينتهى سنة ١٩٤٠ لا أطلع إلا ما يقال لى الناس اللى يقولوا ده كتاب كويس لأننى حاولت اقرأ كتير..».

والمسألة هنا أخطر وتجعل من يهاجمه يزيد فى هجومه فالشعراوى لايقرأ إلا مايقول له الناس عليه، هذا على حد قوله هو.. فالشعراوى الذى قال أنه لايقرأ يعود ويقول أنه يقرأ... تناقض لانقبله وموقف يجر عليه المتاعب.

* **خامسا:** فتوى الشعراوى حول نقل الأعضاء كانت سببا كافيا للوقوف فى وجه الشعراوى، فالرجل بمنتهى السهولة أفتى بأن نقل الأعضاء حرام وأن الذى يفعل ذلك سوف يذهب إلى الجحيم لأنه يتصرف فى شيء ليس من حقه أن يتصرف فيه، فالإنسان إذا كان يملك جسده فإنه يملك هذا الجسد ملكية انتفاع وليست ملكية تتيح له التصرف بالبيع أو الشراء. الشعراوى قال ذلك وبعدها قامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن.

البعض قال أن هذا شأن من شئون الطب ولايجب على الشيخ أن يتدخل فيه والبعض احتج بالمشاعر الإنسانية إذ كيف تترك بشراً يتألم ويتوجع ونحن نملك الوسائل التى تستطيع أن تخرجه من هذا الألم وهذه الأوجاع، البعض اتهم الرجل بأنه يجهل حتى أمور الدين فكيف يقول أو يدعى أن نقل العضو من شخص سليم إلى شخص مريض يمكن أن يطيل عمر المريض.. الشعراوى قال ذلك بالفعل بل إنه سخر من الذين يعملون على تأجيل الموت ومن غرف الإنعاش ومن غسيل الكلى والغريب أن الشعراوى لم يؤيده إلا القليل وخرج الجميع ليقولوا له: لا.. حتى دار الإفتاء قالت: لا.. فكلامك خطأ يامولانا.

* **سادساً:** كلمات أخرى قالها الشعراوى قامت عليه الدنيا بها وهاجمه الجميع، فالشعراوى صرح أنه سجد لله شكراً على هزيمة ٦٧ لأن مصر كانت فى حضن الشيوعية وقتها، وإذا انتصرت مصر فإن النصر كان سينسب إلى الفئة الضالة الكافرة وخرج الجميع بأقلامهم وألسنتهم على الشيخ ولم يشفع له استناده إلى موقف النبى حيث أثنى على ربه وشكره بعد هزيمة أحد.. لكن الكل قال كيف يفرح الرجل ويسجد شكراً لله على مقتل الآلاف والنساء الأرامل والأطفال اليتامى وكيف يسجد لانكسار أمة وضياع وطن.. كيف يفرح الشعراوى والكرامة ضاعت والمهانة حلت.. الغريب أن الشعراوى مصر ومازال يكرر أنه إلى الآن يشكر الله على هذه الهزيمة.

هذا الكلام وهذا التصـريح بأنه إلى الآن لم يتراجع عن موقفـه فتح عليه أبواب جهنم وأعـطى الحق للبعض أن يقـول أن الشعراوى لايحب هذا الـوطن ولولا الحرج لقالوا أن الرجل خائن لتراب مصر . .

* **سابعاً:** شئ آخر يجعل الشـعراوى يقف على صفيح ساخن فى مـواجهة من يتعرضـون له ومن يقفون لآرائه ولأفكاره، فهناك ترسانة مـن التناقض والتضارب فى تصريحات وفتاوى الشعراوى. وقد يصل التناقض فى كلامه إلى أنك تشعر أن الكلام لرجلين مـخـتلفين فـى كل شىء. والمثال البـارز على ذلك هو تناقـض تصريحـات الشعراوى آثناء مؤتمر السكان الأخير الذى عقد فى مصر عام ١٩٩٤، وكان الشعراوى قد قال فى بعض الصحف أنه يعارض مؤتمر السكان فهو مؤتمر يعمل على هدم الدين بتقنينه بعض القوانين الـتى تضرب أساس المجتمع السليم، لكنه عـاد مرة أخرى وقال أهلا بمؤتمر السكان وما بين رفضه للمـؤتمر وموافقته عليه حدثت أشيـاء عديدة جعلته يغير موقفه. هذا التناقض والتضارب جعل البـعض يستبيح لنفسه الهجوم على الشيخ ويذكر هذه المواطن التى يضـرب فيها الشـعراوى نفسه بنفـسه. فمرة يقـول نعم ومرة يقول لا، والمسـألة تسير إلى خضم من الكلـمات المطلقة التى ليس فيـها أى نوع من التحديد.

* **ثامناً:** التكرار وهو شىء يسود فيما يقوله الشعراوى وما يصدر باسمه من كتب فكل ما يقوله الشعراوى ومايكتب باسمه يعـتبر مادة علمية محدودة للغاية، لكن هذا الإنتاج الذهنـى للرجل ترهل وذلك بفعل كـتيبـة من الكتبـة الذين يتسلمـون الإنتاج ويصوغونه فى كتب مما يجعله مكرراً ومتناقضا. وهذه نقطة أخرى تجعل الهجوم على الشيخ ضاريا حيث إنه يترك الآخرين يكتبون ويكتفى هو بالمشاهدة.

* **تاسعاً:** كلمة الشعراوى التى أطلقهـا فى مجلس الشعب بعد أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ عندما قال عن السادات:

«لو كـان الأمـر بيدى لرفـعت الذى انتـشلنا مما كنا فـيـه إلى درجـة ألا يُسأل عما يفعل».

وهذه الكلمة التى قالها الشعراوى وربما لم يكن يلقى لها بالا فتحت عليه أبواب

الجحيم من الناحية العقائدية قبل كل شيء، فالرجل أعطى رجلا ما لا يجوز إلا لله فقط. ومن ناحية أخرى احتج البعض على علاقة الشيخ بالحاكم والسلطان حيث وصفوه أنه رجل سلطان، فهو بمثل هذه الكلمة ينافق الحاكم خاصة أن الشيخ قال هذه الكلمة وهو فى الوزارة.

* **عاشراً:** موقف الشعراوى من الأقباط كذلك يثير عليه الغبار فالرجل يغمز ويلمز ويوجه لهم كلاما غير لائق وغير مناسب وعندما يُسأل عن ذلك يقول:

«أما مسألة أننى عملت ضجة كبيرة وأنا بأفسر القرآن.. عملت ضجة أم أن القرآن هو الذي عمل ضجة طيب وأنا ذنبى إيه. الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا﴾ فإذا خالفونى فى هذا يبقى لهم كلام».

ولم يشفع للشعراوى لقاؤه الأخير مع البابا وتأكيده على العلاقة بين المسلمين والأقباط حيث قيل أنها حركة استعراضية من الشيخ. ربما ـ الله أعلم.

* **حادى عشر:** الغرب عند الشيخ مصدر إزعاج له وللآخرين فالشيخ ليس مع الغرب دائما، وفى الوقت ذاته ليس ضد الغرب دائما، فهو كثيراً مايجرد الغرب من كل فضيلة فهم ملاحدة وكفرة وأبناء كذا. . . وفى الوقت نفسه لايمانع أو يعارض أن يذهب إلى هذا الغرب حتى يعالج فيه ويكون الطبيب الذى يعالجه قبطيا. هذا الموقف ألب على الشيخ كلاما كثيرا، ودخل له البعض من هذه الزاوية إذ كيف تهاجم الغرب ثم تذهب إلى أرضه لتعالج هناك.

* **ثانى عشر:** الشعراوى فى نظر بعض الذين يهاجمونه مجرد نصاب أو مخادع أو رجل يقوم بتزييف الوعى العام فهو يقول أن الآخرة لنا فلا شأن لنا إذن بالدنيا فأصحابها يفعلون مايرغبون فيه، وكذلك يقومون باختراع الوسائل التى توفر الراحة ونحن نستخدم هذه الوسائل على الجاهز.

كذلك مسألة إسرائيل واليهود والحرب فالرجل مازال يؤكد على أن القوة المادية ليست كل شيء ولابد من العون الذى يأتى عن طريق الناس، بالطبع فالشيخ يزيف ويخدع الناس ويعيشهم فى عوالم من الحلم ويحجب عيونهم ويضع عليها عصابة سوداء قاتمة، يعتقدون أنهم فى أحسن حال، مع أن الواقع مؤلم ومؤسف وحزين [illegible] إطار الواقع يحلق بالأحلام والأمنيات فالرجل مرفوض بكل الأشكال عند هؤلاء.

* **ثالث عشر:** أسلوب الشعراوى فى الحديث يجعل البعض يؤكد أن الرجل مخادع فهو أسلوب جديد على الناس ونمط جديد من الدعاة فهو يستطيع أن يقنع الجميع وهذا جعله يمرر أفكاره المرفوضة إلى الناس بسهولة.

* **رابع عشر:** تلك التهمة التى يرفعها الشعراوى فى وجه كل من يحاول أن يناقشه بأنه شيوعى ومنتفع ويريد أن يهدم الدين، وهو اتهام استفزازى إلى أبعد حد مما يجعل الجميع يصرون على مهاجمته واعتراض طريقه والزج به فى كل خلاف حتى وإن لم تكن له علاقة به.

* **خامس عشر:** موقف الشعراوى من المرأة من أهم مايثير حفيظة الذين يقفون بالمرصاد، فهم يعتبرون نظرة الشعراوى للمرأة نظرة متدنية، فهى بالنسبة له وسيلة مهمتها البيت فقط فإذا تحدث عن تعليم المرأة فيجب أن يكون التعليم تربويا من أجل بيتها من أجل أبنائها.

كذلك حديث الشعراوى الدائم عن الرغبة الجنسية ووصفه لها أنها الرغبة الوحيدة التى «تنقح» على الإنسان وتنقح هذه بتعبير الشعراوى نفسه. فهذا الحديث المتكرر يجعل الشعراوى فى نظر هؤلاء مجرد رجل ينظر إلى المرأة على أنها متاع للرجل وجسد يفرغ فيه طاقته.

وإن كنا نعترف أن صورة المرأة عند الشعراوى ليست بهذا السوء، لكن ما قاله الشعراوى وما يكتبه له وعنه الآخرون يجعل البعض يمسك خيوط هذه الصورة ويبنى عليها مايشاء من أحكام.

هذه بعض الأسباب التى تتعلق بالشعراوى لكن ماهى الأسباب التى تتعلق بالذين يهاجمون الشعراوى.

الذين يهاجمون الشيخ فئات ثلاث:

* فئة تبنى هجومها على أساس علمى سليم ويمكن أن نطلق على نقدهم نقدا علميا، فهم يعترضون على فتاوى الشعراوى لكن معهم الأسانيد والحجج المقنعة إلى حد كبير. من هؤلاء المستشار سعيد العشماوى الذى تعرض للشعراوى فى أسلوب تفسيره للقرآن حيث اعترض على التفسير اللغوى الذى ينتهجه الشعراوى وقدم لذلك أسانيد ودلائل.

* الفئة الثانية وهى مايمكن أن نطلق عليها مدرسة النقد الصحفى، وعلى الرغم من العيوب التى تلحق بالنقد الصحفى فهو غير دقيق وبه كثير من المعلومات الخاطئة، لكننا نقابل فى هذه المدرسة صحفيا قد يكون هو بالذات أكثر الذين كتبوا عن الشعراوى فى مصر. ذلك هو الأستاذ إبراهيم عيسى الذى كتب مقالات عديدة عن الشعراوى ولم تخل كتبه من حديث عن الشعراوى.

وإبراهيم عيسى صحفى لاتستطيع إزاءه إلا أن تحترمه، فهو يجبرك بالفعل أن تحترمه، فهو يمتلك أسلوبا جذابا وأفكارا تشعر فيها بالإبداع والابتكار. ولذا فمعالجته لما يتعلق بالشعراوى على مستوى الأفكار والمواقف نجدها معالجة تتميز بالدقة والموضوعية، وإن كانت هناك بعض المعلومات الخاطئة التى أوردها إبراهيم عيسى عن الشعراوى لكن الصورة العامة لما يكتبه عنه صورة أسهمت بقدر كبير فى تعريف الناس على من هو الشعراوى وماذا يكتب.

* الفئة الثالثة تنتمى كذلك إلى مدرسة النقد الصحفى لكنها مدرسة تتحقق فيها كل عيوب مدرسة النقد الصحفى.. فأصحابها يكتبون من أجل الكتابة فقط فالشعراوى بالنسبة لهم ـ ونعتذر للشيخ عن هذا التعبير ـ درجة فى سلم يصعدون عليه.

وعليه تشيع فى مقالاتهم ومايكتبونه عنه المعلومات الخاطئة والاستنتاجات المتحيزة.

فى النهاية سيظل الشعراوى فى منطقة الضوء وسيظل الهجوم مستمرا، سواء كانت الأسباب متعلقة به أو بمن يهاجمونه ـ فالشعراوى بمثابة المشروع الاستثمارى الكبير لكل هؤلاء الذى يكتبون، سواء للشعراوى أو عن الشعراوى وسواء كانوا يؤيدونه أو يهاجمونه.

مانحتاجه بالفعل هو نقد حقيقى لما كتبه وقاله الشعراوى، فإن ذلك يقدم فائدة كبيرة للمسلمين، فالشعراوى مع اختلاف الجميع عليه لكنه رجل لانستطيع أن نقلل من شأنه أو نتهمه فى قليل أو كثير بلا دليل.

نهاية القول فيه:

«أنه رجل وليس ملك».

والزمن الذى يحمل لنا رجلا بلا أخطاء هو بالتأكيد زمن لم يخلقه الله بعد.

كلمات باقية ... لكن لابد منها

كانت هذه رحلة قضيناها مع الشيخ الشعـراوى الإنسان والداعية صاحب الفتاوى والآراء فى شتى جوانب الحياة.

كدنا نصل إلى نهاية الرحلة وما بقى فى جعبتنا منها كلمات فقط.

أظن أن الشعراوى ظُلم فـى بعض ماكتب عنه وبعض ماكتـب باسمه، وللأسف الشديد فالرجل كان من الأسباب التى أدت إلى ذلك. وهذا نتيجة بسيطة لكل ماسبق من سطور.

والمسـألة خطيرة للغـاية، فلو مات الشـعراوى وأفكاره ملقـاة هكذا على قـارعة الطريق فسـوف تضيع كل قيـمة فكرية وكل اجـتهاد للرجل.. وعليـه لابد من إعادة كتابـة الشعراوى مرة أخرى.. بـالفعل فأنا أعنى مأقـول: لابد أن نكتب الرجل مرة ثانية.. لكن هذه المرة لايكون الغرض هو التجارة..

فقط نعـيد ماكـتب الشعراوى بغـرض تقنين ماكـتب الرجل، نرفع منه المتناقض والمخالف للمنطق والعقل ثم يشرف الرجل على الناتج النهائى.

ساعتها فقط سنقرأ ماكتب الشعراوى ونحن فى غاية الاطمئنان.

هذا وفقط...

المراجـــع

١ ـ الكتب:

- صفوة التفاسير — محمود على الصابونى
- تفسير الشعراوى — الشيخ الشعراوى
- فتح البارى فى شرح صحيح البخارى — ابن حجر العسقلانى
- رياض الصالحين — الإمام النووى
- الرحيق المحتوم — صفى الدين المباركفورى
- عمرو بن العاص — نظمى لوقا
- فقه السنة — سيد سابق
- الشعراوى حكايتى مع هؤلاء — سعيد أبو العينين
- الشعراوى الذى لانعرفه — سعيد أبو العينين
- الشيخ الشعراوى من القمة إلى القاع — محمود فوزى
- الشيخ الشعراوى والعلاج بالقرآن وأمور الدنيا — محمود فوزى
- معجزة القرآن «جـ١» — الشعراوى
- خواطرى حول القرآن الكريم «جـ١» — الشعراوى
- لبيك اللهم لبيك — الشعراوى
- من الألف إلى الياء «الحديث التليفزيونى» — طارق حبيب
- حديث الروح مع الشيخ الشعراوى — مأمون غريب
- غضبة لله — محمد ثابت

ـ أنت تسأل والإسلام يجيب	الشعراوى
ـ الفتاوى للشعراوى «جـ١»	سيد الجميلى
ـ الشيخ الشعراوى بين السائل والمجيب	كتاب الجمهورية
ـ ١٠٠ سؤال وجواب مع الشيخ الشعراوى	إبراهيم مصبح
ـ عمائم وخناجر	إبراهيم عيسى
ـ أفكار مهددة بالقتل	إبراهيم عيسى
ـ حكم الإسلام فى الموسيقى والغناء	أبو بكر الجزائرى
ـ حكاية أولاد حارتنا «مجموعة»	«كتاب اليوم»
ـ اعترافات نجيب محفوظ	محمود فوزى

٢ ـ الصحف:

ـ الأهرام عدد السبت ١٩٩٦/٦/٤

ـ الأخبار عدد الجمعة ٩ فبراير ١٩٩٦

ـ جريدة صوت الأمة عدد الأربعاء ١٩٩٦/٦/٥

جريدة الرأى العام العدد ٥٠٧

ـ صباح الخير عدد ٩ نوفمبر ١٩٩٥ تحقيق رضا حماد «عبد الناصر فى منام الشيخ الشعراوى»

ـ روز اليوسف الأعداد:

٣٤٢٤ ـ ٩٤/١/٢٤

٣٤٩٠ ـ ٩٥/٥/١

٣٤٤٩ ـ ٩٤/٧/١٨

فهرست

١ ـ الإهــــــداء ٥

٢ ـ مقدمة . . . . كلمات قليلة لابد منها ٧

٣ ـ الفصل الأول . . الشعراوى أبيض وأسود ١١

٤ ـ الفصل الثانى . . فتاواك يامولانا ١٠٧

٥ ـ الفصل الثالث . . الهجوم على الشعراوى . . لماذا؟ ٢٤٩

٦ ـ كلمات باقية لابد منها ٢٦٠

٧ ـ المراجع ٢٦١

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

لشيخ الشعراوى..

هذا الرجل أحبه وأحترمه، لكنى لا أرفعه لدرجة أن النظر إليه حرام والاعتراض عليه كفر.

فالشيخ الشعراوى رجل تعلم، وكثيرون هم أولئك الذين تعلموا.. اجتهد، وكثيرون هم أولئك الذين اجتهدوا..

ولأنه كذلك.. فمن حقنا أن نقول له «لا».. حين يجب أن نقول له «لا»..

ونقول له «نعم».. حين يجب أن نقول له «نعم»..

وفى الوقت الذى أقول له مرحباً بك كرجل دين..

أقول له.. لا مرحباً بك كقديس..

فلا قداسة لبشر.. حتى ولو كان الشيخ الشعراوى.

محمد الباز

الأهرام AL-AHRAM